من هدى القرآن

٥

تفسير سور

هود إلى الحجر

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سوره هود

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة

عن النبي محمد (ص) قال :

«**من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعـدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء**»

مجمع البيان ـ ص ـ 140 ـ الجزء ـ 5 ، 6

عن رسول الله (ص) قال :

«**شيبتني سورة هود وأخواتها**»

نور الثقلين ـ ص ـ 334 ـ الجزء ـ 2 ـ

عن الامام الباقر (ع) قال :

«**من قــرأ ســورة هــود في كل جمعة بعثه الله يــوم القيامة في زمــرة النبــيين وحوسب حســابا يسيرا ولم تعرف له خطيئة عملها يوم القيامة**»

مجمع البيان ـ ص ـ 140 ـ الجزء ـ 5 ـ

الإطار العام

لعـلّ الآيـات (112 ــ 120) في نهاية السـورة تحـدّد الإطار العام لها. حيث تأمر الرسول بالاستقامة ، والابتعاد عن الظالمين ، واقامة الصلاة ، والصبر ، والإحسان.

كما تذكره بدور بقيّة الله ـ ممن ينهون عن الفسـاد ــ في التــاريخ ، وكيف ان الله أنجــاهم وحــدهم بينما أهلك الظالمين الذين اتبعوا ما أترفوا فيه. وكانوا مجرمين!

وتبيّن : انّ الله لم يهلك القرى الّا حين انعدم الصـلاح بينهم.

وان الاختلاف ســـنة تاريخيّة بين النـــاس وان الله لم يخلق الناس ليعذبهم ـ بل ليرحمهم ـ بيد انه قد قضى بان يملأ جهنّم من الجنة والناس أجمعين.

وانّ القصص الـتي ذكرها الـرب كـانت بهـدف تثـبيت فـــؤاد الرســـول. كما لبيـــان الحق ، ولتوفـــير الموعظة والذكرى للمؤمنين.

وتكاد تكون آيـات سـورة هـود تفصـيلا لهـذه البصـائر المحكمة ببيان جوهر

رســالات اللــه. الــذي حملها النــبيّون عليهم الســلام الى الناس ، وتحمّلوا ـ من أجلها ـ ألوانا من العنـاء ، وأنجـاهم الـــربّ من بطش قـــومهم ، وانـــزل العـــذاب الأليم على الكافرين برسالاته.

وهكذا .. اضحت الرسالات هذه محور النجاة والعذاب فمن اتبعها أنجـاه اللـه. ومن خالفها لحقه العـذاب واللعنة في الدنيا. والنار والشقاء في الآخرة.

جــوهر رســالات الله ، وفي طليعتها رســالة القــرآن الـتي أحكمت آياته ثم فصّـلت ، هي : توحيد العبودية للـه. والإنذار والبشارة. والأمر باستغفار الربّ في الدنيا والتوبة اليه. لضمان حياة سعيدة. (1)

واتقـــاء يـــوم البعث. والخشـــية من الله الـــذي يعلم ســـــــرهم وإعلانهم ويعلم كل شـــــــيء أو ليس قد خلق الســـماوات والأرض في ســـتة أيـــام. والهـــدف هو ابتلاء الناس.

ولأن تم تأخير العذاب عن هـؤلاء الـذين كفـروا باللـه. ورسالاته وبيوم الدين. فلأنّه يـوم يـأتيهم لا يـؤخر عنهم. (4).

وبعد بيان طبيعة الجزع عند البشر الا المؤمـنين منهم يثبت القـرآن فـؤاد النـبي (ص) بأنه منـذر اما المنتقم فهو الله الوكيل على كل شيء ، ثم يأمره بتحـديهم بـان يـأتوا بمثل القرآن. وإذ يظهرون عجزهم فليعلمـوا : ان القـرآن انزل بعلم الله. (14)

وهكذا جـاءت رسـالات الله على لسـان نـوح. وكـانت فصــول الجــدل ... والصــراع بينه وبين قومه تعكس حالة العناء عند قومه. وقوة الاستقامة عند نـوح عليه السـلام ، وانتهت بالطوفـــان. حيث أنجى الله نوحا والـــذين آمنـــوا وأغرق الظالمين وبينهم ابن نوح الذي لم يغن عنه انه ابن نوح لأن محور النجاة هو توحيد الله. (25)

ومن بعد نوح جاء هود يدع قومه عادا. بتلك الرسالات فلم يستجيبوا له وجرى

بينهم صراع مشابه. وعاندوا وتحداهم وأيــده الله واهلكهم بعذاب غليظ. (50)

وكــذلك ثمــود حين جــاءهم أخــوهم صــالح. وأمــرهم بتوحيد عبادة الرب وجــاءهم بآية هي ناقته الــتي لم يلبثــوا ان عقروها فجــاء امر الله ونجىّ الــرب عبــده ورســوله صالحا وأخذ الذين ظلموا الصيحة. (61).

وهكذا .. إبــراهيم ولــوط وشــعيب وموســى. وبــالرغم من أن جـــوهر رســـالات الله واحـــد. الّا ان هنـــاك بعض التفاصيل المختلفة بسبب اختلاف الظروف.

وبعد بيان كل تلك القصص يبين السياق العــبرة منهــا. وتذكر بالقيامة. حيث ان عذاب الله في الــدنيا ، اية عذابه في الآخرة ، كما ان رحمته ونجاته هنا آية نعيم الجنة التي هبتها للمؤمــنين وأخــيرا يــذكر القــرآن رســوله بضــرورة الاســتقامة. ذلك الأمر الــذي شــيب الرســول ــ صــلى الله عليه وآله ـ كما جاء في حديث مشهور.

سورة هود مكية وهي

مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)

كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ

هدى من الآيات :

ما هو الكتـــاب؟ انه آيـــات محكمة قد اتقنتها حكمة الـرب ، ثم فصـلتها وأوضـحت الحقـائق بها ، والـذي بعث بالكتاب هو الرب الحكيم الذي يمنع الفساد ويخلق الصلاح ، والخبير العالم بألطاف الأمور سبحانه.

ومن محكمـات آيـات الكتـاب التـذكرة بالله ، والأمر بـإخلاص العبوديّة له ، وأن الرســول نــذير وبشــير منه ، وكلما أبعدت الخطايا والذنوب والغفلات البشر عن رحاب ربهم ، فعليهم ان يســتغفروه ويتوبــوا إليه ابتغـاء الحيــاة السـعيدة في عاجل الـدنيا حـتى يبلغ أجله ، وابتغـاء فضل الله ، وإذا اسـتمر البشر في غيّه ، وتـابع سـيرة الضـلالة والانحراف ، فانه يخشى عليه من عذاب يوم كبـير ، وغـدا حينما يرجع البشر الى ربهم ، يبعثهم من جديد بقدرته الواسعة .. آنئذ يحاسبون عند الله.

بينات من الآيات :

[1] مـاذا تحمل هـذه الكلمـات الثابتة المكتوبة (الـر) في طياتها؟ انها تحمل

آيات تشير إلى الحقائق ، تذكر بها وتهدي العقول إليها.

(**الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**)

فالقرآن ليس أفكاراً بل هو آيـات تشـير مباشـرة الى الحقيقة لكي يراها البشر فـــور ما تشـــير إليها ، والآية بمعـنى العلامة والكلمة مـأخوذة من مـادة (أوى) بمعـنى الـذهاب إلى الـبيت وكـأن العلامة تـذهب بك الى رحـاب الحقيقة ذاتها ، والقــرآن هو ذلك الكتــاب الــذي يبصــرك بالحقائق.

وآيات القرآن محكمة ومفصلة ، اما الأحكام فهي آتية من حكمة الله ، التي لا تـدع ثغـرة في كلماته ، ولا سـبيلا للباطل إليها ، بل يصـبّ الكلمـات على مقيـاس الحقيقة دون زيادة بوصة أو نقيصة بوصة ، أو فراغ في جزء ، فهو يقـــول كل الحقيقة وبكل أبعادها ، واما التفاصـــيل فهو تحديد تلك البصـائر المحكمة ضـمن واجبـات ومحرمـات فرعية ، فـــالقرآن مثله مثل الشـــجرة راســـخة الجـــذور منتشرة الفروع.

والأحكام بحاجة الى حكمة ، فمن لا يعـرف الخطـوط العامة لأنظمة الحيـــاة ، كيف يتســـنى له ان يضع برنامجا متكـــاملا لها ، ويعطي رؤية صـــادقة ، كما ان التفصـــيل بحاجة الى خبرة ومعرفة سابقة لدقائق الأمور ولطائفها ، والله حكيم خبير.

(**مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**)

وتلك الحكمة التي نشاهدها في الإطار العام للكـون ، وتلك الخـــبرة الـــتي نراها في أدّق الأمـــور ، وألطفها مثل صـــنع أوجه النملة ومفاصل أرجلها ، أو في صـــنع الخلية الحية ، أو صـنع الـذرة المتناهية في اللطـف. إن كل ذلك شـــاهد على حكمة الله وخبرته ، وأن خـــالق المجـــرات الحكيم وصانع الذرة الخبير ، هو الذي أمر بحكمته إخلاص العبودية له ، ووضع بخبرته برنامجا تفصيليا لهذه العبادة.

التوحيد وفروعه :

[2] ومن الآيــات المحكمة الموجــودة في الكتــاب دعوته الصريحة إلى نبذ الشركاء من دونه.

(**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ**)

إذ أن التوحيد بصيرة عامة تتفرع عنها سـائر الشـرائع الإلهية ، وبعدها تأتي الرسـالة الـتي هي بـدورها فـرع من فروع التوحيد.

(**إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**)

[3] واسـتغفار الله فـرع ثـان للتوحيـد. إذ حينما يعمر قلب الفرد بأيمان صادق بالله ، ويعـرف عظمته وكبريـاءه ونعمه التي لا تحصى ، آنئذ يشعر الفرد بالصغار امـام الله ، ويســتغفره ويتوسل اليه ، لــذلك جــاء في آية اخــرى (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ**) [1] حيث ان الاستغفار جاء بعد الايمان بالله لأنه فــرع متصل به ، وبعد حالة الاسـتغفار تـأتي مرحلة التوبة وهي العـودة الى الله وخلوص العبـادة له وإخلاص العمل في سـبيله ، فلا يكفي النــدم على ما مضى من الــذنوب ، بل لا بد من إصــلاح المستقبل.

(**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**)

وبالاستغفار والتوبة يـوفّر الـرب لعبـاده حيـاة طبيعية هنيئة ، إلى وقت محدود.

(**يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**)

---

(1) سورة محمد آية 19

أي كلما زاد الفرد من تقربه إلى الله ، واسـتغفاره له وتوبته اليه ، كلما منحه الله فضلا أكثر.

(**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**)

من نـوع عـذاب عـاد وثمـود ، حيث انه في يـوم واحد حطّم مكاسب دهر طويل. لذلك سمّى باليوم الكبير.

[4] وبعـده يعـود النـاس الى الله ، حين يبعثـون في القيامة إلى الله ، وذلك بقدرته البالغة الـــتي لا يقف في طريقها شيء.

(**إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

ويبدو من هـذه الآية ومن آيـات أخـرى أن أهم حـاجز نفسي امــام إيمــان النــاس بالقيامة ، هو عــدم إيمــانهم بقدرة الله على البعث الجديد ، لـذلك يـذكرنا السـياق بعد ذكر القيامة بقدرة الله.

سورة هود

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ

---

(5) [يثنون] : أصل الثّني العطف ، والمقصود يطوونها على العداوة وعلى ما هم عليه من الكفر.
[ليستخفوا] : الاستخفاء طلب إخفاء الشيء ، يقال استخفى وتخفّى.
[يستغشون ثيابهم] : يتغطّون بثيابهم.
8 [أمّة] : حين من الزمان.

ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحـاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8)

إحاطة علم الله

هدى من الآيات :

في الدرس الأول من سورة هـود ، بينّ القـرآن بعض الآيات المحكمات واستعرض الخطوط العريضة للرسالة ، وفي هذا الدرس يدخل الكتاب في التفاصـيل ، بـدء بواقع كفر وجحـود النـاس ، ويبـدو أن أحد الأسـباب الاساسـية للجحــــود هو الجهل بإحاطة علم الله بهم ، وبالـــــدوافع الأصـيلة لكفـرهم ، فـتراهم يثنـون صـدورهم ويعطفونها بهدف إخفـاء حقيقتهم بينما الله يعلم أسـرارهم حـتى في لحظة تسترهم بالثياب.

وكلّ حي يدب في الأرض رزقه على الله ، ويعلم أيام حياته ، وميعاد موته. كل ذلك مكتوب في الكتـاب الواضح ، والله خلق السـماوات والأرض في سـتة أيـام ، وكـانت سـلطته وقدرته مهيمنة على المـاء المخلـوق الأول الـذي جعل منه كل شـيء حي. وحكمة الخلق هي ابتلاء النـاس ليعلم من هو الأحسن عملا ، فيجازى في الاخـرة ، بينما لا يؤمن البعض بالآخرة ، ويزعمون أنها سـحر مـبين ، الغاية من طرحه

تمويه الحقيقة ، أما لو أخّر الله عنهم عـذاب الـدنيا الـذي هو طريق آخر لتنبههم فستراهم ينكرونه أصلا ، ويقولون : ما الــذي يحبس العــذاب عنا ما دمنا مســتحقين له ، ولا يعلمون ان العـذاب لو نـزل بسـاحتهم فلا يصـرف عنهم ، وسوف يحيط بهم ذلك الذي كانوا به يستهزءون.

بينات من الآيات :

إحاطة علم الله :

[5] الكفــار يثنــون صــدورهم ، اســتخفاء للحقيقة ، فتراهم يسرون في قلوبهم وكأنهم يطوون صدورهم فوق الشر ، ويعطفونها عليه ، أو كأن المرء منهم حين يريد ان يقول سرا ينحني وينثني ـ تبعا لـذلك ـ صـدره ، ولكن هل ينفعهم ذلك شيئا. كلا .. لأن الله عليم بسرهم وعلانيتهم ، وما يتداخل في صدر البشر من شـهوات وأهـواء وعوامل مختلفة للـرفض والإنكـار كالاسـتكبار والجهل واللامبـالاة وحب الدنيا والدعة.

(**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ**)

في اللحظــات الــتي يختلــون بأنفســهم تحت غشــاء الثيــاب ، حيث يبقى الفــرد ووجدانه ويحاكمه وجدانه على إنكاره للرسالة ، وكذبه ونفاقه ، والله شاهد آنئذ عليه.

(**يَعْلَمُ ما يُسِــرُّونَ وَما يُعْلِنُــونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِــذاتِ الصُّدُورِ**)

[6] وعلم الله محيط بكل شيء وكـذلك رحمته ، فهو الذي يرزق كل دابة في الأرض ، فكيف لا يعلم بها.

(**وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللـــــهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها**

(**وَمُسْتَوْدَعَها**)

أيّ يعلم حياتها وموتها .. أو في بيتها وفي رحلتها.

(**كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ**)

مكتوب بوضوح وبتحديد.

الكفار بين عذاب عاجل وآجل :

[7] فالله محيط علما ورحمة بما في الأرض من دابة ، وقبل ذلك خلق السـماوات والأرض في سـتة أيـام خلقا بعد خلق ، فارضا هيمنته وسـلطانه على الكـون ، وفي ذات الوقت ناشرا رحمته وبركته في ستة أيام.

(**وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ**)

يبـدو أن عـرش الله هو قدرته وسـلطانه ، ولأنه لم يكن آنئذ شيئا ، غير مادة سائلة كالمـاء ، فـان عـرش ربنا كان مستويا على الماء والله العالم.

(**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)

ان حكمة خلق البشر هي امتحـان إرادته وعقله ، وهـذه الحكمة لا تتحقق من دون الإيمـان بـالآخرة. ولأنهم يكفرون بالآخرة تراهم لا يخضعون للرسالة الإلهية.

(**وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُـونَ مِنْ بَعْـدِ الْمَـوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**)

يبدو ان الكفار كانوا يتخذون موقفا سلبيا من الرسالة ومن توجيهاتها ، ويعتبرون كل كلماتها تمويها وتضليلا ـ كما السحر ـ فلا يفكرون فيها ليعرفوا صحتها ،

بينما لو تـدبروا قليلا في خلق السـماوات والأرض لـرأوا آيـات الحكمة ، وأن تطـور الكـون وتكامله ، وتحقيق كل جـزء منه لغاية معينة ، شـاهد على ان البشر خلق أيضا لتحقيق هـدف محـدد ، وانه لا يكـون إلا بـالابتلاء ، وتمـام الابتلاء هو الجزاء في يوم البعث.

[8] والجـزاءات عـاجلا أم آجلا ، وإن تـأخيره ليس إلا لحكمة مثل الابتلاء ، بيد انهم يتخـذون من هـذا التـأخير مبررا للكفر والجحود.

(**وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَـذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْـدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ**)

ان التـأخير ليس بلاخطة حكيمة وتقـدير رشـيد ، انما هو لـوقت معين (امة معـدودة) ولكنهم يتسـاءلون عن سبب تأخيره ، وكأن التأخير دليل عدم العذاب ، وهـذا من أبـرز نـواقص البشر ، انهم يخشـون الجـزاء العاجل ، ويكفرون بالجزاء الآجل ، ولكن عليهم أن يعلموا.

(**أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْـرُوفاً عَنْهُمْ وَحـاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

فلقد كانوا يسـتهزئون بالعـذاب ، وها هو محيط بهم ، يحاصـرهم دون أن يقـدروا على ردّة ، بينما اسـتهزءوا سابقا به.

سورة هود

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

الإنسان بين اليأس والفخر

هدى من الآيات :

في هذا الدرس يــذكرنا الله بما فطر عليه البشر قبل التربية والتزكية من صــفات جاهليــة. إنه يتعــرض لليــأس والكفر بالنعم إذا فقد نعمة.

اما إذا أصـاب نعمة بعد شـدة ، يـزعم ان هـذه الحالة ستبقى عنـده ، فينغمس في غمـرات الفـرح والفخر ، اما الصابرون الذين يقيمـون الأحـداث كلها السـابقة والقادمة والحاضــرة تقييما ســليما فحــالتهم مختلفة ، فهم ليســوا بحيث تفقــدهم النعمة أو الشــدة تــوازنهم ولــذلك فلهم مغفرة وأجر كبير.

والرســول ينبغي ان يجسد أعلى الصــفات الحســنة ومنها الاستقامة ، فلا ينبغي له ان يهـتز للمواقف الجاهلية الـتي تنبع من هـذه النفسـية الضـيقة الأفق ، الـتي تطالبه بكــنز يــنزل عليه ، أو ملك يســاعده ، أو ما يقولونه : ان الرسول قد افـترى الرسـالة ، بينما يتحـداهم القـرآن بـأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات بمستوى القـرآن في علمه وبلاغته ، ويقارنوها مع القــرآن ، ويشــهدوا على ذلك بمن شاؤوا ان كانوا صادقين في اتهام

القرآن بأنه مفترى.

ولكنهم لا يستجيبون حتما لهذا التحدي ولا بد ان نعلم ان الذي انـزل انما انـزل بعلم الله وهو صـنيعة ذلك العلم المحيط بكل شيء ، وعلينا أن نسلم للقـرآن بكل جوانحنا وجوارحنا.

ويبـدو ان هـذا الـدرس تمهيد لبيـان حقيقة الرسـالة وقصص استقامة الرسول ضد خرافات الجاهلية.

بينات من الآيات :

بين النعماء والضراء :

[9] ما دامت النعمة من الله ، فزوالها عن البشر لفـــترة أو وجودها عنـــده في وقت آخر ليس دليلا على بقائها أو زوالها الى الأبد ، إذ ان تلك القـدرة الـتي منحت النعمة أو إزالتها انما الحكمة بالغة ، والله قـــادر على ان يعيـدها وفق تلك الحكمة ومع تـوافر شـروطها ، لـذلك لا ينبغي ان يحيط اليأس بالبشر عند افتقاد النعم ، ولا يجـوز ان يكفروا بسائر النعم التي أسـبغها الله عليهم ، ويلبسـوا نظارة سوداء يبصرون الحيـاة من خلالها ، فلا يـرون شـيئا الا ملبّسا بالسواد.

(**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنَّا رَحْمَـةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْـهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ**)

[10] وعند النعمـاء وهي حالة هبـوط النعمة الـتي لو جاءت بعد الشدة والضـراء لكـانت اعمق أثـرا في النفس ولذلك قد تفقد توازن الإنسـان ، ويحسب ان الصـعاب قد ودعته الى الأبد ، فيسـتبد به الفـرح والسـرور البـالغ ، ولا يرى اي نقص أو عجز في ذاته ، بل يظل يركز نظره حول تلك النعمة ويفتخر بها.

(**وَلَئِنْ أَذَقْنـاهُ نَعْمـاءَ بَعْـدَ ضَـرَّاءَ مَسَّـتْهُ لَيَقُـولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ**

(**فَخُورٌ**)

[11] وسـواء الكفر ونكـران النعم ، أو الفخر والغفلة عن النــواقص فانها من صــفات الإنســان قبل ان تزكيه الرسالات السـماوية ، الـتي تـبين له ان النعمة إذا جـاءت فهي محكومة بشروطها وأهـدافها ، والحكم الـتي ورائها ، وكــذلك النقمة ، وان على الإنســان الا ييــأس مع زوال النعمة الــتي هي (رحمة اللـــه) ولم تكن جــزءا من ذات البشر. لأن هـذه النعمة قد تعـود اليه هي أو أحسن منها ، ثم لأن هنـاك نعما اخـرى أعظم منها لا تـزال قائمة عنـده فباليأس والكفر سوف تـزول ـ لا سـمح الله ـ تلك النعم أيضا ، فلا يخرجك الفرح عن طورك وتفتخر بالنعمة ، فان هنـاك نـواقص كثـيرة لا تـزال تحيط بك ، وعليك ان تعمل من أجل إصــلاحها جميعا وهكــذا تجد المؤمــنين صــابرين يقيمون الاحداث جميعا ، فيبصرون في أيـام شـدّتهم أيـام رخائهم المنتظرة ، ويتذكرون ايامهم الماضـية ، ويعلمــون ان الحياة في تغيّر دائم ، وان سبب التغـير المباشر وغـير المباشر هم أنفسهم فعليهم إذا ان يعملوا صالحا في أيـام الشـدة لكي لا تـدوم ، وفي أيـام الرخـاء لكي لا تـزول ، ولكي يبلغوا درجات أعلى منه.

(**إِلَّا الَّذِينَ صَـبَرُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**)

يغفر الله ذنوبهم فترتفع أسباب الشدة.

(**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**)

بسبب أعمالهم الصالحة فهم في تقدم مستمر.

انما أنت نذير :

[12] لأن رســالات الســماء جــاءت لتزكية البشر ، فيجب ان يســتقيم الرســول (ص) في إبلاغها حــتى ولو عارضت أهواء الناس ، وليس لهم ان يتركوا بعض

الرسـالة تنـازلا لرغبة النـاس أو خشـية من غضـبهم لأنهم آنئذ لا يقدرون على تحقيق هـدف الرسـالة وهو إصـلاح ما فسد من الناس ، ولقد رأينا في الآيـات السـابقة كيف ان الإنسان بطبعه جاهل وعجول لولا التربية الايمانية إذا على الرسـول الاسـتقامة في إصـلاحه حـتى يخـرج من هـذه النفسية الجاهلية.

(**فَلَعَلَّكَ تـارِكٌ بَعْضَ ما يُـوحى إِلَيْـكَ وَضـائِقٌ بِـهِ صَدْرُكَ**)

كلا عليك ان تبقى صـــابرا امـــام ضـــغط أهـــوائهم ودعاياتهم التي منها.

(**أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**)

انهم لا ينتظرون قليلا حـتى يـروا ان تطـبيق الرسـالة كفيل بأن يفتح لهم أبواب الرحمة ، وأكثر بكثير من مجـرد كـنز يـنزل على الرسـول ، وأن انتصـارات الرسـول (ص) أكبر من مجـرد نـزول ملك معه ، لان (روح القـدس) وهو أعظم ملك يهبط معه ، ولا يفقهون هذه الحقيقة.

ان عملهم وليس اي شـيء أخر يضـمن مسـتقبلهم ، وانما دور الرسول هو التذكرة والتوجيه.

(**إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**)

فهو الـذي يـوفر الحيـاة السـعيدة بقدرته لمن يعمل بالرسالة ، ويسلبها ممن يكفر بها.

فأتوا بعشر سور مثله :

[13] ولا يسع الجـاهليون الا انكـار الرسـالة واتهـام الرسـول (ص) بأنه قد افـتراه كـذبا على الله تعـالى ، والقرآن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن افـتراء على الله كذبا إن كانوا صادقين.

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَـأْتُوا بِعَشْـرِ سُـوَرٍ مِثْلِـهِ مُفْتَرَيــاتٍ وَادْعُــوا مَنِ اسْــتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّــهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

[14] ولكنهم فاشلون حتما في ذلك لأن القـرآن جـاء بعلم الله تعـالى المحيط بكل شـيء ، فيه قيم خالصة من شــرك الجاهلية ومن عصــبياتهم ، وقيم إنســانية ســامية تتجــاوز اطــار القبيلة والعشــيرة والقــوم والأرض واللغة والــدم ، وســائر ما ابتلى به البشر منذ هبوطه إلى الأرض وحـتى اليـوم ، وكل الكتـاب والشـعراء والمفكـرين كـانوا خاضعين لهذه القيم الا الرسل والمخلصون من المؤمـنين ، كما ان القرآن حمل الى الناس برامج لكل حقول الحياة مما عجـزت ادمغة الفلاسـفة وفقهـاء القـانون والسياسة والاقتصـــاد عن ان تبلغ جـــزء منه في مطابقتها لأنظمة الحيــاة ، وســنن الطبيعة ، وفي تناســقها ومتانة علاقاتها بطبيعة البشر ، ودوافعه ودواعيه ونقــاط ضــعفه و.. و.. فهل يقدر البشر على مثله؟!

(**فَـإِلَّمْ يَسْـتَجِيبُوا لَكُمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّما أُنْـزِلَ بِعِلْمِ اللهِ**)

وان الإله الــــذي يجب ان يطــــاع ، وتتبع مناهجه ورسالاته هو الله تعالى وعلى البشر ان يسلم نفسه لله.

(**وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)

سورة هود

مَنْ كــانَ يُرِيــدُ الْحَيــاةَ الــدُّنْيا وَزِينَتَها نُــوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمــالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُــونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16)

---

15 (**لا يُبْخَسُونَ)** : البخس نقصان الحق.

الإنسان بين الدنيا والآخرة

هدى من الآيات :

من الشـبهات الـتي تحـوم حـول قلـوب الكفـار ضد الرسـالة ، ما يرونه من تقـدم ظـاهر في معيشـتهم في الدنيا ، والله يذكرنا في هـذا الـدرس بـأن للعمل جـزاءه ، فمن عمل للآخرة فان جزاءه يـوفر اليه هنـاك وفي الـدنيا يعطى له نصـيب منه ، ومن عمل للـدنيا فـأن كل جزائه يعطى له في الدنيا دون ان يبخس منه شيء ، ولكن ذلك يعني في المقابل أن جزاءهم في الآخرة هو النار ، لأن ما عملـوه في الـدنيا من خـير قد أحبط وبطل ، فلم يبق الا أعمالهم السيئة ومسئولياتهم التي لم يقوموا بها.

بينات من الآيات :

(**رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**) :

[15] كثيرا ما يخدع البسطاء من الناس ما يرونه من ازدهـار وتقـدم للكفـار والمنـافقين سـواء لمجتمعـاتهم أو لأفرادهم ، ويزعمون أنه لو كـانت الرسـالة صـحيحة وانها على حق ، وأعـــداؤها على باطل إذا لم يتقـــدم أعـــداء الرسالة في الدنيا؟ وينسى

هذا الفريق الساذج من الناس حقيقتين :

الأولى : ان دار الـدنيا دار ابتلاء واختبـار ، وان الله لم يقدر الجزاء العاجل فيها لحكمة ابتلاء الناس بما يفعلون ، واختبار وعيهم وعقلهم وإرادتهم وحسن أو سوء اختيـارهم ، ولو عجل ربنا في عقاب الكـافرين أو ثـواب المؤمـنين ، لانعـــدمت فرصة ابتلائهم ، وكما جـــاء في الحـــديث عن الامام علي (ع) في موضوع الأنبياء انه.

«لو كـانت الأنبيـاء أهل قـوّة لا تـرام ، وعـزة لا تضام ، وملك تمد نحـوه أعنـاق الرّجـال ، وتشد إليه عقد الرحــــال لكــــان ذلك أهــــون على الخلق في الإعتبار وأبعد لهم في الاستكبار ، ولأمنوا عن رهبة قـــاهرة لهم ، أو رغبة مائلة بهم ، فكـــانت النيّـــات مشتركة ، والحسنات مقتسمة» [1]

الحقيقة الثانية : ان طبيعة عمل الكفار صلاح ظـاهره وفســاد باطنه ، فهو كشـجرة مسوسة أو بنـاء أنيق يكـاد يتهـدم بسـبب تزلـزل قواعـده. وكل جـزاء يرتبط بظـاهر العمل ، وصــورته الخارجية ، فانه يعجل لهم دون نقيصة ، بينما يبقى الجزاء الحقيقي الباقي لأولئك الـذين يصـلحون واقع عملهم.

فالشجرة المسوسة تعطيك البهجة والظل ، ولكنها لا تعطيك الثمر ، وهكــذا العمل الــذي يفقد عنصر الايمــان والصــدق مثل الــذي يــرائي النــاس في أعماله ، يكسب بعض الشهرة عنـدهم ، ولكن الصـلاة الـتي يقيمها ريـاء لا تعرج بنفسه في سماء الفضيلة والتقوى ، وكذلك المجتمع الكافر الذي يعمل من أجل الرفاه فقط فان حياته المادية العاجلة ســوف تتحسن ظــاهرا ، ولفــترة محــدودة إذ ان الـــــذنوب والمعاصي ، وظلم بعضــــهم لبعض ، وظلمهم لسائر المجتمعات كل ذلك يصبح كالسوسة التي تنخر في أعماقهم

---

(1) نهج البلاغة خ 192 ص 292.

حتى ينهار بناؤهم الأنيق ، ويكون مصيرهم مصير عاد وثمود وأصحاب الرّس وأصحاب الايكة ، الذين انهارت حضاراتهم التي اغتروا بها ، وزعموا انها خالدة.

(**مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ**)

[16] ولكن مثل هذا الفريق مثل الشاب الذي يستنفذ كل طاقاته في أيام صحته وفراغه وقوته ، فاذا حل بساحة الشيب لم يجد شيئا ينفعه .. أمواله صرفت ، طاقاته استنفذت ، وامكاناته أنفقت ، كذلك المجتمع الذي يفكر في لحظته لا يفكر في القيم ولا في المجتمعات الثانية ، ولا في مستقبله انه لا حظ له في الآخرة ، بل إن اعماله السابقة تبطل لأنها لم تكن قائمة منذ البدء على أساس ثابت.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

لقد بنوا حضارتهم على قاعدة الاعتداء والظلم والفساد ، فهي على شفا جرف هار. تنهار بهم في نار جهنم.

سورة هود

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْـهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَـةً أُولئِكَ يُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَـكُ فِي مِرْيَـةٍ مِنْـهُ إِنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَـذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُـونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُـولُ الْأَشْـهادُ هـؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ وَيَبْغُونَها عِوَجـاً وَهُمْ بِـالْآخِرَةِ هُمْ كـافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُـوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كـانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ

---

17 [مرية] : شكّ.

18 [الاشهاد] : جمع شاهد.

19 [عوجا] : العوج العدول عن طريق الصواب.

20 [معجزين] : الاعجاز الامتناع عن المراد بما لا يمكن معه إيقاعه.

لَهُمُ الْعَذابُ ما كـانُوا يَسْـتَطِيعُونَ السَّـمْعَ وَما كـانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

الخسارة عاقبة الكفار

هدى من الآيات :

هناك فريقان في الناس لو قارنا بينهما لعرفنا إلى أي واحد منهما ينبغي الانتماء.

أولا : المؤمنون الـذين هم على طريق هـدى بينة لهم ربهم ، ويقودهم شاهد من الله هو الرسول والامام ، وهم على خط تـاريخي ذي تجربة غنية ، حيث موسى الشـاهد جاء بكتاب بين إمام ورحمة.

ثانيا : الكافرون الذين تشتتوا أحزابا مختلفين ، والنـار موعدهم ومصيرهم فهل يبقى شك في ان الحق هو الذي يؤمن به المؤمنون ، بيد أن أكثر الناس لا يؤمنون!

وبينما المؤمنـــون هم على بينة من ربهم ، تـــرى الكافرين يفترون على الله الكذب ظلما لأنفسـهم ، وغـدا يعرضـون على ربهم ليشـهد عليهم الشـهداء ويمـيزوهم ، ويقولـــوا : (**هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ**) ، وهؤلاء هم الظـالمون ، الا لعنة الله على

الظالمين.

ومن صفاتهم أنهم يصدون عن سـبيل الله ، ويريدونه منحرفة مثل مجتمعهم الزائغ ونفوسـهم المعقـدة ، ويكفرون بالآخرة ، ولكن اين يهربون ، وهل يقـدرون على الخلاص من عـذاب الله ، وهل هنـاك من ينصـرهم ويمنع عنهم جـزاء ربهم؟ كلا .. بل يضـاعف لهم العـذاب بقـدر قدراتهم السمعية والبصرية التي لم يستفيدوا منها للهداية ، والواقع أنهم خسـروا أنفسـهم ، وما خـوّلهم ربهم من طاقات وامكانات ، واما مفترياتهم وأكـاذيبهم فقد تبخـرت ولا بد بالتـالي ان يكونـوا هم الأخسـرين في يـوم القيامة لأنهم لا شيء يملكون. اللهم الا جبالا من الذنوب!

بينات من الآيات :

ومنهم من يؤمن به ومنهم من يكفر :

[17] اي النـاس أفضل حيـاة ، وأرقى هـدى النمـوذج الايماني أم الكافر؟

قبل ان تختـار طريقا انظر الى مجمل حيـاة الـذين سـلكوه ، فهنـاك المـؤمن الـذي يسـير في طريق واضح المعـالم بين الجـوانب ، اقـام الله الحجة عليه ، فهو واثق من طريقة ، عالم به ..

(**أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**)

وهناك شاهد قد اكتملت شخصيته الايمانية بوحي الله وهو الرسـول أو الامـام يتبعه ، يشـهد له بصـحة طريقه ، ويديره ويوجهه حتى لا يضل ولا يغـوى ، وهـذا الشـاهد هو من عند الله ، مبارك بالله ، مؤيد بنصره ، مسدد بنوره.

(**وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ**)

وأكثر من هذا ان هذا الخط قـديم قـدم الإنسـان وقد جربته البشرية عبر العصور ،

وكان أروع مثال للفلاح.

(**وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً**)

فكتاب موسى كما القرآن كان بينة وطريقا سويا لا عوج فيه لمن أراد ان يسير عليه ، وموسى شخصيا كان ذلك الشاهد الالهي على قومه السائرين على نهج الرسالة ، وبالتالي كان كتاب موسى إماما ورحمة ، فهو من جهة هدى واستقامة وعلم وعرفان ومن جهة ثانية حياة وسعادة ورفاه.

(**أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**)

فأولئك الذين هم على بينة من الله يؤمنون بالله وكتابه ، وهذا هو نموذجهم ، وهناك نموذج أخر هو نموذج الأحزاب المتفرقين في الدنيا المجتمعين في النار.

(**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**)

فامامك أحد النموذجين ، وعليك ان تتجاوز الشك بعقلك وأرادتك وتؤمن به لأنه الحق.

(**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**)

وعليك الا تعبأ بهذه الأكثرية الضالة التي لا تؤمن بالله ، بل تبعد الشك عن نفسك وتؤمن به وتثق بعقلك.

[18] الله هو ذي العرش الذي يبتغي كل الناس السبيل اليه والاتصال بهداه ، ولكن بعض الناس يسيرون في الطريق الصحيح فيبلغون مرادهم ، والبعض تضلهم الأهواء ، فيفترون على الله الكذب ، ويدعون كذبا انهم على سبيل الله ، ولكن كم سيكون ذنب هؤلاء كبيرا وظلمهم لأنفسهم وللناس عظيما. إذ انهم يحرمون الناس

وأنفسهم من نور هدى ربهم؟!

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**)

صفاة ادعياء الدين :

[19] ما هو الأثر السلبي للتشريع البشري الخاطئ وللثقافة المادية الكافرة ، أو للافتراء على الله؟

إنه يتلخص في ثلاثة :

أولا : منع الناس عن السير في سبيل الله الذي يهدي اليه العقل والفطرة ، ويذكر به الوحي.

(**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

فلو لا الثقافات المنحرفة ، التي ينسبها ادعياء الدين الى الله زورا وبهتانا ، إذا لاهتدى الناس بالتذكرة.

ثانيا : طرح سبل منحرفة للناس والادعاء بأنها هي سبيل الله.

(**وَيَبْغُونَها عِوَجاً**)

ثالثا : تحديد نظر الإنسان في الدنيا ، وقتل طموحه الروحي ، وتطلعه الفطري الى الآخرة.

(**وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ**)

ويبدو ان هذه الصفات الثلاث هي أيضا سمات ادعياء الدين الظاهرة التي يعرفون بها ، فهؤلاء يمنعـون الخـير ، ويجعلــون من أنفســهم حجر عــثرة عن تقــدم النــاس ورفــاهم ، ويعقــدون الأمــور ، ويبغّضــون الرســالة الى الناس ، كما انهم لا يذكّرون الناس جديا باليوم الآخر.

[20] ولكن اين يهـرب هـؤلاء الخونة بـدين الله وهل يقــدرون الخــروج عن ســلطان اللــه؟ وهل هنــاك من ينصــرهم من دون اللــه؟ كلا .. بل ان عــذابهم مضــاعف بسبب عملهم وقولهم الفاسد الذي انحرف به الناس.

(**أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**)

علمــاء الســوء وادعيــاء الــدين يحتــالون على الــدين وكأنهم يفـرون من احكـام الله ، ومن فطـرتهم وعلمهم ، فهل يقدرون على الهرب أيضا من عذاب الله؟!

(**وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ**)

ان هؤلاء يغـيرون الـدين طمعا في اسـتمالة النـاس ، وجمع المزيد من الاتبـاع ، ولكن هل ينفعهم هـؤلاء شـيئا؟ كلا بل ان إغواءهم للنـاس يسـبب تحمل أوزارهم مضـافة الى أوزار الذين أضلوهم.

(**يُضــاعَفُ لَهُمُ الْعَــذابُ ما كــانُوا يَسْــتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ**)

لقد فسرت هذه الكلمة الاخيرة على وجهين :

أحــدهما : ان معـنى يضـاعف لهم العـذاب بما كـانوا يستطيعون السـمع فلا يسـمعون ، وبما كـانوا يسـتطيعون الأبصــار فلا يبصــرون عنــادا ، وبتعبــير آخر : لأنهم كــانوا قادرين على السـمع والأبصـار بما وهب الله لهم من نعمة العلم والقرب من

مصادر الهداية فلم ينتفعوا بهما.

والثاني : انه لاستثقالهم استماع ايات الله ، وكراهتهم تـذكرها وتفهمهمـا. جـروا مجـرى من لا يسـتطيع السـمع والأبصار.

[21] وهل ربح هــؤلاء شــيئا ، وهل يســمى الــذين يخســرون مســتقبلهم ومجمل فرصــهم رابحين حــتى لو اكتسبوا بضع دراهم أو مجموعة أنصار؟!

(**أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

من الأراجيف الـتي جمعـوا حولها النـاس غـرورا ، فلا بقيت تلك الأفكــــار الباطلة الــــتي زينت لهم ولا أولئك المغرورين بها.

[22] انهم لا بد أن يكونــوا الأخسر من النــاس لأنهم لم ينتفعــوا بمــواهبهم ، وعوضا من ان يكونـوا في مقـام الأنبيـاء والصـديقين بعلمهم وهـداهم ، ويـؤجرون مـرتين. مرة بعملهم الصالح ، ومرة بما اهتدى الناس بهم. أصبحوا يعذبون عذابا مضاعفا بعملهم الفاسد ، وبإضـلالهم النـاس (**لِيَحْمِلُـوا أَوْزارَهُمْ كامِلَـةً يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ**) [1]

(**لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**)

أصل الجـرم القطع ، ولا جـرم تقـديره لا قطع قـاطع عن ذا ، فهذه هي نهايتهم التي اختاروها لأنفسهم.

وكلمة اخيرة : ـ حين نقارن هـذه الآيـات بالآية الثالثة عشرة نستفيد مقياسا

---

(1) النحل / 25.

مبينا للتمييز بين صاحب الرسالة الحق الذي لا يتنـازل قيد أنملة عن رسالته بـرغم ضـيق صـدره ، وازديـاد الضـغوط عليه ، وبين الذي يضل النـاس عن الحق طمعا في ولائهم أو رغبة في هدايا السلاطين.

سورة هود

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (24) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28)

---

27 [أراذلنا] : الرذل الخسيس والحقير من كل شيء والجمع أرذل ويجمع على أراذل.

أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ

هدى من الآيات :

يبدو ان السياق القرآني يشـرع منذ هـذا الـدرس في سرد قصص الرسل في إنذارهم الشديد لقـومهم ، الـذين كانوا يرفضون قبول الرسالة فيأخذهم الله بعذاب شديد ، وذلك لعدة اهداف منها تذكرة الناس بأن هذا القرآن واحد من النذر ، وأن من يعرض عنه يصـاب بما أصـاب أولئك ، (وتشير الى ذلك الآية الاولى من هذا الدرس).

ومنها تثـبيت قلب الرسـول والمؤمـنين برسـالته لكي يستقيموا كما أمـروا ، ولا يركنـوا الى الظـالمين. جـاء في الآية العشرين بعد المأة من هـذه السـورة : «**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**».

ان عاقبة المؤمــنين الصــالحين الــذين اطمــأنوا الى ربهم هي الجنة خالدين فيها ، لأنهم أصحاب سمع وابصــار ، بينما الكفار كالأعمى والأصم لا يهتدون سبيلا.

وقصة نوح مع قومه تكشف هذا الفرق بين الفـريقين .. المؤمنين والكفار. حين أرسـله الله إلى قومه لينـذرهم لا يعبدوا الا الله ، وحذرهم انه في غير هـذه سـوف يـنزل عليهم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفـروا من قومه : أنك واحد مثلنا ، وان الـذين اتبعـوك هم من الطبقـات السـفلى من مجتمعنا ، وانه لا فضل لكم بالرسـالة بل نظنكم كاذبين ، فحذرهم نوح (ع) مرة اخرى قـائلا : مـاذا لو كنت صادقا ، وان عنـدي بينة من ربي وأنا مهتد بها الى الصـراط السـوي ، وآتـاني رحمة من عنـده ، بينما أنتم لا تـرون الطريق السـوي ، أو يمكن ان ألـزمكم به وأنتم له كارهون؟!

وفي الدروس القادمة يتلو علينا القرآن سائر فصـول القصة.

بينات من الآيات :

هل يستوي الفريقان؟

[23] حين يكون الايمان مستقرا في القلب ، مستويا على عـرش النفس ، فـأن المـؤمن يشـعر بالاطمئنـان والسـكينة والرضا ، فلا يعمل الا من أجل الله ، وبهـدف تحقيق مرضـاته سـبحانه ، وجـزاؤه عند ربه الخلـود في جنات الله الواسعة.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ وَأَخْبَتُـوا إِلى رَبِّهِمْ**)

الإخبـات : الطمأنينة ، وأصـله الإسـتواء من الخبت ، وهو الأرض المسـتوية الواسـعة فكـأن الإخبـات خشـوع مستمر على استواء فيه.

(**أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

[24] الفريقان المـؤمن المخبت والكـافر ، نموذجـان مختلفان يعرف واقعهما بالمقارنة بينهما فهذا كما البصـير السميع الذي يسير وفق عقله وهدى الوحي ، بينما يتخبط الثاني كما الأعمى والأصم.

(**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّـمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ**)

والمســـألة ليست بحاجة الى المزيد من البحث ، بل هي حقيقة واضحة معروفة لمن يلتفت إليها.

شيخ الأنبياء وقومه :

[25] ويضـرب القـرآن أمثـالا عديـدة يقـارن فيها بين الفـــريقين ، وعاقبة كل واحد منهما ، كما يـــبين من خلال هـذه الأمثـال ـ حقـائق أخـرى تمّت التـذكرة بها في بداية السورة ـ.

(**وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنا نُوحـاً إِلى قَوْمِـهِ إِنِّي لَكُمْ نَـذِيرٌ مُبِينٌ**)

الملاحظ بالتـــدبر في هـــذه الآية ان نوحا أرسل الى قوم كـان منهم ، وكـان ذلك أبلغ في بيـان الرسـالة لهم ، وابعد عن العصبية ، كما أن أهم بنود دعوته كـان الإنـذار ، وهو أبلغ أثـــرا في النفـــوس باعتبارها قد فطـــرت على الدفاع عن الذات ، وابعاد كل مكـروه محتمل ، والإنسـان مفطـور على الـدفاع عن ذاته أكـثر مما هو مفطـور على جلب المنفعة لها.

[26] وخلاصة دعوة نوح وهدف رسالته كـانت عبـادة الله وحـده ، ونبذ الشـركاء ، وحين ينبذ الشـركاء تسـقط السـلطة السياسـية ، والمنهـاج الاقتصـادي والثقـافي ، والسـلطة الاجتماعية وكل ما يقـوم على أسـاس عبـادة الأوثان والشركاء.

(**أَنْ لا تَعْبُـدُوا إِلَّا اللـهَ إِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ عَـذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**)

ان مجـــرد الخـــوف من ذلك اليـــوم الـــذي ينشر فيه العذاب حتى يصبح اليـوم ذاته أليمـا. حيث ان كل لحظاته تصبح ميعادا للعذاب ، أقول : ان مجرد الخوف من ذلك

اليوم يكفي البشر دافعا نحو الايمان بحثا عن الخلاص.

[27] اما جــواب قومه فقد كــان متــوغلا في التحجر والمادية والطبقية.

فأولا : زعموا بأن صاحب الرسالة يجب ان يكون من غـير البشر ، وكـأن البشر هو المخلـوق العـاجز عن حمل الرسالة ، وهذا نوع سخيف من التحجر الجاهلي.

وثانيا : قاســـوا الرســـالة بمن يحملها أو من يبـــادر بالايمان بها ، ولم ينظروا إليها ذاتها باعتبارها قيم فاضلة ، ودعـــوة الى العدالة والهـــدى ، وهـــذا نـــوع من المادية وتشييء القيم.

ثالثا : نظــروا الى تــابعي الرســالة من المستضـعفين نظرة ازدراء بسبب تكبرهم وطبقيتهم.

(**فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ ما نَـراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ**)

الملأ هم الاشـــراف وعلية القـــوم ، ولأنهم كفـــروا بالرسالة شأنهم شأن أغلب الـذين هم من طبقتهم كـذلك يعتبرون فاسدين ، وكان من الصعب عليهم الخضـوع لمن هو مثلهم ، دليلا على انحطــاط نفوســهم ، وانعــدام الثقة فيها ، فنعتوا المؤمنين بــأنهم من الطبقة الـدنيا ، وأنه من ينظر إليهم يعرف منهم هذ النعت (بادي الرأي).

(**وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ**)

غافلين عن ان الرسالة ذاتها فضل كبير.

(**بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ**)

وكان هذا الفريق يتبعون الخيـال والظنـون ، ويرمـون الأفكار الجديدة التي تخالف مصالحهم بأنها كـذب. انطلاقا من عنجهيتهم وتكبرهم.

[28] وأجاب نوح (ع) على شبهاتهم :

أولا : بأنه على بينة من ربه ، فهو بالرغم من بشـريته فأنه يملك ما لا يملكـــون وهو الهـــدى ، والحجة من ربه عليه.

ثانيا : ان المال الذي يفقده يعــوض بما يؤتيه الله من رحمته الواسعة ، التي هي أهم من المال. إذ ان الـثروة لا تحل كل المشـــاكل بعكس رحمة الله الـــتي تقضي على أكثر الصعاب.

وثالثا : ان ظنهم الفاسد بكذبه (ع) ، آت من عماهم ، وعدم تفكرهم الجـدي ، وفي هـذه الحالة لا يجـبرهم نـوح على الرسالة ، وهذا الكلام قد يكون ردا على قولهم :

(**وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ**)

حيث كانوا يزعمـون : ان الرسـول كالملك ، يجب ان يملك قـوة مادية قـاهرة تفـرض على النـاس خطّا معيّنا ، بينما الرسول جاء من أجل الهداية الـتي لا تتـأتي من دون الإختيار والحرية.

(**قالَ يا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**)

اي خفيت هـــذه البينة ، وربما البينة هي الصـــراط السوي أو الحجة الواضحة.

(**أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ**)

وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللـهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّهُمْ مُلاقُـوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُـرُنِي مِنَ اللـهِ إِنْ طَـرَدْتُهُمْ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُـولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْـراً اللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِـهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

---

31 [تزدري] : الازدراء الاحتقار ، يقال زريت عليه إذا عبته.

وما أنا بطارد الذين آمنوا

هدى من الآيات :

قوم نوح كما المستكبرين في كل عصر ردوا رسالة الله بسبب الظنون والشبهات ، وشرع نوح في هذا الدرس ببيان واقع الرسالة ورد الشبهات والظنون الباطلة ، فلقد زعم أولئك الجاهلون بأن نوحا يريد أن يتسلط عليهم ، أو يغني على حسابهم ، وأزال نوح عليه السلام ، تخوفهم وقال : انه لا يريد منهم مالا ، ولكنه في الوقت ذاته لا يجعل المال مقياسا لتقييم الناس ، فيطرد المؤمنين لأنهم فقراء ، بل يقول : ان حسابهم على الله ، وانهم سيلاقون ربهم ، أما قوم نوح فقد كانوا يجهلون ، ويتخذون القيم الزائفة مقياسا لتقسيم الناس ، وهذا تقسيم باطل لا يرضى به الله ، والذي يطرد المؤمنين اعتمادا على مثل هذه القيم ، بعيد عن رحمة الله ، وغير منصور أيضا.

ثم ردّ نوح (ع) شبهة اخرى حيث بيّن أنه ليس برجل خارق يملك خزائن الله ، أو يعلم الغيب ، وأنه خلق من نور كالملائكة.

ثم عاد وأكدّ عليه السّلام على انه لن يطرد المؤمنين الذين يقلل من شأنهم قومه

لان الله أعلم بما في أنفسهم ، فان كانوا صادقين وافاهم أجلهم وأعطاهم الخير ، فكيف يطردهم نوح فيصبح ظالما لهم.

بينات من الآيات : الرسول وأولياء الرسالة :

[29] لان الملاء من قـــوم نـــوح ، وكـــذلك الملأ المستكبرين من كل قوم يسـتغلون النـاس ، ويسـتثمرون طاقــاتهم ، فلا يســعهم النظر الى الاحــداث إلّا من خلال واقعهم الطبقي ، لذلك يتهمون الرسل بأنهم إنما يريــدون الـثروة من وراء دعــوتهم ، وينفي الرسل بكل قــوة هــذه التهمة ليفصلوا بين دعوتهم الاصـلاحية وبين دعـوات الملأ التي تهدف المزيد من استغلال المستضعفين.

(**وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجـرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ**)

فنـوح ـ شـأنه شـأن كل البشر ـ يطلب أجـرا ويعمل لهــدف ، ولكنه لا يطلبه من النــاس بل من الله ، وبــذلك أثبت نوح ـ مرة اخرى ـ الطابع الغيبي لرسالته.

ولأن نوحا (ع) لا يريد الانتفـــاع بعلمه ليصــبح رقما جديــدا في قائمة الملأ يتقاسم معهم المكاسب الآتية من ظلم النـاس واسـتغلالهم ، كما كـان يفعل علمـاء السـوء. لذلك فهو يقف الى جانب المظلومين ويقول بصراحة :

(**وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا**)

وقد يكـون للطبقة السـفلى الـتي تهـرع الى الايمـان بعض السلبيات المترسبة فيهم بسبب الجاهلية ، أو بسبب تعرضــهم للظلم ، فرســالة الســماء ليست مسـئولة عن سـلبياتهم ، وعـدم طـردهم لا يعـني أبـدا أن رسـول الله يزكيهم تماما ، بل إن حسابهم عند الله.

(**إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ**)

بيد أن الملأ من قوم نوح لم يزالوا على ضلالتهم التي تقسّم الناس على أساس المال أو الدم.

(**وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ**)

[30] الطبقة الدنيا التي بادرت بالايمـان دخلت حصن الله ، والله يحمي الـــذين يتحصـــنون به ، ولو أراد أحد طـردهم ، وأراد الله نصـرهم فـان ارادة الله هي الغالبة ، ولا يملك من يطردهم قوة يرد بها غضب الله عليه.

(**وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ**)

وفي هــذه الآية دليل على أن احتفــاظ رســول الله بالمؤمنين من الطبقات الـدنيا ليست بهـدف الانتصـار بهم أو تكثير العدد حول نفسه ، بل لأنهم مؤمنون ، والله يحب المؤمنين.

(**أَفَلا تَذَكَّرُونَ**)

فالمسألة بحاجة الى تذكرة ، ولفت نظر حتى يعـرف الإنسـان أن الأمـور بيد الله ، وأن ربّنا لا ينظر الى الغـنى والجاه بل الى الايمان والعمل الصالح.

إني بشر مثلكم :

[31] وعاد نوح عليه السلام يبين أبعـاد رسـالته الـتي هي أيضا أبعـاد رسـالة كل رسـول وكـلّ مصـلح يتبع خط الرسل.

فأولا : إن الرسول يـدعو النـاس الى الله والى الحق الذي تعرفه فطرتهم ، وهذا هو

رأسماله ، ولا يـدعوهم الى نفسه باعتبـاره صـاحب ثـروة طائلة.

(**وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ**)

بل خــزائن الله موجــودة في ذات الإنســان ، وفي الأرض الــتي أعطى الله البشر القــدرة على تســخيرها بالايمان والعمل الصالح.

فـالفكرة المتخلفة الـتي تنتظر من صـاحب الرسـالة (تفجير الأرض بالينابيع ، واستخراج كنوز الحياة ، وتقديمها لهم بلا عمل) انها فكرة خاطئة.

ثانيا : إن الرسـول لا يـدّعي الغيب إلّا بقـدر ما يـوحي إليه ربّه عبر رسالته ، ولـذلك فهو لا يعد النـاس بالرفـاه ، وانه مثلا يأخذ بأيديهم ويدلّهم على معادن الذهب والفضة.

(**وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ**)

ثالثا : انه لا يدعى امتلاكه لقوة قـاهرة ، باعتبـاره من عنصر الملائكة.

(**وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**)

رابعا : انه لا يتعالى على الناس.

(**وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُـؤْتِيَهُمُ اللـهُ خَيْراً**)

بل ان الخــير والشر هما من الإنســان نفسه ، من عمله النابع عن نية صالحة ، ولا يعرف ذلك إلّا الله.

(**اللــهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِــهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**)

قـالُوا يا نُـوحُ قَـدْ جادَلْتَنا فَـأَكْثَرْتَ جِـدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (32) قـالَ إِنَّما يَـأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شـاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِـزِينَ (33) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كـانَ اللـهُ يُرِيـدُ أَنْ يُغْـوِيَكُمْ هُـوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (34) أَمْ يَقُولُـونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَـرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُــونَ (35) وَأُوحِيَ إِلى نُــوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُــؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخـاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُــوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُــونَ (37) وَيَصْـنَعُ الْفُلْـكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْـهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِـهِ سَـخِرُوا مِنْـهُ قـالَ إِنْ تَسْـخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْـخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْـخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَـذابٌ يُخْزِيـهِ وَيَحِـلُّ عَلَيْـهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39)

---

36 [تبتئس] : الابتئاس حزن في استكانة.

وما أنتم بمعجزين

هدى من الآيات :

وظلّ نوح عليه السّلام يسعى جاهدا حتى أتعب قومه ، وقالوا : (**يا نُوحُ قَـدْ جادَلْتَنا فَـأَكْثَرْتَ جِـدالَنا**) وطالبه قومه بانهـاء مرحلة الكلام والبـدء بتنفيذ ما يوعـدهم بـه. غافلين عن أن نوح ليس إلّا رسـولا ومبلغا عن ربه ، وحين يشـاء الله عـذابهم لا يقـدرون على الفـرار من حكومته وسـلطانه ، ومهمة التبليغ الـتي يقـوم بها نـوح تختلف عن الهدايـة. فالله هو الهـادي المضل ، وإذا شـاء إبقـاء قـوم على الضلالة بسبب كفرهم بنعمة الرسالة ، فان الرسـول لا يقدر على هدايتهم ، وهكذا فان رسالات الله ليست من صـنع الأنبيـاء وانما هي من وحي الله ، وإذا كـان الرسـول هو الـذي افـترى الرسـالة كـذبا على الله فانه يتحمل مسـئولية عمله ، أمّا إذا كـانت صـادقة فهو لا يتحمل مسئولية كفر قومه به بل هو برىء منهم.

أوحى الله الى نـوح أن مـدّة تبليغه قد انتهت. إذ أن قومه لن يؤمنـوا أكـثر من هـذا بعد اليـوم ، فلا يحـزن بما يفعلون ، وبدأت مرحلة الاعداد ليوم العذاب. إذ أمر الله

رسوله بصنع الفلك ولا يخاطب ربه حول الظالمين من قومه ، فيحاول الشفاعة لهم لأنهم مغرقون لا محالة ، وكان نوح عليه السّلام يصنع الفلك ، ويمر عليه المستكبرون من قومه فيسخرون منه ، ولكنه كان يقول لهم : لنا يوم نسخر منكم كما تسخرون بنا اليوم ، وفي ذلك اليوم ستعرفون : ان عذاب الخزي سيكون من نصيبكم.

بينات من الآيات :

(**لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**) :

[32] من أبرز الصفات الرسالية التي كان الأنبياء العظام يتمتعون بها هي الاستقامة والاستمرار في الدعوة دون كلل.

فنوح عليه السلام أتعب قومه من كثرة جداله معهم. حتى طالبوه بما وعدهم من العذاب ، وزعموا ان نزول العذاب بهم أفضل من هذه الدعوة التي تلاحقهم في كل وقت وفي كل مكان.

(**قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

لقد دعا نوح قومه ليلا ونهارا. سرا وجهارا ، ولبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاما يدق مسامعهم بكلماته البليغة ، وإنذاره الشديد حتى سئموا منه ولم يسأم وهكذا ينبغي ان يكون الرساليون على مرّ العصور الاستقامة على الدعوة أنى كانت الفترة طويلة.

[33] ولم يترك نوح كلامهم الآخر من دون جواب. بل نبّههم مرة اخرى الى أنّ الله وليس هو يأتيهم بالعذاب ، وأنهم لا يقدرون آنئذ على الفرار.

(**قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**)

وهذه سمة ثانية وهامة في رسالات السـماء حيث أن الأنبياء (عليهم السّلام) لا يدعون لأنفسهم شيئا. ويـذكرون الناس بان دورهم فقط دور المبلغ ، وأن الأمر بيد الله.

[34] وتأكيــدا لهــذه الحقيقة ذكّر نــوح قومه بــأن النصيحة لا تنفع إلّا بإذن الله. إذ الهـدى والضـلالة انما هي بـأمر الله وإذنه ، وإذا كفر أحد بنعمة العقـل. فـان ربنا قد يسلبها منه فلا يستفيد من النصيحة.

(**وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْـحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَـحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

في المفـردات : الغيّ : جهل من اعتقـاد فاسد وذلك أن الجهل قد يكــون في الإنســان غــير معتقد اعتقــادا لا صـالحا ولا فاسـدا ، وقد يكـون في اعتقـاد شـيء فاسد ، وهـذا النحو الثـاني يقـال له : غيّ ، وقد يكـون هـذا الغي يشير الى ان الله تعالى قد يسلب من البشر نعمة العقل. فيعتقد بالباطل حقا.

[35] هكـذا رسـالات الله جميعا ، الـتي أنـزلت على نـوح والـتي أنـزلت على محمد (ص) سـبيلها واحد ، فهي من اللــه. والرســول يعلم مـدى الخيانة الـتي يرتكبها من يفــتري على الله ، ولكن جريمة من لا يهتــدي بالرســالة ليست بســيطة هي الاخــرى ، وليس من الســهل ان يسترسل الفرد ولا يستمع لرسول الرسالة بمجرد احتمال كذبه لأنها جريمة كبيرة أيضا.

(**أَمْ يَقُولُــونَ افْتَــراهُ قُــلْ إِنِ افْتَرَيْتُــهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ**)

جاء في تفسـير مجمع البيـان : «قيل انه يعـني بـذلك محمــدا (ص). والمــراد أيــؤمن كفــار (قــوم) محمد بما أخـبرهم به محمد (ص) من نبأ قــوم نــوح ، أم يقولــون : افتراه محمد

من تلقاء نفسه ، وقيل : يعني نوحا ، وانه يقـول على الله الكذب». [1]

بيد انه يمكن ان يفسر القـــرآن على أكـــثر من وجه فيكون المراد ليس فقط رسالة محمد (ص) وانما رسـالة نوح أيضا.

[36] ولم يترك نوح عليه السلام الجـدال مع قومه الا بعد أن اوحى اليه ربه انه يسـتحيل ايمـان قومه بعد الآن ، وان عليه الا يحزن عليهم ، والا يعيش حالة البؤس بسـبب أفعالهم.

(**وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ**)

ان رسل الله عليهم السـلام يتمحصـون حـول الله ، ويصــحبون شــعلة من الحركة والانــدفاع من أجل تبليغ رسالة الله. حتى يكادوا يهلكون أنفسهم حزنا بسبب عدم إيمان النـاس ، وجـاء في القـرآن : (**طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْـكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى**) [2] وجاء : (**فَلَعَلَّكَ بـاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**) [3] وهذا نـوح عليه السلام يبلغ حالة البؤس والاسـتكانة بسـبب ما يفعله ، ولكن الله ينهاه عن ذلك. ويأمره بمتابعة دربه.

انهم مغرقون :

[37] وتبدأ رحلة الجزاء التي بدأت بصنع السفينة.

(1) المجمع ج 6 ، 5 ص 158.
(2) طه / 1.
(3) الكهف / 6.

(**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا**)
كـان نـوح عليه السـلام لا يقـوم بخطـوة الا حسب المنهاج الذي رسـمه له ربـه. تحت مظلة واقية من حماية ربه.
(**وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**)
ولم تزل في قلب نـوح بقية أمل تـدعوه الى التضـرع الى الله ليمنع عن قومه العــذاب في آخر لحظــة. ولكن على الرسول ـ بعد أن ييأس من إيمان قومه ــ ألّا يشـفق عليهم لأنهم يستحقون العذاب.
[38] وأخذ نــــوح يصـــــنع الفلك في الفلاة القاحلة اسـتجابة لأمر الله وإيمانا بـأن وعد الله حق ، وكـان ذلك أبسط دليل على انه لا يتّبع هـــواه ، ولا يقـــول على الله كذبا. لأنه لو كـان كـذلك فما الـذي دعـاه الى صـنع الفلك في الصحراء؟!
ان أنبياء الله عليهم السلام يقومون بأعمـال يحسـبها النــــاس من حولها نوعا من الجنـــــون ، لأنها لا تتناسب ومعلومـات وأفكـار العصر ، ولا مع ما يجـري حـولهم من أحداث أو يتوقع من احتمالات. هـذا بذاته دليل واضح على انهم يتبعون الوحي ، وقد لا يعرف النبي لمـاذا يـأمر بعمل ما للشـــهادة على مــدى خلوصــهم في الله ، وتجـــردهم لرسالته الغيبية.
(**وَيَصْـنَعُ الْفُلْـكَ وَكُلَّما مَـرَّ عَلَيْـهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِـهِ سَخِرُوا مِنْهُ**)
إن استهزاء الناس بنـوح عليه السـلام شـاهد على انه كان رسولا لا يتبع المألوف والشائع في ظروفه ، بل كـان يتحداها بسبب إيمانه بالغيب.
(**قـــالَ إِنْ تَسْـــخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْــخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ**)

[39] وانذرهم نوح بالعاقبة السوأى التي تنتظرهم۔
(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ**)
ويفضحه في الدنيا عبر التاريخ.
(**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ**)
دائم في الآخرة.

حَتَّى إِذا جـاءَ أَمْرُنا وَفـارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِـلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَـكَ إِلاَّ مَنْ سَـبَقَ عَلَيْـهِ الْقَـوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَقـالَ ارْكَبُـوا فِيها بِسْـمِ اللـهِ مَجْراها وَمُرْسـاها إِنَّ رَبِّي لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْـزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكـافِرِينَ (42) قـالَ سَـآوِي إِلى جَبَـلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قـالَ لا عاصِـمَ الْيَـوْمَ مِنْ أَمْـرِ اللـهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا

---

40 [وفار] : الفور الغليان ، وأصله الارتفاع.
[التنور] : تنور الخبز المعروف.
41 [مرساها] : الارساء إمساك السفينة بما تقف عليه.
43 [سـآوي] : من آوى يـأوي إذا اتخذ مـأوى ومحلا ، أي سـأرجع الى مأوى.
[يعصمني] : يمنعني.

الْمَــوْجُ فَكــانَ مِنَ الْمُغْــرَقِينَ (43) وَقِيــلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مـاءَكِ وَيا سَـماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمـاءُ وَقُضِـيَ الْأَمْـرُ وَاسْـتَوَتْ عَلَى الْجُـودِيِّ وَقِيـلَ بُعْـداً لِلْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

---

44 [أقلعي] : الإقلاع إذهـاب الشـيء من أصـله حـتى لا يـرى له أثر ، يقـال أقلعت السـماء إذا ذهب مطرها حـتى لا يبقى شـيء منه ، وأقلع عن الأمر إذا تركه رأسا.

[الجودي] : اسم جبل.

بعدا للقوم الظالمين

هدى من الآيات :

بقي نوح ينتظر أمر الله. مستعدا لتنفيذ واجباته حــتى إذا جاء أمر الله ، وتفجر التنور (الذي كان في بيت عجــوز حسـبما جـاء في بعض الأحـاديث) أوحى الله الى نــوح أن يــركب الســفينة ، ويحمل فيها معه من كل زوجين اثــنين من ســائر ما خلق الله ، ويحمل معه أيضا أهله إلّا الكفــار منهم وهما زوجته وابنه اللــــذان اغرقا أيضا ، ويحمل معه كل المؤمنين الـذين كـان عـددهم قليلا ، وتوكل نـوح على الله مطمئنا بأن حركة السفينة ووقوفها بإذن الله ورعايته ، وتلاحقت أمـواج الطوفـان كأنها جبـال. وصـاح نـوح بابنه الذي جلس في ناحية ، ودعاه الى الركوب معه وان يترك الكفار ، ولكنه زعم بان الطوفان فيضان عادي وان صعود الجبل ينجيه منه ، ولكن نوح حذّره من انه لا عـاص اليـوم من أمر الله إلا من رحم الله ، وقبل ان ينتهي الحوار جـاء الموج وأغرق ابن نوح.

وجاء صوت غيبي يصدر الأوامر الحاسـمة للأرض بـان تبتلع الماء ، وللسماء بأن

تكف عن المطر. وغـاص المـاء وانتهت القضـية الحاسـمة ووقفت السفينة فوق جبل. وابعد القوم الظالمون.

بينات من الآيات :

وما آمن معه إلّا قليل :

[40] ان تلك اللحظة الـــتي كـــان أبنـــاء الرســـالة يتوعدون بها ، وكان الكفار يستهزئون بها قد حـانت اليـوم وأصبحت الحقيقة التي أنذرت بها الرسالة واقعا لا مهـرب منه ، فلقد أصدر ربنا امره ، وفـار المـاء من التنـور الـذي يبقى عـادة بعيـدا عن المـاء ، وامر الله رسـوله نوحا بـان يحمل معه في الســفينة من كل حي زوجين اثــنين ، وان يحمل أهله الـذين لم تسـبق عليهم كلمة العـذاب بسـبب كفـرهم كزوجته وابنه ، وان يحمل معه الـذين آمنـوا وهم قليلون.

(**حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِـلْ فِيها مِنْ كُـلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَـكَ إِلَّا مَنْ سَـبَقَ عَلَيْـهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**)

في الحـــديث المـــأثور عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السّلام قال :

«كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دير قبلة ميمنة مسجد الكوفة قال : قلت فكيف بدأ خروج المـاء من ذلك التنور ، قال : نعم ان الله أحب ان يري قوم نوح آية آية ، ثم ان الله ســـــبحانه أرسل عليهم المطر يفيض فيضا ، وفاض الفرات فيضا ، وفاضت العيون كلها فيضا فغـرقهم الله وأنجى نوحا ومن معه في الســـفينة ، فقلت : فكم لبث نـوح في السـفينة حـتى نضب المـاء فخرجـوا منهـا؟ فقال : لبث نوح في السفينة سبعة أيام ولياليها». [1]

(1) بح بح 11 ص 333 رقم 56.

[41] وحين ركب نــوح وقومه الصــالحون الســفينة تجلت عنـدهم روح الايمـان الخـالص ، وتوكلـوا على ربهم متذكرين اسمي الغفران والرحمة ـ لله ـ فبمغفرته يحط ذنوبهم وبرحمته ينزل عليهم بركاته وفضله.

(**وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها**)

فكل شــيء في الكــون موجــود بالله وقــائم بالله ، ويتحرك أو ينمو أو ينطق باسم الله. بيد ان هنـاك حـوادث يتجلى فيها التـدبير المباشر لله تعـالى أكـثر ، مثل سـفينة نوح التي صنعها بأمر الله دون أن يعـرف منذ البـدء ابعـاد العملية ، ولا يعـرف أين تجـري السـفينة ، واين تقف وفي أية فـترة ، انما توكل على الله فيها ، لعلمه انها في اطـار تدبير الله وهيمنته المطلقة على الكون.

(**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**)

بعدا للقوم الظالمين :

[42] وبين لحظة واخرى تحولت الصـحاري الى بحـار مواجة ، وتلاطمت الأمــواج الهائلة وكأنها جبــال متحركة ، ولاحظ نوح ابنه واقفا في معزل عن الناس فناداه لـيركب معه ، وربما أخذته شــفقة الأبــوة أو رحمة النبــوة ، ولكن الابن الســــيء الحظ رفض لانعــــدام توكله على الله ، ولاعتماده على المادة الجاهلية ، بسبب تعلقه الســابق بها ، وقال سوف ألتجئ الى جبل يحفظني من الطوفان.

(**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبـالِ وَنـادى نُـوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْـزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَـعَ الْكافِرِينَ**)

كان ابن نوح ويقال ان اسمه كنعان ، من جملة الذين اعــتزلوا المعركة الســاخنة بين الحق والباطل ، وأراد الا يتــدخل في القضــايا الرســالية ، شــأنه شــأن الكثــير من الجبناء الذين لا يملكون شـجاعة الاقـدام في سـبيل اللـه. بيد ان مثل هؤلاء سوف

يكونون مع الكفار لان الايمان وحده هو الذي ينقذ البشر.

[43] (**قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**)

[44] بين عشية وضحاها تبدل وجه الأرض وهلك القوم الظالمون ، وإذا بهاتف الحق ينادي : (**يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ**) ، فعادت مياه الأرض التي تفجرت ينابيع الى مخازنها تحت الأرض ، وتقشعت السحب التي كانت تسيل ماء بأمر ربها ، فأقلعت عن الانهمار وغاض ماء الأرض ، وتحولت بقية المياه الى الأنهار والبحار كما جاء في حديث ، وانتهت القصة كلها ، حيث استقرت السفينة على أرض مرتفعة .. وخلت الأرض من الظالمين الذي لعنوا وطردوا منها بقدرة الجبار.

(**وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي**)

أي توقفي قال البعض أن الماء الذي سال من السماء بقي فوق الأرض لان الله قال للأرض ابلعي ماءك ، ولم يطلق بالقول الماء ، بيد ان هذا القائل ينسى ان كل المياه في الواقع من الأرض.

(**وَغِيضَ الْماءُ**)

وهبط الماء أو رسب في الأرض.

(**وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ**)

لقد نفذ أمر الله بهلاك الظالمين ، ونجاة المؤمنين ، وتحقيق الجزاء لكلا الفريقين في عاجل الدنيا.

(**وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)

وَنــادى نُــوحٌ رَبَّهُ فَقــالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45) قـالَ يا نُـوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْـئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِـرْ لِي وَتَـرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِـرِينَ (47) قِيـلَ يا نُـوحُ اهْبِـطْ بِسَـلامٍ مِنَّا وَبَرَكـاتٍ عَلَيْـكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَـكَ وَأُمَمٌ سَـنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّـهُمْ مِنَّا عَــذابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْــكَ مِنْ أَنْبــاءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْـكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْـلِ هـذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

إنّ العاقبة للمتقين

هدى من الآيات :

وقبل هبـوط نـوح (ع) الى الأرض تسـاءل عما انتهى اليه مصير ابنه الغريق وذلك بسـبب جاذبية الشـفقة الـتي أودعها الله في قلب كل أب ، ولو كــــان الأب شـــــيخ المرسلين ، تلك الجاذبية التي جعلت سيدنا نوحا يدعور به في ابنه ولكن الله وعظه وذكــره بــان المقيــاس عنــده العمل الصـالح وليس الانتسـاب الى هـذا أو ذلك ، وهكـذا عرف نوح ان سبب انحـراف البشر ليس فقط وجـود بيئة فاسدة أو تسلط الظالمين ، إذ قد يكون السبب كامنا في نفسه فــدعا ربه بــان يغفر له وان يرحمه فيعصــمه من الزيغ ومن دون رحمة الله ومغفرته يكـون البشر خاسـرا. وهكذا الحال بالنسبة الى الذين كانوا مع نوح في السفينة ، والـــذين اهبطهم الله الأرض ، بســلام وبركـــات ولكن عوامل الانحراف نزلت معهم أيضا ، فبعضـهم انحـرف مع هذه العوامل وبعضهم صمد أمامها واعتصم بهدى الله.

وفي نهاية قصة نوح يذكرنا القرآن بــالعبرة فيها وهي الصبر والتقوى فان العاقبة

للمتقين ولكنها بحاجة الى الصبر والاستقامة.

بينات من الآيات :

التسليم لقضاء الله :

[45] في بعض الأحـاديث المروية : «ان الشـيطان دخل سـفينة نـوح متسـللا» والواقع ان الحكمة في خلق البشر هي ابتلاؤه ، ووجــود الشــيطان جــزء من معادلة الامتحــان ، وانحــراف البشر ليس دائما لوجــود ضـغوط خارجية عليه ، بل ان الهـوى والشـهوة ، والانجـذاب الى مظاهر الحيـاة الـذي أودعه الله في كيـان كل شـخص هو الآخر جزء من معادلة الامتحان وحكمة الحياة.

وهكـذا نجد آدم عليه السـلام ـ أبا البشر ـ أول من ارتكب الخطأ بدافع الملك والخلـود ، قبل أن تدركه رحمة الله وتعصمه من الزلل.

ونجد نوحا وقد خـرج من محنة الصـراع منتصـرا على الجبت الـداخلي والطـاغوت الخـارجي ، ولكنه لا يـزال بحاجة الى مغفـرة الله ورحمتـه. يحتـاج الى رحمة الله حتى يعصمه من تكرار الزلل ، وهكـذا دعا نـوح ربه بلباقة ان يفي بوعده بانقاذ أهله ، ولكن الله أجابه بصراحة : انه ليس من أهلك لان رابطتك الحقيقية هي مع الـــــذين يعملـون الصـالحات ، وهـذا الابن لا يملك مقيـاس العمل الصالح.

(**وَنـادى نُـوحٌ رَبَّهُ فَقـالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ**)

[46] (**قالَ يا نُـوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِـكَ إِنَّهُ عَمَـلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُـكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ**)

ربما توحي هذه الآية بضـرورة الرضا الكامل بالاقـدار التي لا يعرف المرء

حكمتها ، والتســليم المطلق للأوامر الــتي لا يفهم البشر فلسفتها.

[47] ان درجة تســليم الأنبيــاء عليهم الســلام لله ولأوامــره وأقــداره تصل الى القمة ، بســبب تــأديب ربنا لرسـله الكـرام ، ولـذلك نجد نوحا عليه السـلام يسـتعين بعصــمة ربه لكي لا يســأل ربه ما ليس له به علم ، ولا يقــترح عليه ما لا يعلم انه في صــالحه وصــالح رســالته وأمته.

(**قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ**)

ان مغفــرة الله ضــرورة حياتية للبشر لتزيل آثــار الذنوب والسقطات التي يتعرض لها الإنسان أبـدا ... فمن دونها تتراكم هـذه الآثـار حـتى ترسي على قلبه ، وتحجب عقله ، كما أن رحمة الله ضـرورة اخـرى لاسـتمرار بقـاء الإنســان نظيفا ، ولكي لا يــدعوه الضــعف والعجز الى ارتكــاب المعاصي ، وقد جــاء في الــدعاء : «اللهم أغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصــيتك ، وبفضــلك عمن سواك ...» ، فرحمة الله هي الـتي تعصم البشر من الذنوب ، لا فرق بين الرسل وغيرهم.

[48] وهبط نــوح بــأمر الله يحمل معه هــديتين الى الأرض السـلام والبركة ، ويعـني السـلام المحافظة على النعمة القائمة والموجودة فعلا ، وبالتالي رفع الضرر الذي يهدد بزوال النعم ، بينما تعني البركة زيـادة النعم والتقـدم في حقول الحياة.

(**قِيـلَ يا نُـوحُ اهْبِـطْ بِسَـلامٍ مِنَّا وَبَرَكـاتٍ عَلَيْـكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ**)

والسـلام والبركة هما من الله بسـبب رسـالته. لـذلك يسلبان عمن لا يعرف قيمة الرسالة فينحرف عنها ، لذلك خصص القرآن أمما دون أخرى للسلام والأمن قائلا :

(**وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ**)

وذلك بسبب ان هذا النوع الثـاني من الأمم ينحرفـون عن الرسالة ، ويبدلون دين الله.

وربما تـوحي هـذه الآية بـأن سـنة الحيـاة الأولية هي السلام والبركة لولا انحراف البشر فيها.

خلاصة القصة :

[49] تلك كـانت قصة نـوح وقومه ، والعـبرة الـتي نستفيدها منها اثنتان.

أولا : ان هذه الرسـالة امتـداد لتلك الرسـالة حيث لم يكن أحد من قوم الرسول محمد (ص) عالما بقصة نـوح ، أو لا أقل بتلك التفاصـيل الدقيقة الـتي تسـجل حـتى الحـالات النفسـية ، والأسـباب الاجتماعية ، والعوامل الطبيعية الـتي سـاهمت في صـنع وقـائع القصة ، فجـاء ذكرها جميعا شاهدا على صدق رسالة النبي محمد (ص).

ثانيا : ان كل رسالة تتعرض لتحـديات جاهلية ، وعلى حاملها أو حملتها التسـلح بـالتقوى ، والصـبر انتظـارا للعاقبة.

(**تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا**)

فحتى رسول الله لم يكن محيطا بعلم ما جـرى لنـوح ، مما يدل على ان ما لديه من علم ، انما هو من عند الله ، لا من عبقريته وذكائه.

(**فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**)

والواقع ان صبر نوح عليه السلام كـان طـويلا وشـاقا وكان بالتالي ذا أثر حاسم في هلاك أعدائه.

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُـوداً قـالَ يا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَـرُونَ (50) يا قَـوْمِ لا أَسْـــئَلُكُمْ عَلَيْـــهِ أَجْـــراً إِنْ أَجْـــرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (51) وَيا قَوْمِ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّـماءَ عَلَيْكُمْ مِـدْراراً وَيَـزِدْكُمْ قُـوَّةً إِلى قُـوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْـرِمِينَ (52) قـالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِـكَ وَما نَحْنُ لَـكَ بِمُـؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُـولُ إِلاَّ اعْتَـراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْـهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيـدُونِي جَمِيعـاً ثُمَّ لا تُنْظِـــرُونِ (55) إِنِّي تَـــوَكَّلْتُ عَلَى اللـــهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ

52 [مدرارا] : المدرار الكثـير التتـابع على قـدر الحاجة اليه دون الزائد المفسد المضر.
54 [اعتراك] : من قولهم عراه يعروه إذا اصابه.

رَبِّي عَلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ (56) فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقَـدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِـلْتُ بِـهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْـتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمـاً غَيْـرَكُمْ وَلا تَضُـرُّونَهُ شَـيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ حَفِيظٌ (57)

هود : إنّي توكلت على الله

هدى من الآيات :

وجـاء هـود مرسلا من عند الله الى قـوم عـاد ، ودعا قومه بــذات النــبرة الايمانية الــتي وجــدناها عند ســلفه الصالح نوح عليه السلام.

1 / أمرهم بعبـادة الله حيث لا إله ولا معبـود سـواه ، وبين ان عبادتهم للطغاة أو الأصنام افتراء وضلالة.

2 / وبين لهم انه لا يطالبهم بـأجر ، وأن أجـره ، على الله الذي فطره أفلا يعقلون فيعرفوا الفرق بين الرســول الصــادق ، وبين أولئك الطغــاة والكهنة المفــترين الــذين يهدفون السلطة والاستكبار في الأرض!

3 / وطـالبهم بإصـلاح أنفسـهم ، والعـودة الى تعـاليم الله لــتزداد نعم الله عليهم ، ولــيزدادوا قــوة الى قــوتهم الحالية ، وفي غــير هــذه الحالة فهم يصــبحون مجــرمين مخالفين لله ولرسالته ، ويستحقون العذاب.

ولكن قـوم هـود ردّوا دعواته الثلاث ، فقـالوا : انك لا تملك بيّنة كافية على صدق رسالتك ، واننا لن نـترك آلهتنا ، واننا لن نعطي أزمّة أمورنا بيـــدك ، بـــالرغم من أنك لا تطـالب بـأجر ، وزعمـوا أن كلامه نـوع من الجنـون الـذي مسّـــه بسـببب غضب الآلهة عليه ، فميّز هـــود نفسه عن قومه وتـبرأ من شـركهم ، وأشـهد الله على ذلك ، وتوكل على ربه ، وتحـــداهم جميعا ، وأمـــرهم بـــألا يمهلـــوه بل يكيدون له ليعـرف مـدى ضـعف كيـدهم ، لأنه يعتمد على الله الذي يملك كل دابة ويـدبر أمورها ، وهو على صـراط مسـتقيم ... يـدعو اليه ويجريه بقوته ، وبين لهم هـود أنه قد انهى مسئوليته ببلاغ الرسالة ، وأن الله سوف يبــدلهم بغـيرهم دون أن يضـرّوه شـيئا ، وأن الله على كـلّ شـيء حفيظ.

بينات من الآيات :

رسالة هود وأبعادها :

[50] أرسل ربنا الى عـــاد واحـــدا منهم يســـميه ربنا بأخيهم لكي يكون أقرب الى قبول الرسـالة ، وأوضح بيانا ، فـأمرهم بعبـادة الله ونبذ الشـركاء. وفضح منذ اللحظة الاولى كـذب ودجل الشـركاء من دون اللـه. شـأنه شـأن سائر الرسل التي لا تهادن في دين الله أبدا.

(**وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُـدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ**)

اي انكم تفترون على الله الكذب ، بادعائكم ان هــذه الآلهة تمثل الله في الأرض ، وربما تدل هذه الآية على أن انحــراف البشر الاساسي يكـون عــادة في تبـديل جــوهر الـــدين لا إطاراته الخارجية ، فيفسر ذات النص الـــديني (الأمر بعبادة الله ، ونبذ الشركاء بمفهوم متنـاقض ليصـبح داعيا الى عبادة الشركاء افتراء على الله ، مثلا :

يفسر قوله سبحانه : (**أَطِيعُوا اللـهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**) بـان معنـاه اطاعة كل حـاكم ظـالم متجبر بمجرد تسلطه على الناس الذي يناقض تماما فكرة التوحيد واطاعة الله هكـذا حـدث عند المسـلمين اما عند عـاد فقد حـدث شـبه ذلك ، حيث أطـاعوا الشـركاء باسم انهم مسـتخلفون من قبل الله ، وأطـاعوا الأصـنام باسم أنها شفعاء عند الله.

[51] وإذا كانت الكهنة سدنة معابد الأصنام ، وعلمـاء السوء المحيطون ببلاط المستكبرين يـبيعون علمهم على من يشتري ، ويستطيلون على الضعفاء ، فـان هـودا عليه السـلام لم يطـالبهم بـأي أجر ، وكفى ذلك شـاهدا ودليلا على صـدق رسـالته ، فلما ذا إذا كـان يعـرض نفسه لكل تلك الصعاب ، ان لم يكن صـادقا ، وهو لا يطـالب النـاس بأجر ولا يهدف الوصول الى غاية خاصة؟!

(**يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْـراً إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

[52] وطالب هـود قومه أن يصـلحوا أنفسـهم بطلب المغفـرة من الله تعـالى ، و 7 ظهـار النـدم من الـذنوب السابقة ، وبعدئذ العودة الى تعاليم السماء وتطبيقها.

(**وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**)

فـاذا فعلـوا ذلك فـان الله سـوف يفتح لهم أبـواب رحمته بانزال قطر السماء بغزارة ، واعطائهم المزيد من القوة والمنعة.

(**يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَـزِدْكُمْ قُـوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ**)

وفي غير هذه الحالة يعتـبرون مجـرمين خـارجين عن القانون ويستحقون العذاب.

(**وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**)

[53] ورفض قوم هـود رسـالة الله ، وادعـوا انهم لم يقتنعـوا بأدلته وحججه ، ولكن كـذبا إذ أن دافعهم الاصـلي في رفضهم لها كـان تمسـكهم الأعمى بالتقاليد وعبـادتهم للآلهة الـتي رفضـوا تركها اعتمـادا على كلام هـود ، وربما كان هناك سبب آخر لرفضهم للرسالة. هو استنكافهم عن التسليم لهـود. ويـوحى الى ذلك تعـابيرهم الـتي كـرر فيها (الخطـاب) ونسـبت الرسـالة الى شـخص هـود ، بينما لم يكن هود سوى رسول حامل للرسالة. تدبروا في الآية :

(**قـالُوا يا هُـودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَـةٍ وَما نَحْنُ بِتـارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**)

وقد زعموا أن ايمانهم ، إنما هو للرسول وفي منفعته ، بينما كان الواقع غير ذلك تماما.

[54] ولكي يـبرروا جهلهم بواقع الرسـالة ، ويغطـوا على نقاط الضـعف في كلامهم نسـبوا الرسـالة الى حالة مجهولة غيبية ، اعترت الرسول ـ مما لا يعرف أبعادها ـ.

(**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ**)

وهكـذا اعـترفوا ضـمنيا بخطإ أقـوالهم السـابقة ، وزعمهم بأن هودا إنما يدعوهم لنفسه. وهنا عرف هود ان العصـبية العميـاء تحيط بقلـوب هـؤلاء القـوم فيرفضـون الحق بلا تفكر لذلك.

(**قـالَ إِنِّي أُشْـهِدُ اللـهَ وَاشْـهَدُوا أَنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**)

وبـدأت مرحلة جديـدة من الصـراع هي مرحلة المواجهة السـاخنة حيث أعلن هـود براءته من أفكـارهم وانفصاله عن مجتمعهم الفاسد.

المواجهة الساخنة :

[55] وأعلن هــود عن اســتعداده للمواجهة الآن ومن دون مهلة ، وتحدّاهم لو عندهم كيد فليكيدوه به.

(**مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ**)

فما دام الكيد من دون الله ، وبعيد عن الاســــــتعانة بالله فهو فاشل لا محالة.

[56] هل كـــان يملك هــــود قــــوة يعتمد عليها في مواجهته مع جميع قومـــه؟ بلى قـــوة الله الـــذي آمن به وحمل رسالته ، وهذا أكبر شاهد على صدق دعوته.

(**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها**)

أي ما من حي يـــدب فـــوق الأرض إلا وربنا ســـبحانه يملك توجيهه كمن يأخذ بمقدم رأس أحد يوجهه انّى شـــاء ، ولكن الله لا يســـير الكـــون عبثا أو لعبا ، وانما يســـيّره بعدالة وعبر صراط مستقيم.

(**إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

فكما يسير الله كل ما في الكون في طريق مستقيم ، فانه ســـبحانه يســـير الـــذين يتوكلـــون عليه عـــبر ذلك الصراط الأقرب الى الهدف.

[57] وانذرهم هود حين لم ينفعهم التبشير وقال : إذا توليتم عن قبول الرسالة.

فقد أديت مهمــــتي وهي إبلاغ الرســـالة ، وان الله سوف يهلككم ويأتي بآخرين مكانكم دون أن تقـدروا على إلحاق الأذى بي.

(**فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقَـدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِـلْتُ بِــهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا**

تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)
فهو يحفظ الأشياء بهيمنته عليها وتسلطه ، فـاذا تركه هلك ، لان بقاءه مستمد من الله سبحانه وتعالى.

سورة هود

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَـهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيـدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَـةً وَيَـوْمَ الْقِيامَـةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

الا بعدا لعاد

هدى من الآيات :

وكــذب قــوم هــود برســولهم وجــاء أمر الله بنجــاة المؤمنين من عذاب غليظ ، وإهلاك الباقين ولم يبق منهم سوى العبرة ، فها هي عــاد جحــدوا بآيـات ربهم ، وعصــوا رســله ، وأطــاعوا امر الجبــارين المتكــبرين الجاحــدين. فلحقتهم اللعنة والبعد عن رحمة الله في الــدنيا والآخــرة. كل ذلك بسبب كفرهم بالله وبرسالاته ورسوله.

بينات من الآيات :

(**أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ**) :

[58] وانتظر هــود والــذين آمنــوا امر ربهم لأنهم منذ البدء توكلــوا عليه ــ ســبحانه ــ ولم يعتمــدوا في دعــوتهم على أنفســهم أو على قــبيلتهم أو اية قــوة مادية اخــرى ، وبعد ان أعطيت لعاد فرصة كافية ليهتدي من يهتدي منهم بوعي ، ويضل من ضل بحجــة. بعدئذ جــاء أمر الله تعــالى الذي هو فوق العادات والسنن المعروفة

للناس ، والدليل على ان العذاب الذي أخذ عادا كان خرقا للقـــوانين الطبيعة المعروفة ، ان العـــذاب لم يشـــمل المؤمنين والكافرين الذين كانوا متواجدين في مكان واحد ، بل أخذ الكفـار وحـدهم بينما العـذاب الطـبيعي كالوبـاء والزلزال والمجاعة لا يميز المؤمن من الكافر.

(**وَلَمَّا جـاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُـوداً وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ**)

هو ذلك العذاب الثقيل المتراكم الذي أخذ الكفار.

[59] لمـاذا عـذّب الله عـادا بـذلك العـذاب الغليـظ؟ لأنّهم بعد ان عرفوا آيات الله جحدوا بها ، وبعد ان عرفـوا رسـولهم الـذي أرسل إليهم للطاعة عصـوه ، واتبعـوا امر كل جبـار عنيد يتصف باسـتخدام العنف ضد النـاس. فهو ديكتاتور مستبد برأيه ، لا يحكم بالشورى ولا يتبع الهدى.

(**وَتِلْـكَ عـادٌ جَحَـدُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَـوْا رُسُـلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**)

[60] ولانحـــرافهم الفكـــري ولانحـــرافهم السياسي والاجتمـــاعي لحقتهم لعنة الأبد ، وأبعـــدوا عن رحمة الله فعذبوا في الدنيا والآخرة. كل ذلك لكفرهم بالله وبرسول الله هود.

(**وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ**)

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلـهٍ غَيْـرُهُ هُـوَ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي قَـرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قـالُوا يا صـالِحُ قَـدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هـذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُـدَ ما يَعْبُـدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُـرِيبٍ (62) قـالَ يا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَـةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْـرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُـلْ فِي أَرْضِ اللـهِ وَلا تَمَسُّـوها بِسُـوءٍ فَيَأْخُـذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64)

---

62 [مرجوا] : رجى وترجى أي أمّل.
63 [تخسير] : خسران.

صالح ينذر قومه

هدى من الآيات :

أهلكت عــاد ، وبنت ثمــود مــدينتها فبعث الله إليهم واحدا منهم (صالحا) ودعاهم الى توحيد الله ونبذ الشركاء من دونه ، وبين لهم ان مدينتهم ليست من عمل الشركاء بل من نعم الله ، فهو الــذي انشــأهم واســتعمرهم في الأرض ، وان عليهم ان يسـتغفروه ، ويصـلحوا أخطـاءهم الماضـية ، وان يتوبـوا اليه فيعملـوا في المسـتقبل بهـداه فانه قريب يسـمع اسـتغفارهم ، ومجيب يحقق طلبـاتهم ، ولكنهم رفضوا رسالة صالح لا لأنهم شكوا فيه وفي أمانته وأخلاقه ، ولا لأنهم لم يفقهــوا ابعــاد الرســالة ، بل لأنهم تعصبوا لآبائهم ، وقال صـالح : انه على بينة واضـحة ، وان الله سبحانه قد منح له فضلا منه ورحمة فهو لا يــترك ربه ليسـمع كلام قومه الـذين لا يزيدونه غـير خسـارة وضـرر. وحين طالب قومه بآية قـال لهم : هـذه ناقة اللـه. أنها آية لكم فاتركوها تأكل في ارض الله ولا تمســـوها بســـوء فيأخذكم عذاب قريب.

هكذا كانت رسالة صالح الى ثمـود على نهج رسـالات الله الى قوم نوح وعاد ،

داعية الى توحيد الله ، وكان جـواب الجـاهلين واحـدا وهو التعصب للآباء ولأفكارهم الباطلة ، أما العاقبة فهي واحدة ، كما سيأتي في الدرس القادم (إنشاء الله).

بينات من الآيات :

ركيزة الحضارة :

[61] من ميزان رسـالات الله ، انها تـأتي بلغة الـذين تهبط لهم ، وعلى يد واحد منهم ليكــون أبلغ في التــأثير ، وابعد عن العصبية.

(**وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً**)

يقـال بـان ثمـود قـوم عـرب عاشـوا في القـرى بين الشام والمدينة.

(**قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ**)

ونــزلت هــذه الكلمة على رؤســهم كالصــاعقة لأنها اسـتهدفت تغيـير مسـار تفكـيرهم ، ومنهج حيـاتهم وقيم سلوكهم ، ونظام مجتمعهم السياسي والاقتصادي.

عبادة الله يعـني القبـول بمناهجه وقيمـه. عبـادة الله تعـــني نبذ المســلّمات الثقافية الـــتي يؤلهها النـــاس ، ويعتبرونها مقدّسة لا يحــوم حولها ريب ، ولا يقــترب إليها التفكير ، ولا يتناولها النقاش ، تلك المقدسـات الموجـودة في كتب الكهنة ، والــتي يحكم من يخالفها بــالخروج عن المجتمع ، ويجازى بأشد العقاب.

وعبادة الله تعني بالتالي رفض سلطة رؤساء العشائر ووجهاء البلد ، وأصحاب الثروة والقوة ، لذلك كـانت ردود الفعل الاولية لهذه الدعوة ، هي الـرفض المطلق خصوصا وان المسـتكبرين والمفسـدين يوهمـون النـاس أبـدا بـأن التقدم والرفانه والأمن والازدهـار وحـتى الـرزق الطـبيعي الذي يوفر لهم كل ذلك جاء نتيجة الكيان

الاجتماعي والثقافي ، والنظام السياسي والاقتصادى الذي يشرفون على تسييره ، فلو تزلزل الكيان وانهدم النظام فان كل الخيرات مهددة بالزوال هي الأخرى. لذلك ذكرهم رسولهم صالح (ع) بأن الخيرات إنما هي من الله الذي انشأهم ، وجعلهم قادرين على عمارة الأرض.

(**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها**)

فالله هو الذي أودع في البشر الطموح وأعطاه القدرة ، وطوع له ما في الأرض ، وتلك هي شروط عمارة الأرض وبناء المدينة ، وليس النظام الفاسد سوى سارق لخيرات الناس ، وهاد لهم الى الهلكة. ولولا رفض الناس للنظام الفاسد ، وعودتهم الى الطريق المستقيم فان المدينة مهددة بالفناء.

(**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**)

فمن أسماء الله الحسنى ، وكذلك من نعمه الكبرى هي انه سبحانه وتعالى فتح امام الناس باب الاستغفار والتوبة ، واعطى الناس القدرة على تصحيح مسيرتهم الضالة ، وتطهير آثار الماضي الفاسد ، كما أعطاهم الفرصة لفتح صفحة جديدة مع الله ، ومع سنن الله ، ولنا في هذه الآية وقفتان للتدبر :

الاولى : ان ما في عالم اليوم من مدنية مزدهرة ، ليست بسبب الأنظمة الجاهلية الحاكمة هنا وهناك ، فليست الرأسمالية المادية ، ولا الاشتراكية الجاهلية هما سبب تقدم امريكا وأوروبا واليابان من جهة ، وروسيا وأوربا الشرقية من جهة ثانية ، ولقد رأينا كيف ان بلدانا كثيرة في العالم الثالث ازدادت تخلفا لما قلدت الغرب في ماديتها الرأسمالية ، أو الشرق في جاهليتها الشيوعية أو الاشتراكيّة ، فمصر عبد الناصر لم يزدها تقليدها للشرق إلّا سوء ، وكذلك مصر فاروق وأنور السادات ، ما ازدادت بالرأسمالة إلّا سوء ، والسبب : أن التقدم لم يكن بسبب النظام

المـــادي ولا حـــتى بسب فصل الـــدين عن السياسة ، أو الانفصال عن الجذور التاريخية مثل ما فعلته تركيا اتاتورك ، وانما السبب وراء المدنية والتقـدم هو السـعي من أجل عمارة الأرض عبر الالـتزام بسـنن الله الصـالحة ، كالعمل والاجتهـاد والتعـاون والتطلع ، وما دامت هـذه الشـعوب ملتزمة بهـذه السـنن فهي تحافظ على مكاسـبها ، وحين تنحـرف وتعـوض عن السـعي بـالفخر ، وعن الاجتهـاد بـالغرور ، وعن التعـاون والتطلع بالمفـاخرة والاسـتغلال ، فانها مهددة بفقدان مكاسبها ، وهـذه الحقيقة تـدعونا الى الإعتقاد بأن الأنظمة المادية ، والعادات الجاهلية السـائدة على الشـعوب المتقدمة سـوف تضـيع مكاسـبها وتفسد مـــدنيتها ، وان بداية الضـــياع هو تجيـــير جهـــود النـــاس ومساعيهم لمصلحة فئة الأغنياء المتسلطين في الغـرب ، أو حزب المستكبرين الحاكم في الشرق.

الثانية : ان الحضارات البشرية تبدأ بتطبيق سنن الله في تسـخير الحيـاة كالسـعي والتعـاون ولكنها تنسى دور هذه السنن في تقدمها ، وتتوجه الى الأصـنام وتـزعم انها هي واهبة التقدم والرفاه ، وهـذا الانحـراف عـادة بشـرية تكاد تكون سنن ثابتة لولا حرية البشر التي تتحداها ، ولولا رسـالة الله الـتي تـذكر البشر بهـذه الحرية ، ومن هنا لا يعـترف الإسـلام بحتمية الانهيـار في الحضـارات ، بل يضع لها فرصة الاسـتمرار عن طريق إصـلاح نفسـها ، والتوبة الى سنن الله ، وهذا ما تشـير اليه هـذه الآية الـتي تعطي المزيد من الأمل في الاســتمرار في نهايتها وتقـــول : إن الله قـــــريب مجيب ، أيّ ان إصـــــلاح الفاسد ، وتجديد الحضارات (بالاستغفار والتوبة) أيسر مما يزعم البشر.

ضلالة الآباء أم هدى الرسالة :

[62] وكان قوم صـالح غـارقين في الماضي يعـتزون بامجادهم الغابرة ، ويقلدون آباءهم ، ولذلك عادوا صـالحا بالرغم من ثقتهم بشخصه.

(**قـالُوا يا صـالِحُ قَـدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُـوًّا قَبْـلَ هـذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا**)

ولقدســية الماضي في أعينهم ارتــابوا في الرســالة سلفا ومن دون تفكر ، وقالوا :

(**وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**)

ربما تشير الآية الى ان قـوم صـالح لم يكتفـوا بالشك فيه ، بل اتهموه بالباطل ردا على تجهيل آبــائهم ، ورميهم بالضلالة.

[63] ودافع صـالح عن نفسه ، وبين سـبب اسـتقامته على هــدى الرســالة رغم ضــغوطهم ، وضــرب لهم مثلا بعمله هـذا ، لكي يقـاوموا ضـغط الماضي ، ويتحــرروا من قيــوده ، فــبين انه على ســبيل واضح بينه له ربه ، وقد انتهى به الســير في الســبيل الى تحقيق مكاسب عملية من الهـدى والطمأنينة و.. و.. وانه يخشى ربه ان عصـاه ، وأنهم لا يقدرون على تقديم العون له.

(**قالَ يا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً**)

فلما ذا لا تشكون في طريقتكم ، وتفكـرون بـأن هـذا الطريق قد يكون صحيحا؟! لا سيما وهناك خوف الضرر.

(**فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ**)

ان البشر يفكر في تغيــير طريقته لو أحس بــالخطر وخـاف منه ، ولـذلك ينبه القـرآن الى احتمـال الخطر في حالة عدم التفكير في صدق الرسالة.

(**فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**)

فبالإضافة الى احتمال الخطر ، هناك احتمـال الضــرر والخسارة ، وانعدام الربح والكسب.

[64] وكآخر محاولة لهـدايتهم ، ولقطع حجتهم ، وبعد أن طـالبوه بالآية الواضـحة ، أخـرج الله لهم ناقة ، وقـال لهم صالح (ع) :

(**وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللـهِ لَكُمْ آيَـةً فَـذَرُوها تَأْكُـلْ فِي أَرْضِ اللـهِ وَلا تَمَسُّـوها بِسُـوءٍ فَيَأْخُـذَكُمْ عَـذابٌ قَرِيبٌ**)

فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68)

الا بعدا لثمود

هدى من الآيات :

انتهى وضع ثمــود بمواجهة الرســالة وعقــروا الناقة ، وحانت ساعة الجزاء الشديد ، حيث أمهلهم الله ثلاثة أيـام فأتاهم وعد الله غير مكـذوب ، ونجى الله صـالحا والـذين آمنوا معه نجاة نابعة من رحمته ، وانقذهم من خــزي ذلك اليوم المعيب ، وتجلت صفتا القــوة والعـزة لربنا الجليل ، فبقوته قدر على إهلاك الأعـداء ونجـاة المؤمـنين ، وبعزته فعل ذلك ، وكان نوع العذاب صيحة أخـذت الـذين ظلمـوا فأصبحوا كأنهم هامـدين في ديـارهم ، وانتهى كل شـيء ، ولم يبق من ثمـــود اي اثر كـــأنهم لم يكونـــوا هنا ، ولم يتمتعوا بالرفـاه وان ذلك كـان جـزاء كفـرهم الـذي سـببه ابعادهم عن رحمة الله.

بينات من الآيات :

جزاء السكوت :

[65] جاءت نهاية ثمود التي انحدروا إليها شيئا فشيئا بسـبب اسـتكبارهم عن الحق ، وذلك حينما عقــروا الناقة الاية الإلهية التي طالبوا بها ، والتي لم تكن تضرهم

شيئا ، بل كـانت تنفعهم ، ولم يعقر الناقة سـوى أشـقاهم وهو شـــخص واحد ، إلا ان رضا الجميع بفعله وســـكوتهم عنه جعلهم شـركاء في الجريمة ، ونسـبت الخطيئة إليهم جميعا.

(**فَعَقَرُوها فَقـالَ تَمَتَّعُـوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَـةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**)

ان السـلطة السياسـية أو الاجتماعية أو الاقتصـادية الفاســـدة هي الــــتي بـــادرت بعقر الناقة في جو من الاستسلام الساذج ، وكـانت تلك النتيجة الطبيعية للجمـود والتقليد والاعـــتزاز بالمكاسب ، وهكـــذا كـــان شـــأن الديكتاتوريات عـبر التـاريخ ، انها تنـوم النـاس على انغـام المكاسب الظـاهرة فتسـلب منهم قـدرتهم على التفكـير السليم بعدئذ تقوم باستغلالهم واسـتثمار طاقـاتهم حسب ما تشاء ، وتوردهم المهالك من دون اي خوف من التمـرد أو المقاومة.

[66] وهكذا فعلت السلطات المستكبرة بقوم ثمود ، ولكن ثمـود هي الـتي فعلت بنفسـها هـذه الجريمة حين ســـكتت في أول الأمر عن تلك الســـلطات. ان الرضا بالديكتاتورية هي الخطـــوة الأولى الى المجـــزرة ، لان الديكتاتورية تسـلب أعز شــيء عند الإنســان هو عقله وتفكيره ... فيكون ضررها أكبر من نفعها مهما كـان نفعها كبيرا. لذلك جاء الأمر الالهي الحاسم.

(**فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَمِنْ خِـزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ الْقَـوِيُّ الْعَزِيزُ**)

العزة هي مظهر القـوة في الحقل الاجتمـاعي ، والله لا يدع قيم الحق قائمة في النفـوس والعقـول وبين اضـلع الكتب والخطب ، بل يجســدها في ضــمير الواقع فـــاذا بـــالظلم يتحـــول إلى ظلمـــات ، والجريمة الى عقـــاب ، والفساد الى خراب.

[67] وإذا بالسـكوت عن الظلم ، والرضا بالجريمة ، والاستسـلام أمـام الفسـاد يتحـول كل ذلك الى صـيحة مدمرة. هي صيحة الحق الـذي سـكتوا عنه ، وهي عقـاب الجريمة الـتي رضـوا بها ، وهي نهاية الفسـاد الـذي استسلموا له.

(**وَأَخَـذَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا الصَّـيْحَةُ فَأَصْـبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ**)

لقد كـانت الصـيحة في لحظة واحـدة بحيث اسـكتت حناجر السـاكتين عن الظلم ، واهمـدت حركة المغـرورين بمكاسـبهم ، وجعلتهم يسـقطون على وجـوههم (في حالة الجثوم) تلك الوجوه التي استكبرت عن قبول الحق.

[68] اين تلك الـديار الـتي تمتعـوا بها وأقـاموا دهـرا فيها؟! اين الصخب والحركة ، واين العمارة والأثاث؟! لقد شـمل التخـريب السـاحق كل زاوية من زوايا ديـارهم ، وكأنها كانت خالية من السكان ...

(**كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها**)

اي لم يقيموا فيها.

(**أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ**)

لقد كفروا بعبادة الله وبرسالته ، وبرسـول الله الـذي بعث ليطاع باذنه ، ولكن كفرهم هـذا كـان ـ في الواقع ـ متوجها مباشـرة الى ربهم جل جلاله ، وهـذه هي الحقيقة الكـبرى الـتي ينسـاها أو يتجاهلها البشر فيفصل بين الله ورسالاته ، ويريد ان يكفر بالرسالات كفـرا عمليا ويحتفظ بإيمانه بالله ، وهذا هو التناقض البعيد والمستحيل.

ان ثمود بعدت عن رحمة الله ، وعن الـذكر الحسن ، وعن ثـواب الآخـرة بسـبب محاولتها الفصل بين الله ورسوله. فهل نكرر التجربة؟!

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُـلُنا إِبْـراهِيمَ بِالْبُشْـرى قـالُوا سَـلاماً قالَ سَـلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جـاءَ بِعِجْـلٍ حَنِيـذٍ (69) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَـةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71) قـالَتْ يا وَيْلَـتى أَأَلِـدُ وَأَنَا عَجُـوزٌ وَهـذا بَعْلِي شَــيْخاً إِنَّ هــذا لَشَــيْءٌ عَجِيبٌ (72) قــالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

---

70 [أوجس] : الإيجـاس الاحسـاس وأوجس ، ويقـال أوجس خوفا أي أضمر.

[خيفة] : خوفا.

72 [بعلي] : البعل الزوج وأصله القائم بالأمر.

أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ

هدى من الآيات :

يتابع السياق القرآني قصة الرسـالة في عهد إبـراهيم (ع) ، ويلخص قصته التي تتصل بقوم لوط. ويبدأ الحـديث بجو السلام والبشارة التي يختلط بها الخوف ، لقد جـاءت رسل الله وملائكته الى إبـراهيم (ع) يزفـون اليه البشـرى بأبنائه ــ الـذين كـانوا يشـكلون امتـدادا لخطه ــ ، وهلاكا لأعدائه.

فجــاء إليهم إبــراهيم بالطعــام وكــان عجلا مشــويا ، ولكنهم لم يلامســوه فتــوجس منهم خيفة ، وأثــير عنــده سؤال : لماذا لا يأكلون؟! فطمأنوه وقالوا : اننا رسل الله وقد أرســلنا الى قــوم لــوط ، وبينما كــانت امرأته قائمة تصلي أو تقوم بخدمة الضيوف ضحكت تعجبا وفرحا بهلاك قوم لوط فبشرها الله بإسـحاق ومن بعـده يعقـوب ، ولم تتمالك من شــدة التعجب فصـاحت : كيف ألد وانا عجــوز وبعلي شيخ طاعن في السن؟! فـردّ عليها الرسل قـائلين : لماذا تعجبين من امر اللــه. ان رحمة الله وبركاته عليكم أهل الـبيت لان الله يفعل ما يحمد عليه وهو رفيع المقـام سبحانه؟!

هكذا مهد الله لقصة أصحاب لوط الذين كانت رسالة إبراهيم (ع) ـ نازلة لهم أيضا ـ.

بينات من الآيات :

إبراهيم والبشارات الثلاث :

[69] ظل إبراهيم يقـاوم ويقـاوم. ولم يـرق الى قلبه السـامي اليـأس أو الشك ، وحـانت الآن سـاعة البشـارة المنتظرة. لقد أرسل الله اليه رسله بصورة رجال حسـان الوجـــوه تعظيما له وتكريما لجهـــاده الطويل ، فجـــاءوا يبشرونه :

أولا : بان الله اذن له بالنصر.

ثانيا : بـان أعـداء الرسـالة سـيهلكون ، الا وهم قـوم لوط الذين بعث الله إليهم أول المؤمنين برسالة إبراهيم.

ثالثا : بـأن الله سـوف يرزقه ــ بعد طـول المعانـاة واليأس ـ أولادا يتابعون دربه ...

(**وَلَقَـدْ جـاءَتْ رُسُـلُنا إِبْـراهِيمَ بِالْبُشْـرى قـالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ**)

تبـادل رسل الله أول ما تلاقـوا مع إبـراهيم (ع) وربما كانوا الوحيدين من ضيوف إبراهيم الـذين اخرجـوا الشـيخ الــذي أكلت ســنون النضــال عمــره المبــارك من غربته الروحية في رحم الصـحراء. لـذلك بـادر إبـراهيم بإحضـار الطعام السمين إليهم وهو عجل مشوي.

(**فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**)

العجل ولد البقرة والحنيذ المشوي.

[70] وانتظر إبراهيم ضيوفه ليأكلوا أو حـتى ليبـادروا الى التهام العجل الحنيذ على عادة الراحلين عبر الصحراء ، ولكنهم لم يفعلـوا ، فـأنكرهم كيف لا يـأكلون؟! وخـاف منهم لأن الضـيف الـذي لا يأكل يضـمر الشر ، ولكنهم سـرعان ما بـددوا خوفه الـذي أحس به ، واظهـروه على حقيقة الأمر ، وأعلنـوا مهمتهم وهي بشـارته بهلاك قـوم لوط بعد طول عنادهم.

(**فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ**)

[71] وظهـرت في الصـورة المـرأة الصـبورة الـتي رافقت زوجها إبراهيم في جهاده الطويل وهي سـارة بنت هـارون ابنة عم إبـراهيم ، وزوجته ورفيقة دربه ، فـاذا بها تضـحك من بشـارة الرسل وهي قائمة تصـلي ، أو تخـدم الضيوف.

(**وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ**)

وهنا بـادر الرسل بـإطلاق البشـارة الثانية والأعجب حيث بشروها بانجاب الأولاد ...

(**فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ**)

[72] وتعجبت كيف تلد وهي عجـوز وزوجها شـيخ طاعن في السن.

(**قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**)

[73] وعـاد الرسل يبشـرونهم بثالثة البشـارات وأعظمها وهي مرضاة الله التي تتجسد في الرفاه والخير والرحمة من الله ، وفي الانتشـار والتقـدم والتعامل ، وبالتـالي البركـات من جهة ثانية ، لأنهم أهل بيت الجهـاد والايمان ولأن الله حميد مجيد.

(**قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُـهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**)

ان ربنا يحمده الناس بكرمه وفضله الواسع.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا

---

74 [الرّوع] : الافزاع ، ويقال راعه يروعه إذا أفزعه ، وارتاع ارتياعا إذا خاف ، والرّوع بضم الراء النفس يقال ألقى في روعي في نفسي ، وسميت بذلك لأنها موضع الروع.
75 [آواه] : كثير الدعاء.
[منيب] : راجع الى الله سبحانه في جميع أموره.
77 [سيء بهم] : ساءه مجيئهم.
[ذرعا] : طاقة ووسعا.
[عصيب] : الشديد في الشر ، وأصله من الشر يقال عصبت الشيء أي شددته.

اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَـقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79) قالَ لَـوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُـوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُـلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْـلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَـدٌ إِلاَّ امْرَأَتَـكَ إِنَّهُ مُصِـيبُها ما أَصـابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَـرِيبٍ (81) فَلَمَّا جـاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سـافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجـارَةً مِنْ سِـجِّيلٍ مَنْضُـودٍ (82) مُسَـوَّمَةً عِنْـدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

---

80 [ركن] : الركن معتمد البناء بعد الأساس.
[شديد] : الشدة تجمّع يصعب معه التفكك.
81 [بقطـــع] : القطع القطعة العظيمة تمضي من الليل ، وقيل نصف الليل كأنه قطع نصفين.
82 [سجيل] : الحجارة الشديدة.
[منضـود] : متتـابع في الإرسـال أي بعضه يلاحق بعضا ، والمنضـود من نضدت الشيء بعضه على بعض.
83 [مسومة] : المسومة من السيماء وهي العلامة.

جعلنا عاليها سافلها

هدى من الآيات :

وبعد ان ذهب عن إبــراهيم الــروع بســبب خوفه من الملائكة المرســلين. واســتلم منهم البشــرى. هنالك أخذ يتضرع الى الله لنجـاة قـوم لـوط. حقا كـان إبـراهيم قمة في الحلم. حيث لا يــزال يرجو نجــاة قومــه. وقد اكتسب ذلك بعلاقته بربه العظيم. بيد ان الله أخـبره ان أجل قـوم لوط قد أتى. وان لا مرد لعذاب الله.

في الجــانب الآخر من الصــورة نجد لوطا (ع) يضــيق ذرعا بالمرســـلين ، لعلمه بفســـاد قومه الـــذين أخـــذوا يهرعــون إليه ، اســتمرارا لعـاداتهم الســيئة. وطلب منهم لوط ان ينكحوا النسـاء اللاتي هن اطهر لهم من الشـذوذ. ورجـــاهم بـــألا يتعرضـــوا لضـــيفه. وانتخـــاهم وقـــال أليس فيكم رجل رشيد؟!

فرفضـوا. وعـرف لـوط الا ملجأ له الا الله ذا الـركن الســـديد. هنالك كشف الرسل عن أنفســـهم. وطمـــأنوه وأمروه بـأن يـترك المدينة ليلا. لأن ميعـاد العـذاب قـريب عند

الصـباح وهكـذا جعل الله مـدن قـوم لـوط عاليها سـافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود. سجلت باسـمهم. وكانت جزاء الظالمي. وهلكوا وبقيت منهم عبرة للتاريخ.

بينات من الآيات :

[74] حين سكنت نفسية إبراهيم (ع) من المفاجآت ، وبشّر بالنصر ، عـاد إليه حنانه المتـدفق نحو إنقـاذ النـاس من الجاهلية ، وأخذ يجادل ربه في قوم لوط ويتضرع اليه ان يؤتوا فرصة اخرى للهداية.

(**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الـرَّوْعُ وَجاءَتْـهُ الْبُشْـرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ**)

[75] ويشـهد جـدل إبـراهيم (ع) ودفاعه المسـتميت عن النـــاس على مـــدى اهتمـــام الرسل بالنـــاس ، وان دعـوتهم ليست من أجل مصـالح ذاتية ، بل من أجل حبهم العميق للآخرين.

(**إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**)

فبحلمه العظيم صـــبر على أذى قومه ، على أمل ان يهتـدوا في يـوم من الأيـام ، ولا يـزال ينتظر هـدايتهم لا هلاكهم ، ولأنه دائم التضـــرع الى الله ، وقلبه متصل أبـــدا بالله عن طريق المناجـاة نـراه يـدعو الله لكي ينقذ قـوم لوط ، ويعطيهم فرصة اخـرى للهداية دون ان يعلم الغيب ، وانه لا أمل فيهم أبـدا ، ولـذلك فهو أواه ، بيد انه يسـلم لله الأمر ويـنيب الى ربّه ولا يجعل الـدعاء إذا لم يسـتجب سببا لعدم رضاه من الله فهو إذا منيب.

[76] ولأن إبراهيم منيب تجده يعود عن قراره بطلب الخلاص لقوم لوط ، وذلك

حين قال له ربه :

(**يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جـاءَ أَمْـرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**)

فما دام الأمر لم يصبح جديا ومحتما يجـوز ان يسـعى الفــرد لتغيــيره ، بالعمل أو بالــدعاء ، وأما إذا قضى الله أمرا فلا يمكن تغييره.

في ضيافة لوط (ع):

[77] وانتقل رسل الله من عند إبراهيم (ع) الى بيت لـوط (ع) ، وحـدثت هنـاك المفاجـأة الثانية حيث ضـاقت الأزمة لتنفرج ، واشتدت لتحل.

(**وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِـيءَ بِهِمْ وَضـاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ**)

ان لوطا (ع) حسب ان هؤلاء الرسل الذين جاؤوا إليه في صـورة فتية حسـان الوجـوه ، حسـبهم انهم ضـيوفه وكان قومه يفعلون الفاحشة بالضيوف ، لذلك استاء منهم وضاق ذرعا بحضورهم ، ورأى ان ذلك اليوم شـديد عليه ، وانه لا حيلة له في عمل شـيء أبـدا ، لأنه وحيد بين قـوم طغاة لا يؤمنون بدين ، ولا يدينون بشرف.

[78] ولما رأى قومه الفتية أسـرعوا الى بيت لــوط (ع) ليفعلوا ما اعتـادوا عليه من الفاحشة ، ودعـاهم لـوط (ع) الى ترك الشذوذ الجنسي والعـودة الى سـنة الله في الحياة بالزواج من البنات.

(**وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**)

أي يسرعون الى بيته.

(**وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّـيِّئاتِ قـالَ يا قَـوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**)

قالوا : بأن لوطا (ع) طـالبهم بـزواج البنـات من أمته وهن بناته بـالأبوة الروحية والرسـالية ، كما قـالوا : بأنه عـرض عليهم بناته ليـتزوجوا منهن ، وكـان ذلك العـرض السخي من أجل نهيهم عن المنكر ، باي وسيلة ممكنة.

(**فَاتَّقُوا اللهَ**)

وهكذا أمرهم بتقوى الله ، وترك العـادة السـيئة ، بعد ان أوضح لهم الطريق السوي لإشباع الشـهوة الجنسـية ، وطالبهم لوط برعاية الشرف.

(**وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي**)

فـان لم يكن لكم دين فلا أقل من التمسك بـالعرف الذي ينكر طبيعيا اغتصاب الضيوف.

(**أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ**)

[79] وكان جواب قومه بالغا في الميوعة والرعونة.

(**قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ**)

أي فيما يتصل بقضـية البنـات ، لا بد أن نـتزوجهن والزواج حق نعمل به ونمشي على هـداه ، أما الآن فنحن نريد تلك اللذة التي لا توجب علينا تكاليف ومسئوليات.

(**وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ**)

ربما كان قوم لوط قد استصعبوا قوانين الـزواج على أنفسهم ، مما دفعهم إلى إشباع الغريزة بالشـذوذ ، وربما كان لوط يـدعوهم الى التخفيف من قيـود الـزواج مما قد يدل عليه قوله عليه السلام : (هؤلاء بناتي) وقـولهم : (**مَا لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ**).

[80] وقطع لـوط أمله منهم ، واسـتبد به اليـأس من كل شيء ، وقال بكلمات تتفجر أسى.

(**قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ**)

تمـنى لو كـانت لديه قـوة قـادرة على مـواجهتهم ، أو كانت لديه عشيرة تمنعه منهم.

أليس الصبح بقريب :

[81] هكـذا اشـتدت الازمة وضـاقت عليه المشـكلة ، وعنـدها تـرجى رحمة الله ، وهكـذا أظهر الضـيوف الـذين حاول الجاهليون الاعتداء الخلقي عليهم ، أظهـروا واقعهم وبيّنوا أنهم ملائكة الله.

(**قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ**)

وجاءت الأوامر متلاحقة صارمة :

ألف : (**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ**)

بعد أن يسـدل الليل سـتاره ويـذهب ردح منه وتهجع العيون ، وتأوي النفوس الى مضاجعها.

باء : (**وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ**)

لا ينظر الى ما وراءه ليعرف كيف سيكون حال قومه ، بل يبقى منفصلا عنهم

نفسيا لكي لا يشاركهم العذاب ، ولذلك أصاب امرأة لوط ما أصـابهم من العـذاب بسـبب انتمائها النفسي والقلـبي إليهم.

ثم جاء الأمر الالهي الصارم على لسان الملائكة.

(**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**)

[82] ماذا صنع الله بقوم لوط؟

لم يفعل بهم إلّا ما فعلوه بأنفسهم. انهم غيروا سـنن الله ، وحولوها عن وضعها العادي فاذا بهم يـأتون الرجـال شـــهوة من دون النســـاء ، فقلب الله مـــدينتهم على رؤوسهم تنكيلا.

(**فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها**)

وانهم لم يقبلـوا وصـايا الله ، ومواعظ الأنبيـاء الـتي تستمطر الرحمة ، فاذا بهم يتعرضون لعذاب الله الشـديد يمطر عليهم من السماء بدل البركات.

(**وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ**)

ربما يكون معناه الحمم المتلاحقة وكأنها منضـودة بما يشبه حجارة البراكين المتفجرة ، والله أعلم.

[83] وقد قـدر الله تلك الحجـارة لمثل هـذه الطائفة المنحرفة ، وكأنها قد وضعت عليها علائم خاصة تقول هذه لهؤلاء.

(**مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**)

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللـهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِـيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ عَـذابَ يَـوْمٍ مُحِيـطٍ (84) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيـالَ وَالْمِـيزانَ بِالْقِسْـطِ وَلا تَبْخَسُـــوا النَّاسَ أَشْــــياءَهُمْ وَلا تَعْثَـــوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قـالُوا يا شُـعَيْبُ أَصَـلاتُكَ تَـــأْمُرُكَ أَنْ نَتْــرُكَ ما يَعْبُـــدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَــلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)

شعيب : أوفوا المكيال والميزان

هدى من الآيات :

في سياق حديث القرآن الكريم عن الشعوب الضالة. يـذكرنا بمصـير مـدين قـوم شـعيب الـذين ابتلـوا بالفسـاد الاقتصادي ، فأخـذوا ينقصـون المكيـال والمـيزان فنهـاهم شعيب عن ذلك بعد ان أمـرهم بعبـادة الله واتبـاع مناهجه في الحياة الاقتصادية ، وحـذّرهم من أن الرفـاه قد يـزول بسـبب ظلمهم ، ويحيط بهم عـذاب الله ، كما نهـاهم عن الفسـاد وأمـرهم بالقسط ، وذكـرهم بـأن عليهم الانتفـاع بهدى الله ورسالته وذلك خـير لهم. وأكـدّ بأنه ليس سـوى مبلّغ للرسـالة ، وليس وكيلا عنهم. بيد انهم رفضـوا قبـول دعوته بالرغم من قبولهم لشخصه ، فبعد ان اعـترفوا بأنه صاحب دين والتزام بالشعائر ، وأنه حليم رشيد لم يقبلــوا بـأن يتـدخل في شـؤونهم ويـأمرهم بـترك عبـادة ما كـان يعبده آباؤهم ، أو تحديد حريتهم في أمور الاقتصاد.

بينات من الآيات :

[84] في طرف الجزيرة العربية كانت مساكن مـدين تلك القبيلة التي وسّع

عليها الله الــرزق فبطــروا ، وأخذ بعضــهم يظلم بعضا ، ويحـــاول البعض الانقـــاص من البعض. وان يفسد ما في الأرض.

فجاء شعيب رسولا من قبل الله إليهم وأمرهم بعبادة الله ، وتنفيذ تعاليم السـماء ، ونهـاهم عن عبـادة ذواتهم ، أو عبــادة الــثروة الزائلة ، كما نهــاهم عن الانقــاص في المكيـال والمـيزان لأنه نـوع من الظلم والعلاقة الفاسـدة بين أبنـاء البشر والـتي سـوف تـؤدي الى زوال الخــير ، وحذرهم من يوم يحيط بهم عذابه فلن يجدوا مفرا منه.

(**وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُـعَيْباً قـالَ يا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ**)

ربما كـانت مـدين كغـيرهم من الشـعوب الجاهلية ، تــدّعي الايمــان بالله ظــاهرا ، ولكنهم لا يطبقــون واقعا رسـالة اللـه. فلـذلك أمـرهم شـعيب بعبـادة الله وتحكيم ســيادته التشــريعية على واقعهم الاجتمــاعي ، دون أن يكتفـوا بـترداد اسـمه سـبحانه ، بينما يتخـذون آلهة أخـرى للعبادة ، كالكهنة والطغاة والاشراف وأصحاب المال.

(**وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ**)

أي إني أجد حياتكم المادية مرفهة ، ولكن هذه الحياة قد تـزول في أية لحظة بسـبب الظلم الاجتمـاعي الـذي تمارسونه.

(**وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ**)

عوامل الانهيار :

[85] وأمرهم شعيب بأن يوقفـوا رحلة الانهيـار الـتي بــدأت في حضــارتهم المزدهــرة عــبر ثلاث ثغـرات هامة وجدت فيهم وهي :

أولا : الاستهانة بالمقاييس الاقتصادية التي كانت موضع ثقة الجميع كالمكيال والميزان فاذا بخسوا فيهما فان النظام الاجتماعي ذاته يصبح مهددا بالزوال. إذ ان النظام يقوم على أساس الثقة والتوافق الاجتماعي عليه ، ولا ثقة ولا توافق مع الاحتيال على المقاييس والقيم التي يجب ان تكون ثابتة ومعتمد عليها.

ثانيا : تبديل العلاقة الاجتماعية السابقة التي كانت تعتمد على احترام حقوق الآخرين ، والتنافس البنّاء من أجل الحصول على خيرات الأرض بتعاون الجميع وثقتهم ببعضهم ، ولكنهم بدّلوا ذلك بعلاقة الصراع ومحاولة كلّ فرد أو كلّ جبهة أو جماعة السطو على حقوق الآخرين ، مما يهدد محور المجتمع ، وأساس المدنية.

ثالثا : تبديل علاقة الإنسان بالطبيعة من علاقة الإصلاح والتعمير والبناء ، والانتفاع المعقول الى علاقة الإفساد والهدم ، والإسراف في الانتفاع أو الشذوذ فيه.

هكذا جاءت رسالة الله لأهل مدين على يد شعيب في لحظة التحول. حيث كانوا أحوج شيء الى الهداية. فقال لهم شعيب (ع) :

(**وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ**)

أي احترموا المكيال والميزان ، وليكن كيلكم ووزنكم بالعدل التام.

(**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ**)

سواء كانت مادية أو معنوية ، وليكن همّكم أداء حقوق الآخرين واحترامهم ، والاعتراف بمنزلتهم وكرامتهم دون أي نقص في ذلك.

(**وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**)

توجيه المستقبل :

[86] وأضـــــــاف شــــــعيب (ع) في توجيهه لقومه الجـاهليين توجيها هاما يعتـبر ضـمانا لاسـتمرار الحضـارة وحفظا لها من أسـباب التـدهور والـزوال ، وهو التسـامي عن جاذبية المادة ، والتحليق في سماء الايمان ، والاعتقاد العملي بالمستقبل ، وبالتالي التسلح برؤية بعيدة فقال :

(**بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

ما هي بقيت الله؟

انه رضوانه وثوابه.

والسـؤال هو : كيف يمكن لقـوم مثل قـوم شـعيب الحصـول على الباقيـات الصـالحات؟ إلا بـترك الموبقـات التي ذكـرت في الآية السـابقة ، ثم العمل في سـبيل الله بالطعام المساكين ، وأداء حقوق الفقراء ، وبناء المساجد والمرابط ، والإنفــاق من أجل بنــاء الســدود والقنــوات والطرق و. و. ، وكلما هو في سبيل الله. أليس كذلك؟!

والعمل بكل ذلك يــوجب اســتمرار الحضـــارة في الازدهــار للمســتقبل ، وعــدم الإســراف في اســتهلاك المكاسب الآن ، وكل حضـارة تقـوم بالازدهـار في بداية تكونها ولكنها تتوقف عن الازدهار ، ثم تبالغ في الاستهلاك انها تنتهي وتـزول ، أما إذا اسـتمرت الحضـارة في العمل للمسـتقبل ، وفي إيجـاد علاقة ايجابية وبنـاءه مع النـاس ومع الطبيعة ، فانها سـوف تبقى وتسـتمر ، لـذلك اعتبرنا هـذا الأمر الالهي الـذي أظهـره شـعيب ضـمانا لاسـتمرار الحضارة. وتشـير بعض الآيـات القرآنية الاخـرى الى هـذه الحقيقة مثل قوله سبحانه.

(**الْمـالُ وَالْبَنُـونَ زِينَـةُ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَالْباقِيـاتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ**

أَمَلاً) [1]
(**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ**) .. الى قوله .. (**وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**) [2]
ثم قال شعيب :
(**وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**)
أي لا تفتروا : بأنّ القائد قادر على منع العـذاب عنكم من دون أن تفعلوا شيئا صـالحا ، أو تغـيروا ما بأنفسـكم ، بل عليكم أنتم المسؤولية أولا وأخيرا ، وربما أشارت الآية الى حالة حضارية اعترت قـوم شـعيب كتلك الـتي تعـتري الشعوب المتخلفة فيلقون كل المسؤولية على قياداتهم.
[87] ولكن قـوم شـعيب ظلـوا على وضـعهم الفاسد وعيّروا شعيبا.
(**قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا**)
وكأن عبادة الأصنام تحـولت عنـدهم الى دين مقـدس لأنه من عمل الآباء ، ولا يجوز ان يعارضها شـخص مـؤمن كشـعيب ، وكما عبـادة الأصـنام كـذلك سـائر الأنظمة كالملكية الفردية المطلقة.
(**أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا**)
ونكسب المال بطريقة مشـروعة أو غـير مشـروعة ، سواء نظلم الناس أو بالبخس

---
(1). الكهف / 46
(2). آل عمران / 14

عنهم ، وأن نصرف المال في أي وجه نشاء صلاحا كان أم فسادا.

(**إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**)

ولست بشاب طائش يخالف تقاليد الآباء أو لا يعـترف بحقوق أصحاب المال ومزايـاهم ، ويبـدو من حـديث قـوم شـعيب أنهم قد ضـلوا ضـلالا بعيـدا حـتى رأوا المعـروف منكـــرا ، والمنكر معروفا ، وأصـــبح الفســـاد دينا مقدّسا عندهم وليس فقط سلوكا شاذّا ، لذلك لم تنفعهم نصـيحة شعيب (ع).

قـــالَ يا قَـــوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَـــةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَـناً وَما أُرِيـدُ أَنْ أُخـالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْـلاحَ مَا اسْـتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْـهِ تَـوَكَّلْتُ وَإِلَيْـهِ أُنِيبُ (88) وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْـلُ ما أَصـابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَـوْمَ صـالِحٍ وَما قَـوْمُ لُـوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِـيراً مِمَّا تَقُـولُ وَإِنَّا لَنَـراكَ فِينا ضَـعِيفاً وَلَـوْ لا رَهْطُـكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ

---

91 [نفقـه] : الفقه فهم الكلام على ما تضـمنه من المعـنى ، وقد صـار علما لضــرب من علــوم الــدين وهو علم بمــدلول الــدلائل الســمعيّة ، وأصول الدين علم بمدلول الدلائل العقلية.

[رهطك] : الرهط عشيرة الرجل وقومه ، وأصله الشد.

[لرجمناك] : الرجم الرمي بالحجارة.

يا قَــوْمِ أَرَهْطِي أَعَــزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللــهِ وَاتَّخَــذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ (92) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُـونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُـوَ كـاذِبٌ وَارْتَقِبُـوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جـــــاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُـــــعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَـهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَأَخَـذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُـوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جـاثِمِينَ (94) كَـأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

---

92 [ظهريا] : الظهري جعل الشـيء وراء الظهر حـتى ينسـاه ، ويقـال لكل من لا يعبأ بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهره.

93 [وارتقبوا] : وانتظروا.

شعيب : لا يجرمّنكم شقاقي

هدى من الآيات :

لقد انتهى الدرس السابق في الوقت الذي كـان قـوم شعيب يجادلونه في خرافاتهم وأصنامهم ، أما شعيب فهو لا يزال يقاوم ضلالتهم ويحتج عليهم.

أولا : بأنه قد هداه الله ، وجعله على بينة واضحة.

ثانيا : إن حياته الشخصية على خير وجه.

ثالثا : إنه أول من يتبع مناهج ربه التي يأمرهم بها.

رابعا : إن هدفه هو إصـــــــلاح الوضع الفاسد بكل ما أوتي من مقدرة.

خامسا : انه لا يهمه الفشل ، كما لا يسـتبد به اليـأس لأنه يـــرى ان توفيقه من الله ، وان عليه لا على نفسه أو على النــاس توكله واعتمــاده ومعــاده ، وحــذرهم من ان عنادهم ضـده ، وتحـديهم له قد يـوقعهم في ذات المهلكة التي وقعت فيها الشعوب

الضـالة سـابقا ، مثل قـوم نـوح وقـوم صـالح وقـوم لـوط القريبين منهم زمانا أو مكانا أو كلاهما.

ثم أمرهم شعيب مـرة اخـرى بالاسـتغفار والتوبة الى الله فانه رحيم ودود ، ولكنهم حين لم يجـدوا جوابا قـالوا له : لا نفهم كثـــيرا مما تقـــول ، وان مقياســـنا في تقيم كلامك ليس ذات الكلام بل ذات الشخص المتحــدث ، وإنا لنراك ضعيفا فينا ، ولولا وجـود أصـحاب لك وعشـيرة. إذا لرجمنـاك ، فقـال لهم : هل ان عشـيرتي أعز عنـدكم من الله خالقكم وخالقي المحيط بكم ، والذي تركتم مناهجه.

ثم تحـــداهم وقـــال لهم : اعملـــوا ما شـــئتم أما أنا سأعمل وسوف تعلمون من يأتيه عذاب الخــزي ، وهل أنا كاذب أم أنتم ، وانتظروا اني معكم رقيب وشـاهد ، وجـاء امر الله فـــأنجى الله شــعيبا والمؤمـــنين معه برحمة منه بينما اخذتهم الصيحة فأصبحوا جاثمين في ديــارهم كما لو لم يقيموا هناك ، فابعـدهم الله ولعنهم كما ابعد ثمـود من قبلهم.

بينات من الآيات :

شخصية الرسول :

[88] يظل الأســـلوب الرســـالي. هو ذلك الأســـلوب الـذي ينـير القلـوب ، ويتحـدث الى الوجـدان بعد ان يرفع عنه الصـــدأ ، ويكشف عنه الحجب ، وهكـــذا فعل شـــعيب حيث بـــدأ من نفسه ووضع امـــام قومه واقعا جديـــدا هو سلوكه :

(**قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي**)

مـاذا لو أكشف سـلامة رؤيـتي ، وصـواب طـريقي ، وانــني على بينة واضــحة أعطاها الله لي. أفلا يكـون من الخطأ عدم التفكر في ذلك أساسا ورده رأسا؟!

(**وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً**)

فأخلاقه الفاضلة ، وسلوكه الحسن ، وإرادته الصلبة ، وصحته الجسدية ، وتكامله المعنوي بالاضافة الى رسالات الله الـــتي لا يشك أحد في انها نعمة كـــبري. كل أولئك شواهد على ان سبيله مستقيم.

(**وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ**)

فانا أول من يطبق الرســالة كــدليل على صـــدقي ، وقناعتي بها ، وعدم تكلفي فيها.

(**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**)

فبـــالرغم من اختلاف النـــاس في مفهـــوم الصـــلاح والفسـاد في بعض الأبعـاد التفصـيلية ، فـأن أكـثر النـاس يعلمـون ان تقـريب القلـوب ، وتـأليف التقـوى ، والوفـاء بالمكيال والميزان ، والاهتمام بالمحرومين والمستضعفين ، كل ذلك صـــلاح ، وان الرســـول يقـــوم شخصـــيا بفعل الصلاح ، ويضرب بذلك مثلا على حقيقة رسالته.

(**وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**)

ان نسبة نجاح خطط الرسل تفـــوق كل النسب ، مما يكشف عن عامل غيبي غير معـروف للنجـاح ، وهو توفيق الله وســلامة الرؤية الرســالية ، وهــذا بــدوره دليل على صــدق الرســالة ، كما ان وضع الخطط الــتي تعتمد على الغيب وتأخذ الغيب كعامل هــام في معادلة الخطة ، دليل آخر على صدق الرسالة وهذا هو التوكل ، والرسـول رجل غيـــبي ليس في تصـــرفاته وانما أيضا في انابته الى الله ، وضــراعته الدائمة ، وصــلاته الكثــيرة ، ورشــده وحمله ، وكان شعيب (ع) من أكثر الأنبياء إنابة الى الله حتى قـالوا : إن كريمته قد ابيضت من كـثرة البكـاء خشـية من الله ، وشكرا له.

إرهاصات العذاب :

[89] وحذّر شعيب قومه من العناد. ومخالفة الرسالة لمجــرد تحــدي شــعيب ، وحــاول أن يفهمهم بضــرورة التفريق بين الفكــرة وبين قائلها ، فلو كــانت ســلوكيات الداعية أو اساليبه الاعلامية تثـير فيهم الغضب ، فلا يجـوز ان يظلموا أنفسـهم بمخالفة الفكـرة الصـحيحة ، لأن ذلك سوف يسبب لهم متاعب كبيرة.

(**وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي**)

اي لا تدعوكم مخالفتي الى التورط في المشكلة.

(**أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**)

[90] ثم أمرهم شـعيب بإصـلاح أنفسـهم والاسـتغفار من ذنوبهم لكي لا تكـون الـذنوب السـابقة سـببا لمعـاداة الرسالة ، ومخالفة أوامر الله.

(**وَاسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**)

إذ قد يسبب تعود البشر على الأفعال القبيحة ، وظنه بأن الله قد تركه ، وبالتالي يأسه من روح الله ، قد يسبب استرساله في الكفر تـبريرا لأعماله الفاسـدة من هنا دعا شعيب قومه الى مخالفة العادة ، ورجاء رحمة الله.

[91] وجــاء دور قــوم شــعيب يــردّون حجج شــعيب فــانظر مــاذا قــالوا؟ وكيف انهم قد انطلقــوا في رفض الرسالة. من قاعدة الجهل والعناد ، والتمسك بالماديات ، والغرور بما لديهم من قوة!

(**قالُوا يا شُـعَيْبُ ما نَفْقَـهُ كَثِـيراً مِمَّا تَقُـولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ**

(**لَرَجَمْناكَ**)

اي لولا عشيرتك لقتلناك شر قتله.

(**وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ**)

[92] وسـفه شـعيب أولئك الأغبيـاء الـذين يعانـدون ربهم ويخشون رهط شعيب.

(**قـالَ يا قَـوْمِ أَرَهْطِي أَعَـزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللـهِ وَاتَّخَـذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُـونَ مُحِيطٌ**)

فـأنى تعملـون فلا تخرجـون من اطـار قـدرة الله ، وحدود مملكته سبحانه.

[93] وجـاءت مرحلة التحـدي الفاصـلة حيث نابـذهم شـعيب العـداء ، وأمـرهم بـأن يعملـوا على حـالهم. بينما يعمل هو بما أمـره الله والكل ينتظر ما يحمله المسـتقبل من مفاجات.

(**وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَـوْفَ تَعْلَمُـونَ مَنْ يَأْتِيـهِ عَـذابٌ يُخْزِيـهِ وَمَنْ هُـوَ كـاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**)

وهكذا جـاء دور انتظـار الفـرج من قبل شـعيب ، بعد الجهـاد وتوفـير عوامل النصر الظـاهرة ، وانتظـار الفـرج يعتبر من أفضل الأعمال. ففي الحديث النبوي :

«**أفضل اعمال أمتي انتظار الفرج**»

[94] وكل آت قـــريب ، فجـــاءت العاقبة تكشف الحقيقة المظلومة لتنتقم من المعاندين.

(**وَلَمَّا جـاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُـعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ**

ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ)

[95] وكأن أحدا لم يكن في هذه الديار.

(**كَـأَنْ لَمْ يَغْنَـوْا فِيها أَلا بُعْـداً لِمَـدْيَنَ كَما بَعِـدَتْ ثَمُودُ**)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ

---

98 [يقدم] : يقال قدمت القوم أقدمهم قدما ، إذا مشيت أمامهم واتبعوك.

[الورد المورود] : الورد ورود الماء الذي يورد ، وأصل الورد الاشراف على الدخول وليس بالدخول ، أي بئس الماء الذي يردونه عطاشا لإحياء نفوسهم ، تلك النار التي يردونها.

99 [الرفد المرفود] : العطاء المعطى لهم.

100 [قائم] : باق وان أهلك أهله.

[حصيد] : الحصيد بمعنى المحصود ، والحصد قطع الزرع من الأصل ، وحصيد قد حصد وعفى أثره.

شَـيْءٍ لَمَّا جـاءَ أَمْـرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْـرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذلِكَ أَخْـذُ رَبِّكَ إِذا أَخَـذَ الْقُـرى وَهِيَ ظالِمَـةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِيمٌ شَـدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَـهُ النَّاسُ وَذلِـكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)

---

101 [تتبيب] : من تبت يده أي خسرت.

وما أمر فرعون برشيد

هدى من الآيات :

لقد أرسل الله موسى بآياته البينات وبسلطان مـبين. الآيـــات كـــانت تلك القيم الـــتي دعا إليها موسى ، وتلك الحقــائق الــتي ذكر بها ، وتلك الفطــرة المنســية الــتي اســـتثارها في قلـــوبهم. وتلك المعرفة الـــتي جهلوها ، فأعادها الى ذاكرتهم ..

وجـاء موسى فرعـون وملأه بسـلطان مـبين ، الا أن الملأ لم يتبعوا ذلك السلطان ، بل اتبعوا امر فرعـون غـير الكامل ، وغير البالغ مستوى الرشد ، لأنه يقـود قومه الى بئس المقام وهو النـار كما ان اللعنة تلاحقهم ، في الـدنيا والآخرة ، بئس العطاء ، وبئست الضيافة والقرى.

هل ظلمهم اللـــه؟ كلا .. انما ظلمـــوا أنفســـهم حيث اتبعـوا فرعـون وسـائر الآلهة من دون الله سـبحانه ، فلم تنصـرهم الآلهة حين نـزل عليهم عـذاب الله ، وكـان أخذ الله شديدا وأليما.

فمن خاف عذاب الآخرة اعتبر بأبناء القرى ، ومن لم يخف يوم القيامة حيث يجمع الناس وتشـهده الملائكة فما عسى تنفعه الآيات والعبر؟

بينات من الآيات :

[96] الأنبياء «عليهم أفضل الصـلاة والسـلام» يـأتون الى الناس لكي يسـتأدوهم ميثـاق فطـرتهم ، ويثـيروا في أنفسهم دفائن العقول. ولا يحتاج الأنبياء الى أن يـأتوا الى النـاس بسـلطان مـبين ، اي معجز خـارق ، ولكنه مع ذلك ترى ان رحمة ربنا سبحانه وتعالى ، تأبى إلّا ان تتم الحجة على العبـاد بصـورة قاطعـة. ولا يعـذبهم الا بعد ان تتم الحجة عليهم كاملة. ولذلك يقول ربنا :

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ**)

ذلك السـلطان كـان الثعبـان الـذي ابتلع حبـال أولئك السـحرة ، مما دعا السـحرة أصـحاب الحبـال ، الى ان يسجدوا الى رب العالمين ، ويؤمنـوا باله موسى وهـارون كما كان السلطان أيضا ، اليد البيضاء التي كـانت لموسى «عليه الصلاة والسلام» معجزة خارقة.

ولكن فرعـون الـذي أرسل اليه موسى والى ملأه الذين أحاطوا به ، رفض الرسالة.

[97] (**إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ**)

اتبع أولئك القوم أمر فرعون الذي كـان يعبد من دون الله ولم يكن امر فرعـون قائما على أسـاس العقل ولا على أساس التجربة ، انما كـان قائما على أسـاس الهـوى والشهوات. وكم يكون الإنسان ظالما لنفسه حين يتبع من لا يتبع إلّا شهواته. فإذ كانت الشهوات هي مقياس الطاعة ، فاولى بك ان تتبع شهواتك من ان تتبع أهواء الآخرين.

المقيـاس في الطاعة للغـير هو ان يكـون ذلك الغـير أكمل عقلا ، وأفضل تجربة. اما إذا كانت أوامـره طائشة ، قائمة على أساس الانعكاســات المرحلية الآنية ، ولم تكن قائمة على خطة عقلانية ايمانية ســـليمة ، فكيف يمكننك ان تطيعه.

يقول ربنا :

(**فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**)

[98] لماذا؟ ..

لأن فرعـون لم يكن يـرى الحيـاة إلا محـدودة باطـار الدنيا ، لم يكن يعلم شيئا عن الحياة الآخـرة ، لـذلك فـان كل أفكـــاره ، وكل قرارته كـــانت خاطئـــة. لان فهمه الاساسي للحياة كان فهما خاطئا.

لذلك تـراه يقـود قومه الضـالين الى النـار ، وبئس ما يقودهم اليه.

(**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَـةِ فَـأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**)

[99] أوردهم في نـــار لا رحمة فيها ولا نعمة فيها ولا راحة فيها ولا نهاية لهـــا. نـــار حرها شـــديد وقعرها بعيد ونورها ظلام والواردون فيها حطبها ووقودها.

بالاضــافة الى العــذاب المــادي المباشر الــذي كــان فرعون سببا له ، عــرض قومه الى عـذاب أخر هو عـذاب السمعة المفقودة ، واللعنة التي ظلت تلاحقهم الى الأبد ، وها هو القرآن نقرأه بعد ألوف السـنين من هلاك فرعـون وقومه ، وهو يلعنهم.

أفليس في ذلك عبرة ..

(**وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً**)

في الحياة الدنيا.

(وَيَوْمَ الْقِيامَةِ)

أيضا ، اللعنة تلاحقهم ، بالاضافة الى العذاب.

(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

تلك كانت الآثار المادية «الورد المورود».

هذه هي الآثار المعنوية «الرفد المرفود».

اذن ينبغي ان لا يطيع أحد امر من لا يرشد بل يغويه ويضله.

[100] (ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ)

هذه القرى التي لا تزال قائمة ، سوف لا تبقى إن كانت ظالمة لنفسها. أما تلك القرى التي حصدت وانتهت ، حصدت كما يحصد الحقل فلا يبقى منها شيء ، تلك القرى ذهبت لتورثنا عبرتها.

عبرة القرى :

[101] عبرة القرى التي حصدت هي ما يقول تعالى في الآية التالية :

(وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)

عبرة تلك القرى ان ربنا سبحانه وتعالى ، وفرّ الحياة الكريمة السعيدة لهم. وفر فرصة الهداية ، وفي المنعطفات الخطيرة التي كانت تهددهم ، أرسل ربنا إليهم المصلحين ، وبذل هؤلاء المصلحون كل ما بوسعهم ، فبشروا وانذروا وحذروا وذكروا

بالآيـات وأثـاروا فيهم دفـائن العقـول .. وكل شـيء كـان بإمكـانهم فعلـوه الا إجبـارهم على الهداية ، فلم يسـتجب أولئك لفرصة الهداية ، فعاندوا وتحدوا واستكبروا وظلمـوا أنفسهم.

وأساس ظلمهم وانحرافهم هو انهم اتبعوا الآلهة التي تعبد من دون الله ، وهـــذه الآلهة لم تغن عنهم في لحظة الحسم وساعة العذاب الشديد شيئا ..

(**فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَـــدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ**)

أمر الله لم يكن مـــدفوعا ولا مرفوعا عنهم بســـبب الآلهة.

(**وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**)

أنما زادت الآلهة الطيب بلة والعـــذاب شـــدة .. هلاكا وتبابا.

[102] (**وَكَـذلِكَ أَخْـذُ رَبِّكَ إِذا أَخَـذَ الْقُـرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**)

وكانت عبرة القصة كلها تتلخص في أمرين :

الاول : ان أخذ الله شـــديد. في قوته ، اليم ي مـــدى تـأثيره ، ولا يجـوز لنا ان نسـتهين بـأوامر الله ، ونسـتخف بعقابه.

[103] (**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**)

الثـاني : ان عـذاب الـدنيا على شـدته وعظيم ألمه ، دليل المؤمنين الى عذاب

الآخرة ، الأشد والآلم.

وإن المـؤمن يهتـدي بما في الـدنيا من ألم الى يـوم الجزاء الأكبر حيث يجمع النـاس ، كلهم ، ويشـهده النـاس والملائكة وعلينا ان نعيش بوعينا ذلك اليوم الرهيب لنتقيه أشد التقوى.

وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) يَـوْمَ يَـأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ فَمِنْهُمْ شَـقِيٌّ وَسَـعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَـقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِـيرٌ وَشَـهِيقٌ (106) خالِـدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّـماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شـاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيـدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُـعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِـدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ

---

106 [زفير وشهيق] : الزفير إخراج النفس من الصدر ، والزفـير ترديد النفس مع الصوت من الحزن ، وأصل الزفير الشدة ، وزفرت النـار إذا سمع لها صـوت من شـدة توقـدها ، والشـهيق ردّ النفس الى الصـدر ، والشهيق صـوت فظيع يخـرج من الجـوف بمد النفس ، وأصـله الطـول المفرط.

وقيل الزفـير أول نهـاق الحمـار والشـهيق آخر نهاقه وهما من أصـوات المكروبين المحـزونين ، والزفـير من شـديد الأنين وقبحه بمنزلة إبقـاء صـوت الحمـار ، والشـهيق الأنين الشـديد المرتفع جـدا بمنزلة صـوت الحمار.

107 [ما دامت] : الدوام البقاء.

108 [مجذوذ] : الجذ القطع.

ما يَعْبُـــدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُـــدُ آبـــاؤُهُمْ مِنْ قَبْـــلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

---

109 [مرية] : الشك مع ظهور الدلالة للتهمة.

عاقبة البشر

بين شقاء النار وسعادة الجنة

هدى من الآيات :

انتهى الـــدرس الســـابق بالتحـــذير من يـــوم القيامة المشهود ، وتأكيدا لذلك يبين هذا الـدرس بـأن تـأخير يـوم القيامة ليس بلا حـدود ، بل هنالك أجل ممـدود ينتهي اليه التـأخير ، فنحن نقـترب اليه على قطـار الـزمن ، وحينئذ يظهر سـلطان الله حيث لا تسـتطيع اي نفس ان تتحـدث الا بـأذن الله ، وينقسم النـاس الى سـعداء وأشـقياء ، أما الأشـقياء فهم بين المـوت والحيـاة في النـار لهم شـهيق وزفير ، بسبب سـوء حـالهم ، ويبقـون في النـار ما دامت السـماوات والأرض ، إلا أن يشـاء الله ، أما السـعداء فهم في الجنة خالدون ما بقيت السماوات والأرض الا ان يشاء الله ، وتلك الجنة عطاء لا ينقطع من قبل الله.

بينات من الآيات :

فمنهم شقي وسعيد :

[104] لماذا يؤخر الله العذاب؟ لأنه سبحانه قد حـدد سلفا أجلا معدودا ،

واعطى بحكمته ورحمته فرصة الابتلاء للناس ضمن هذا الأجل ، فمن آمن وأصلح عمله. نفعه عمله ولم يخش اجله ومن قصر. خسر فرصته التي لا تعود ، ومتى ما استخرج المرء كل ما عنده من قابليات الخير أو الشر. بسبب تطور الزمان ، فانه ينتهي أجل امتحانه ، ولا بد ان يستعد لمغادرة قاعة الامتحان وهي الدنيا الى حيث جزائه في الآخرة.

(**وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ**)

اي لسبب وجود أجل معدود أخرجه الله للبشر في الدنيا.

[105] وإذا جاء ذلك اليوم الرهيب يعم الصمت المهيب ويقف الناس امام ربهم ساكتين ، لا يتكلم أحد الا بأذن الله مما يدل على احاطة سلطان الله عليهم.

(**يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ**)

وينقسم الناس على أنفسهم فريقين شقي استنفذ فرص حسناته في الدنيا فلم يبق له حسنة هناك فتمحض في السيئات بأعماله السيئة فأصبح من أهل النار ، وسعيد من أخلص لله عمله حتى تمحض في الخير فأصبح من أهل الجنة.

(**فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**)

[106] أما جزاء الأشقياء فهم في نار لا يموتون فيها ولا يحيون ، بل يكابدون ألوان العذاب ، ولذلك تراهم يجرون الآهات الخفية حينا بسبب ضعفهم ، والعالية حينا بسبب شدة الألم ، فهم بين زفير وهو أول صوت الحمار ، وشهيق وهو آخر.

(**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**)

[107] ويبقى هؤلاء خالدين في النار ما دامت السماوات والأرض التي تحيط

بالنار من فوق ومن تحت.

(**خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ**)

والسؤال الذي وجهه المفسرون الى أنفسهم هو : لماذا استثنى القرآن بمشيئة الله؟ وتعددت إجاباتهم حولها ، واعتقد ان الجواب الأقرب هو : ان الله يفي بوعده الصادق ولكنه لا يحتم عليه شيء. لا سيما وان عذابه وثوابه للأشقياء ، أما السعداء ، فليسوا بقدر الجريمة بل بالصلاح فحسب ، وأيضا بسبب ارتباط ذلك كله بمقام الربوبية ، فالصلاة لأنها كانت لله فهي ذات ثواب عظيم ، وكذلك ترك الصلاة أصبح عملا قبيحا ذا عقاب شديد بسبب ارتباطه بمقام الله العزيز المتعال. لذلك فهو الذي يحدد مداه وقدره ، ومتى نهايته ، وربما يشير الى ذلك قوله سبحانه :

(**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ**)

[108] اما السعداء فهم في الجنة ما دامت الجنة موجودة بأرضها وسمائها. ولكن مشيئة الله فوق كل ذلك ، فلربما شاءت إرادته التي لا تحد ان يعطي للجنة استمرارا أكثر ليعطي للمؤمنين فرصة أكبر للبقاء.

(**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ**)

ويشير الى هذا المعنى الذي ذكرناه للمشيئة قوله سبحانه.

(**عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**)

اي ان عطاء ربك غير مقطوع.

ولعل ذلك اشارة الى الخلود في الجنة ولكنه لا بمعنى تبدل ذاتي يحصل في

الكـــــون ، فتتحـــــول طبيعته من طبيعة فانية إلى طبيعة خالدة. كلا. بل بمعـنى أن الله شـاء ان تبقى الجنة خالـدة (والله العالم).

[109] بسبب إصرار الكفار على بـاطلهم ، وعنـادهم في ضلالتهم قد يعـتري المـؤمن شك في سـلامة خطهم ، أو وجود نسبة من الحق الى جانبهم. بيد ان ربنا ينهانا عن هذا الشك ، ويأمرنا بعدم الريب في بطلان عبادتهم.

(**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ**)

فعبادتهم باطلة لا ريب في ذلك.

وإنهم يقلدون آباءهم الـذين كـانوا على ضـلالة ، وكما ان الله اعطى جـزاء آبـائهم بـانزال العـذاب عليهم ، فانه سوف يعذبهم أيضا.

(**ما يَعْبُـدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُـدُ آبـاؤُهُمْ مِنْ قَبْـلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ**)

سورة هود

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيـهِ وَلَـوْ لا كَلِمَـةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَـكٍّ مِنْـهُ مُـرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُـوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمـالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112)

فاستقم كما أمرت

هدى من الآيات :

انتهى الدرس السابق موضحا ان المقياس هو الشقاء أو الفلاح في يـــوم البعث ، أما هـــذا الـــدرس فقد جـــاء ليكرس الأيمـان بـالأخرة في واقع الـدنيا ، فنهى الرسـول من الشك في ضـلالة هـؤلاء فيما يعبدونه من آلهة ، وانهم ليســـوا أفضل ممن ســـبق من المشـــركين ، وان الله سيوفيهم جزاءهم العادل دون نقصان.

ومثل هـؤلاء انما هو كمثل الـذين اختلفـوا في كتـاب موسى فأعطـاهم الله فرصة الامتحـان بكلمة سـبقت منه سـبحانه ، ولولاها لقضي بينهم بتأييد الصـادقين منهم ضد أعدائهم. وذلك بسبب شـكهم المـريب في صـدق الكتـاب الذي اختلفوا فيه.

ان هذه الفرصة ليست دائمة بل محدودة بيوم انتهـاء فرصـــتهم ومهلتهم ، حيث يعد عليهم الله أعمـــالهم وهو خبير بها.

وعليك ايها الرسول ان تسـتقيم كما أمـرت ، وعليكم ايها المؤمنون ان تستقيموا

كما أمرتم ، ولا تطغوا فالله بما تعملون بصير.

بينات من الآيات :

فاختلفوا فيه :

[110] لقد انزل الله الكتاب ليختلفوا اليه ، ويجعلــوه قاضيا بينهم ، فاختلفوا فيه ، وحملوه أهـواءهم ، والسـبب انهم لا يؤمنـون حقا بالكتـاب بل بـأهوائهم ، ولو لا ان الله جعل الـــدنيا دار ابتلاء وفتنـــة. إذا لأيد الفريق المـــؤمن بالكتاب وخذل المفسرين له بأهوائهم.

(**وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتـابَ فَـاخْتُلِفَ فِيـهِ وَلَـوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ**)

حيث قضى بتأخير الجزاء يوم البعث ، أو ليـوم انتهـاء مهلة الفاسقين ونصرة المؤمنين عليهم.

(**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**)

اي بأسلوب أخر غير تنزيل الكتـاب الـذي لم ينفعهم ، ولم يوحدهم على الهدى بسبب طغيانهم واتباع أهـوائهم ، والاختلاف في الكتاب دليل الشك فيه.

(**وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**)

[111] والله لا ينظر الى التـــبريرات الـــتي يقـــدمها البشر لأعماله الضـالة ، والتخريجـات الدينية الـتي يتعب نفسه في تركيبها على اهوائه ، وبالتـالي لا يعبأ بالتفسـير الباطل للكتـاب الــذي يخــدع نفسه وذوقه به ، انما ينظر ربنا ســبحانه الى حقيقة اعمالــه. فيوفيه إياها وهو محيط علما بها وبخلفيتها.

(**وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُـــوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمـــالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

ان التاكيـدات المتتالية في هـذه الآية لـدليل على ان البشر يخدع نفسه بالكتـاب كما يخـدعها بغـيره ، وان الله سبحانه يذكره بـأن خداعه سـراب ، وان عمله هو البـاقي وحده.

فاستقم كما أمرت :

[112] ولماذا يختلف الإنسان في الحياة أساسا؟

لأنه لا يرضى بحدوده وحقوقه ، بل يطغى ويحاول ان يتجـاوز حـدوده ، ويعتـدي على حرمـات الآخـرين ، وحين يطغى الفرد يجرف بطغيانه القيم الالهية التي وضعت في طريقه ، ويحـــاول ان يفســـرها حسب اهوائه لكي يجعل قيم السماء جزءا من معاملاته الفاسدة.

من هنا كـان من الصــعب جـدا على النـاس مقاومة ضــغط الأهــواء باتجــاه تفســير الكتــاب حسب اهوائه ، والاســتقامة في خط الكتـاب ، وتكـييف أنفســهم حسب مقاييسه ، وجــاءت كلمة القــرآن حاســمة لتؤكد هـــذه الحقيقة.

(**فاستقم كما أمرت**)

وبعصمة الله ، وبحسن التوكل عليه استقام الرســول ، اما المؤمنــون فــان معضــلات الفتن ضــغطت عليهم ، وحــرفت مســيرتهم ، ولكنهم ســرعان ما تــابوا الى الله فاستقاموا.

(**ومن تاب معك**)

اما سبب الانحراف وتفسـير الكتـاب حسب الأهـواء ، وبالتالي الاختلاف فيه فهو الطغيان.

(**وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

ان علينا ان نتبع هــدى الله دون زيــادة أو نقصــان ... فانه طغيان.

وجـــاء في الحـــديث عن ابن عبـــاس : ما نـــزل على رســول الله آية كـانت أشد عليه ولا أشق من هـذه الآية ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : أسـرع إليك الشـيب يا رسول الله :

«شيبتني هود والواقعة»

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ

---

113 [ولا تركنوا] الركون الى الشيء هو السكون اليه بالمحبة له ، والإنصات اليه ، ونقيضه النفوذ عنه.

114 [طرفي النهار] : صباحا وعصرا ، فان صلاة الصبح في الطرف الأول من النهار وصلاة الظهرين في الطرف الآخر منه.

[وزلفا] : جمع زلفة وهي المنزلة ، والزلف أول ساعات الليل.

116 [أولوا بقيّة] : البقية ما بقي من الشيء بعد ذهابه ، وهو الاسم من الإبقاء ، ويقال فلان بقيّة أي فضل مما يمدح به وخير ، كأنه قيل بقية خير من الخير الماضي.

وَكانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَما كـانَ رَبُّكَ لِيُهْلِـكَ الْقُـرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (117)

[أترفوا] : أي تعوّدوا الترف بالنعيم واللذة وذلك ان الترف عـادة النعمة ، وانما قيل للمتنعم مترف لأنه مطلق له لا يمنع من تنعمه.

لكي نضمن الاستقامة

هدى من الآيات :

تلك كانت قصص الظالمين من عـاد وثمـود وأصـحاب الأيكة و.. و، وتلك كـانت نهـايتهم الأليمة بينها القـرآن في الـدروس السـابقة ، وفي هـذا الـدرس بالـذات يـبيّن لنا الموقف السليم ، كما يبين العـبرة من الـدروس السـابقة ومن نظائرهم والذي يتلخص في :

أولا : حرمة مودتهم وطاعتهم ، وبالتـالي منع الركـون إليهم لكي لا يحرق الراكن إليهم بنارهم ، فلا ينصره الله ، ولا يكون منتصرا من قبل غير الله.

ثانيا : الاسـتعانة بالصـلاة والصـبر وانتظـار الفـرج الموعود من الله.

ثالثا : تشكيل جبهة من الصـالحين الـذين لم يفسـدوا بالنظام المنحرف ، والاعتماد عليها في مقاومة الفساد.

ويبين القرآن : ان ما يقود الظـالمين في حيـاتهم هي النعم الوافرة الى أترفوا فيها ،

ويجرمـون بحق النـاس من أجلها ، ويفسـدون في الأرض غــرورا بها ، والله لا يهلك قرية صــالحة ـــ حاشا ربنا عن الظلم ـ انما يهلكهم لفسادهم.

بينات من الآيات :

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا :

[113] ليس الظـالم وحـده مجـرم في المجتمـع. بل الساكتون عنه أيضا مجرمـون ، والمتعـاونون معه شـركاء في الظلم ، والله سبحانه ينهانا عن الركون الى الظالمين بـــالمودة القلبية ، وتقـــديم المشـــورة الفكرية لهم ، أو طـاعتهم ودعمهم ماديا ، لأن كل ذلك سـوف يسـبب في اشـــتراكنا معهم في الجريمة ، وبالتـــالي نيل نصـــيبنا من العذاب الذي إذا جاء عم الجميع.

(**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**)

والركـــون ضد النفـــور وهو الســـكون الى شـــيء ، والاعتماد عليه عن رضا. لذلك يجوز السكوت عن الظـالم ظاهرا ، تحينا للفرصة المناسبة للإطاحة به.

(**وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ**)

ان المجتمع الذي يسـكت عن الظلم ، أو يسـكن الى من يمـــــارس الظلم بحقه لا يجد وليا ولا نصـــــيرا لا في الأرض ولا في الســـــماء ، فلا الله ينصر هـــــذا المجتمع الراضي بـالظلم لأنه يـأمره بـالتمرد على الظـالمين ، ولا أوليـاء الله الــذين ينتظــرون تحــرك المستضــعفين ضد الظلمة حتى يتدخلوا الى جانبهم أما ان يحاربوا بديلا عنهم فلا ولا كرامة.

(**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**) :

[114] ولكي نقـاوم إغـراء السـلطة والـثروة اللـتين يعتمد عليهما الظالمون ، ونقاوم

ضـغوطهما الشـديدة ، ولكي تبقى نفوسـنا صـامدة امـام تضليل الظـالمين ، ونمتلك ثقة بقـدرتنا على تحـديهم ، بل وأيضا لكي نسـتعيد ثقتنا بأنفسـنا بعد ان ضـيعها الطغـاة بـأعلامهم وارهـابهم ، ونكفر عن الـذنب العظيم الـذي ترتكبه عادة الجماهير المستضعفة ، وهو يأسـهم من روح الله ، وتـأليههم للطغـاة الظـالمين ، واعتقـادهم بـأنهم لا يقهرون. لكل ذلك لا بد ان نسـتعين بالصـبر والصـلاة. كما قـال ربنا سـبحانه في سـورة البقـرة :

(**وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّها لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ**) (45 / البقرة).

ذلك لان الصـلاة تربط العبد بربه وتعطيه الطمأنينة وتحفظه عن السيئات.

(**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ**)

اي الصـباح قبل طلـوع الشـمس ، وبعد انبلاج الفجر الذي هو أول النهار ، وأيضا بعد الظهر حين يصلي المسلم صلاتي الظهر والعصر.

(**وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ**)

اي بعد ان يمضي وقت من الليل ، وهي صـلاة المغرب والعشاء اللتين قال عنهما رسول الله (ص):

المغرب والعشاء زلفى الليل

وهكذا يبقى على المؤمن ان يصـلي في ثلاث أوقـات خمس صـلوات كما قـال سـبحانه في آية اخـرى : (**أَقِمِ الصَّـلاةَ لِـدُلُوكِ الشَّـمْسِ إِلى غَسَـقِ اللَّيْـلِ وَقُـرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً**) (78 / الإسراء)

وهذه الصلوات تذهب بالسيئات ، فاذا لم يـركن قلبك الى الظـالم ، ولا أعنته فـان صـلاتك اليومية سـوف تعيد إليك إيمانك المفقود وتذهب بالآثار السلبية الباقية في

قلبك من تأييدك للظالم.

(**إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ**)

ولكن ليس كل صلاة تذهب بالسيئة ، بل الصلاة الـتي تتخذ ذكرى ومـادة لتطهـير القلب من الغفلـة. اما الصـلاة التي أصبحت عادة ، أو الصـلاة ريـاء وسـمعة فانها لا تنفع شيئا. لذلك قال ربنا :

(**ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ**)

وجاء في الحديث المـأثور عن النـبي (ص) عن معـنى الآية :

أرجى آية في كتـــاب الله (**وَأَقِمِ الصَّــلاةَ طَــرَفَيِ النَّهارِ**) ..

ثم قرأ الآية كلها ثم قال لعلي (ع):

«**يا علي! والذي بعثني بـالحق بشـيرا ونـذيرا! إن أحــدكم ليقــوم من وضــوئه فتتســاقط عن جوارحه الذنوب ، فـاذا اسـتقبل الله بوجهه وقلبه لم ينقلب وعليه من ذنوبه شـيء. كما ولدته امه ، فـان أصـاب شيئا بين الصلاتين كان له مثل ذلك من عد الصلوات الخمس ، ثم قـــال : يا علي! انما منزلة الصـــلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحـدكم. كما يظن أحدكم لو كان في جسـده درن ، ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مـرات ، أكـان يبقى في جسـده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي**» [1]

[115] وكما أن الصلاة تعطي قــدرة على المقاومة ، وحصانة كافية ضد التأثر بسلبيات النظام الفاسد ، فكذلك الصبر وتحمل الصعاب. انتظارا للمستقبل حيث لا

---

(1) نور الثقلين ج 2 ص 401

يضيع الله أجر المحسـنين ، وهـذا هو جـوهر الصـبر. حيث ان الثقة بأن العمل الصالح يسـتتبع الجـزاء الحسن عـاجلا أم أجلا انما تسلي النفس عن الشهوات وعلى الصعوبات.

(**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**)

[116] والمقاومة تهـدف ـــ فيما تهـدف ـــ إيجـاد مجموعة من المؤمـنين يكونـون تيـارا رافضا للأنظمة الفاسدة (حنيفا مسلما).

(**فَلَـوْ لا كـانَ مِنَ الْقُـرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُـوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ**)

اي لم تبق الا مجموعة باقية لم تفسد من أبنـــاء المجتمع. لان عملهم كان هو النهي عن الفساد ، ومقاومة الانحراف.

(**إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ**)

لقد كـانت هنالك فعلا مجموعة بسـيطة من هـؤلاء أنجاهم الله سبحانه ، بينما أهلك الله الآخرين.

(**وَاتَّبَـعَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا ما أُتْرِفُـوا فِيـهِ وَكـانُوا مُجْرِمِينَ**)

كيف فسد الظالمون؟

لقد اغـتروا بتلك النعمة الـتي وفرها الله لهم ، حـتى اتبعوا مسيرة تلك النعمة ، وضيعوا أنفسهم ، وتوحي هـذه الآية بأن فساد الناس بالنعمة إنما يتم بسبب ظلم النـاس لبعضهم البعض ، وتقدمهم على صفوف الآخـرين ، كما ان نوع الفساد يرتبط بنوع النعمة المتـوفرة لـديهم ، ففسـاد الثروة غير فسـاد القـوة أو فسـاد العلم ، والفسـاد يـؤدي الى الجريمة وهي الاعتـداء الصـارخ على حقـوق النـاس ، والانتهاك العلني للقيم

والحرمات.

[117] وحين يعم الفساد يهلك الله القوي ، ولكن إذا تحركت اولو بقية من أهل القرى في طريق الصلاح ، فان الله سيرحمهم.

(**وَما كــانَ رَبُّكَ لِيُهْلِــكَ الْقُــرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ**)

أما إذا فسدت القرية الا قليلا ممن عصمهم الله فـان الله سوف ينقذ هؤلاء ، ثم يهلك الآخـرين ، كما فعل بعـاد وثمود.

وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِـدَةً وَلا يَزالُـونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـــــذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَـــــةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُـلِ ما نُثَبِّتُ بِـهِ فُـؤادَكَ وَجـاءَكَ فِي هـذِهِ الْحَـقُّ وَمَوْعِظَـةٌ وَذِكْــرى لِلْمُــؤْمِنِينَ (120) وَقُــلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُــونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123))

---

120 [نثبّت] : التثبيت تمكين إقامة الشيء من الثبوت.
[فؤادك] : الفؤاد القلب.

وجاءك في هذه الحق

هدى من الآيات :

في نهاية سورة هـود يجيب القـرآن الحكيم على هـذا السـؤال : لمـاذا الصـراع؟ ألم يكن ربنا قـادرا على توحيد النـاس؟ فيقـول : بلى ، ولكن الـدنيا دار عمل وانتظـار ، وسـيبقى النـاس مختلفين ــ إلّا من رحم الله فهـداه الى صراط مستقيم ــ والتـاريخ صـورة لهـذا الصـراع الممتد ، والله يقص علينا من أنباء الرسل ليثبت بها قلب الرســول وقلــوب المؤمــنين ، وليوضح الحق ، وليلقي بالمواعظ ، وليـذكر المؤمـنين ، فالله قد اعطى في دار الابتلاء فرصة لكل النــاس ، ليعملــوا ، والمؤمنــون بــدورهم يعملــون ، ولينتظر الجميع.

والله محيط علما وقـــدرة بغيب الســـماوات والأرض وبما في مستقبل الأشياء وبحاضـرها أيضا ، فعلينا أن نعبد الله ، وأن نتوكل عليــــــــه. فالله ليس بغافل عما يعمله الناس ، فعلمه وقدرته محيطة بما يعملون.

وهكذا ينهي القرآن سورة هود ببيـان ضـرورة التوكل على الله ، وقد دارت أكثر

آياته حول هذا المحور العام.

بينات من الآيات :

سنة الصراع :

[118] الصراع سنة الحياة التي يجب البحث أبدا عن سبل انهائه ، ولكن لا ينبغي السأم منه ، أو الالتفات حوله خشـــــية مجابهته ، فهو كـــــالموت المعلق يمكن تجنبه ، كالتخلف والمـرض ، وكـالفقر وككل المشـاكل الحضـارية للبشرية الـتي يجب السـعي من أجل تخفيف ووطأتها أنى استطعنا من دون السأم منها.

(**وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً**)

فلو شــاء الله لخلق النــاس مؤمــنين منذ البــدء كما خلقهم خلقا سـويا ، فجعل لهم عيـنين ولسـانا وشـفتين ، ولكنه اركز فيهم قـوتين مختلفـتين (**وَهَـدَيْناهُ النَّجْـدَيْنِ**) وكلفهم باقتحام العقبة بأنفسهم (**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**).

(**وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ**)

دون ان يكــــــــون الاختلاف مطلوبا من الله ، ولكن ضـعف العقل الـذي لم يقسم بين العبـاد أقل منه ، وقـوة الشـــهوات الـــتي زينت لهم كل ذلك يكرســـان الاختلاف فيهم.

[119] ويبقى النــاس مختلفين الا الـذين رحمهم الله بهـداه فـانتفعوا به ، واعتصـموا بحبله جميعا ، فـألف بين قلـــوبهم بدينه ونـــوره ، لو أنفقنا ما في الأرض جميعا ما ألفنا بين قلوبهم.

إذا فالوحــدة هـدف إنسـاني سـام يسـعى من أجله البشر ، وهو في ذات الوقت

غاية الخليقة ، فالله لم يخلق الناس ليعذبهم بل لـيرحمهم ، ويجعل بعضــهم اخــوة بعض ، ولكنه ســبحانه حملهم مسئولية تحقيق هذا الهدف التشريعي السامي بعد أن هيأ لهم كلّ أسباب تحقيقه. من رسل وقادة وكتب وشرائع.

(**إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ**)

أما إذا استمروا في ضلالتهم ، وخالفوا الشـريعة فـإن الله ســوف يعــذبهم عــذابا شــديدا لأنهم لم يتحملــوا مسئوليتهم.

(**وَتَمَّتْ كَلِمَـــــــــةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)

إذا الصــراع طبيعة اولوية ، والوحــدة غاية تشـريعية ، والاختلاف واقع فاسد يجب إزالته ، والا فالنار جــزاء آت لا ريب فيه.

شهادة التاريخ :

[120] والقصص التي تليت من صراع الحق والباطل عــبر تــاريخ الأنبيــاء وقــومهم الضــالين جــاءت لتؤكد هــذا الصراع ، وتعطينا قدرة على احتمال صعوباته.

(**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْـكَ مِنْ أَنْبـاءِ الرُّسُـلِ ما نُثَبِّتُ بِـهِ فُؤادَكَ**)

وأنباء الرسل تؤكد أيضا على إن الرســالة حق ، وانها منتصــرة فعلى البشر أن يعمل بها ، وأن يستشــير عقله بذكراها.

(**وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُ**)

أيّ جاءك في هذه الأخبار من تاريخ الرسالات كلمات الحق.

(**وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**)

خلاصة السورة :

[121] والتاريخ يعيد نفسه. ذلك لأن سنن الله واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل ، ولذلك فان الزمن يمر في صالح الرسالة.

(**وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ**)

أيّ اعملوا على طريقتكم.

(**إِنَّا عامِلُونَ**)

[122] (**وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**)

فنحن واثقون من إن الحق منتصر ، وان صراع الحياة سوف يختم في صالحنا بإذن الله.

[123] وفي هـذا الصـراع الممتد عـبر التـاريخ يـتزود الرســاليون بالإيمــان الصــادق بالله ، وبأنه محيط علما ومقدرة بما في غيب السماوات والأرض ، وان إليه مصير الأمور ، فهو مالك سره وخبيئته ، وهو مالك مصيره.

(**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْـرُ كُلُّهُ**)

من صـغائر الأمـور وكبائرها ، ومن وحي هـذا الإيمـان يـــأتي إخلاص العبودية والطاعة لله ، وأيضا التوكل عليه والعمل من أجله.

(**فَاعْبُــدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْــهِ وَما رَبُّكَ بِغافِــلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

قال النبي محمد (ص):

«**علموا أرقّائكم سـورة يوسف فأنه أيما مسـلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هـوّن الله تعـالى عليه سـكرات المـوت وأعطـاه القـوّة أن لا يحسد مسلما**»

(مجمع البيان ـ ص ـ 206 ـ الجزء ـ 5 ـ)

عن أبي عبد الله (ع) قال :

«**من قـرأ سـورة يوسف في كل يـوم وفي كل ليله ، بعثه الله يـــوم القيامة وجماله على جمــال يوسف ، ولا يصـيبه فـزع يـوم القيامة ، وكـان من أخيار عباد الله الصالحين**»

(نور الثقلين ـ ص ـ 409 ـ الجزء ـ 2)

عن أمير المؤمنين (ع) قال :

«**لا تعلّمــوا نســاءكم ســورة يوسف ، ولا تقرؤوهن إيّاها ، فان فيها الفتن ، وعلّموهن سورة النور فان فيها المواعظ**»

(نور الثقلين ـ ص ـ 409 ـ الجزء ـ 2 ـ)

الإطار العام

الاسم : تكـاد قصة يوسف تعم هـذه السـورة الـتي سميت باسمه ، بحيث لا تدع مجالا للسؤال :

لماذا الاسم؟

الموضـوع : معانـاة الرسل الشـديدة في الحيـاة ، وتحـديهم للضـغوط المختلفة ، انها معـراجهم الى حمل رسـالة الله الى الأرض ، وفي قصة يوسف بيـان تفصـيلي لأنـواع من المعانـاة الـتي تمخضت عنها شخصـية يوسف الرسالية ، التي كـانت في الأصل مختـارة لهـذا المنصب ، وذلك بسـبب خصـاله الذاتية ، ولكن بعد المعانـاة الـتي كانت بمثابة التدريب العملي له.

أهداف القصة في القرآن :

الرسول ـ كأي بشر ـ غافل عما في الرسالة من ذكر وبصائر ، استثارة للعقل فينزل الله آيـات الكتـاب واضـحة وموضحة «قرآنا عربيا» يهدف دفع الناس باتجـاه التفكـير والعقل ، ويسـتفيد القـرآن من القصص التاريخية النافعة والجذابة في هذا المجال لتكون أقـرب الى مـدارك البشر فيذكر بها فيما هو غافل عنها.

سورة يوسف مكية وهي

مائة واحدى عشر آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْـكَ آيـاتُ الْكِتـابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْـكَ أَحْسَـنَ الْقَصَـصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ هـذَا الْقُـرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (3)

أحسن القصص

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كل شـيء قـائم باللـه. وكل شـخص حي بالله ، وكل تقـدم وتكامل يتحقق باسم الله ، وبتنفيذ بـرامج الرسـالة التي أوحى بها الله. وتكامل شخصـية الرسل يكـون باسم اللـه. ذلك لأنه لو لا التوكل على الله لما اسـتطاع الرسل التغلب على مشاكل الحياة ..

الهدف من الكتاب :

[1] [2] (**الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ**)

لقد انزل الله الكتاب الذي يبيّن أحكـام الله ، ومنـاهج الرسالة. (واي الكتاب هي هذه الألف واللام والراء ـ الـتي ترمز إليها) أنزله الله ليقرأ على النـاس ، ويقـرؤه النـاس بلغتهم العربية ، التي تعـرب عما في ضـمائرهم بوضـوح ، والهدف من الكتاب

أن يكون مساعدا لعقل البشر ، مثيرا لدفائنه.

(**إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

[3] والله يلقي الضوء على بعض الأحداث التاريخية ، ويقصــها علينا باعتبارها أحسن القصص ، وأكثرها فائـــدة للناس ، والوسيلة هي الوحي الذي لــولاه لبقي البشر في ضلال بعيد ، وغفلة شاملة.

(**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**)

أي القصص الحسنة ، وبأسلوب حسن أيضا.

(**بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُـرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ**)

الرسول ـ لولا رسالة الله وهدايته ـ واحد من البشر ، وهذا بالـذات سـرّ عظمة الرسل لأنهم متصـلون مباشـرة بالله سـبحانه ، ولـذلك يبقى الرسـول غـافلا حـتى يأتيه الــوحي ، كما يبقى البشر غــافلا ، ناســيا لما عنــده من مواهب معنوية ومادية حتى يهديه الله بالرسول.

سورة يوسف

إِذْ قـالَ يُوسُـفُ لِأَبِيـهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَـدَ عَشَـرَ كَوْكَبـاً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سـاجِدِينَ (4) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُـصْ رُؤْيـاكَ عَلى إِخْوَتِـكَ فَيَكِيـدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْـكَ وَعَلى آلِ يَعْقُـوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْـكَ مِنْ قَبْلُ إِبْـراهِيمَ وَإِسْـحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) لَقَـدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قـالُوا لَيُوسُـفُ وَأَخُـوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْـبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ

---

6 [يجتبيك] : الاجتباء معالي الأمور للمجتمعين.

7 [آيات] : عبر.

8 [عصبه] : العصبة الجماعة الـتي يتعصب بعضـها لبعض ويعين بعضـها بعضا.

أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (9) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (10)

---

9 [اطرحوه أرضا] : ألقوه في أرض بعيدة.
[يخل لكم وجه أبيكم] : تخلص لكم محبة الأب ، وتملكون قلبه.
10 [غيابت الجبّ] : الجب هو البئر وانما سمي البئر جبّا لأنه قطع عنها ترابها حتى بلغ الماء من غير طي ومنه المجبوب ، وكل ما غاب شيء عن الحس بكونه فيه فهو غيابة ، فغيابة البئر شبه لحف أو طاق فوق ماء البئر.
[السيارة] : الجماعة المسافرون ، سمّوا بذلك لأنهم يسيرون في البلاد ، وقيل هم مارّة الطريق.

رؤيا تبشر بالمستقبل

هدى من الآيات :

ما هي أحسن القصص الــــتي تثـــــير العقل ، وترفع حجاب الغفلة والتي بشرت بها آيات الدرس السابق؟

ها هي قصة يوسف واحـــدة من أحسن القصص وهي أطـول قصّـة قرآنية ذكـرت جملة واحـدة عن قصّ يوسف رؤيـاه على والـده يعقـوب (ع) كيف رأى في المنـام أحد عشر كوكبا ، والشــــمس والقمر يســـجدون له جميعا ، ففسره والده رأسا بـان الله سـوف يصـطفي يوسـفا من بين إخوته ليكون وارثا لرسالة الله التي أتاها الله من قبل ـ إبـراهيم وإسـحاق ـ وليكـون فاتحا لعهد جديد في حيـاة الأســـــرة بفضل نعم الله التامة عليه ، وليكــــــون عالما بعــواقب الأمــور وبــالوحي ، ولكم حــذّر يعقــوب يوسف عليهما السلام من نقل رؤياه لأخوته من قبل ان يفســرها له لأن الشيطان عدو مبين للإنسـان ، فيـدفع اخوته ضـده بخطط السوء.

ان حسد اخــوة يوسف كــان ســابقا لرؤيــاه. لــذلك جلسوا يتآمرون ضد سلامته

وقـــالوا : (**إِنَّ أَبانا لَفِي ضَـــلالٍ مُبِينٍ**) حيث يحب أخانا الأصغر يوسف بينما يتركنا نحن الكبار المتحدين مع بعضنا ، فلا بد إذا من التخلص من يوسف بقتله أو نفيه عن هـذه الأرض ليبقى لهم وجه أبيهم خالصا دون منافسة يوسف ، وحنّ قلب واحد منهم ، ونصحهم بـألا يقتلـوه بل يرمـوا به إذا أرادوا به شرّا في غيـابت الجب لتلتقطه بعض القوافل السيارة في ذلك الطريق.

بينات من الآيات :

الرؤيا بصيرة المستقبل :

[4] كـــان يوسف الثـــاني عشر من أبنـــاء يعقـــوب (إســـرائيل) وهو حفيد إبـــراهيم الخليل ، وأبن إســـحاق ، وكـان بـالرغم من صـغر سـنه الأكفـاء بين أخوته ، ولـذلك أختاره الله ليكون وريث الرسالة إذ ان.

«**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ**»

وقــام ذات صــباح مســرعا الى أبيه يقصّ عليه خــبر رؤياه العجيبة. وهو آنئذ غلام مراهق مضى من عمره أثنى عشر ربيعا.

مـــاذا رأى؟ رأى أحد عشر كوكبا كما رأى الشـــمس والقمر ، ثم كـــانت دهشـــته كبـــيرة حين رآهم كـــأنهم يسجدون له.

(**إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَـرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ**)

[5] أول نصـيحة قـدّمها يعقـوب لابنه وقبل ان يفسر رؤياه هي التحذر من أخوته الّا يحسدوه.

(**قـــالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُـــصْ رُؤْيـــاكَ عَلى إِخْوَتِـــكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً**)

أي يدبروا لك سوء ، والسبب أن نوازع الشر موجودة لدى البشر ، والشيطان يدغدغ هذه النوازع ليثيرها.

(**إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**)

ولان يوسف الأخ الأصغر لأخوته ، ولأنه من أم أخرى يقال ان أسمها (راهيل) وقد توفيت ، وكان يحن عليه أبوه لتعويضه عن الحنان الأمّي المفقود فكان الجو مهيا لتنامي الحسد فيهم. لذلك حذر ، منهم يعقوب.

وجاء في حديث ان تظاهر يعقوب بحب يوسف كان السبب في إثارة أخوته عليه ، بينما المفروض ان يخفي الأب شدة حبه لأحد أولاده عن أنظار الآخرين لكي لا يحسدوه وربما كان في تظاهر يعقوب في حبه لابنه يوسف احترامه للخصال الكريمة التي كانت عنده ، وذلك بهدف تشجيع الآخرين على التحلي بها.

على العموم كان يعقوب يعرف مدى حسد أخوة يوسف تجاه أخيهم النّابة ويتحذر من اثارة الحسد.

[6] ثم فسر يعقوب رؤيا يوسف ، وبيّن أنها تدل :

أولا : على ان الله سوف يصطفى يوسف ، ويرزقه علما بعواقب الأمور التي سماها بتأويل الأحاديث. أي معرفة ما يئول اليه الأحاديث ـ وكيفية جريانها.

ثانيا : أنه سوف يتم نعمته عليه بنصرته على أعداءه كما فعل بآبائه الصالحين.

(**وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

يعلم ما يخفيه النـــاس وما يظهرونه من نيّة وعمـــل. فيـؤتيهم بصـلاح نيّـاتهم وأعمـالهم. لـذلك فهو قد اجتـبى يوسف بحق ، وبقية القصة تدل على ذلك.

[7] لقد كان في قصص يوسف. وقصص أخوته الذين كادوا له في البدء ثم تابوا وأصلحوا ـ كـان للنـاس ـ فيها آيات تهديهم الى طبيعة الإنسان في كبوته أمام الشـهوات ، ثم تعرضه للآلام ، وأخـــيرا توبته وإصـــلاح نفسه ، ولكن هذه العـبرة ليست لكل النـاس بل للسـائلين منهم الـذين يبحثون عن الحقيقة لإحساسهم بمدى الحاجة إليها.

(**لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ**)

فما هي تلك الآيـات؟ سـوف نجد نـوعين من العــبر التاريخية في قصة يوسف وأخوته.

الأولى : ان العاقبة للمتقين ، وهذا النوع يتبيّن لنا في نهاية القصة فقط.

الثانية : آيـات تكشف نفسـيّة البشر ، وطبيعة القـوى المتناقضة في ذاته ، وكيف يعين الله عبـاده في الأوقـات الحرجة ، وما أشبه من العبر التي تستوحى من اللحظـات الحساسة في القصـة. لـذلك علينا أن نلاحظ في تـدبرنا لقصة يوسف هذين النوعين من الآيات المفيدة للسائلين.

المؤامرة :

[8] جلس أخـوة يوسف يتـآمرون وقـالوا : ان يوسف وأخـــاه من أمه أحب الى قلب أبينا منا ، بينما نحن أكـــثر عددا منهم ، وينبغي ان نكون نحن الـوارثين لأمجـاد أبينا ، فأبونا إذا في ضلال مبين.

(**إِذْ قــالُوا لَيُوسُــفُ وَأَخُــوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

قــال بعض المفســرين ما يلي : أي في ذهــاب عن طريق الصــواب الــذي هو العــدل بيننا في المحبة ، وقيل معنـاه : أنه في خطأ من الـرأي في أمـور الأولاد والتـدبير الدنيوي ، ونحن أقوم بأمور مواشيه وأمواله وسائر أعماله ، ولم يريــدوا به الضــلال عن الــدين لأنهم لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا ، وذلك خلاف الإجماع [1]

ويبــدو ان الضــلال المقصــود انما هو الضــلال عن الطريق القويم في معاملة أبنائه.

[9] وإذا كــان الأب في ضــلال فلا بد أن يعارضــوه ويقــاطعوه ، ولكنهم كــادوا ليوسف ــ أخيهم الــبريء ــ وتآمروا على أن يقتلوه ، أو ينفوه في ارض بعيـدة يمـوت فيها.

والسبب : ان منطلقهم الفكري كان (العنصرية) التي اوحت إليهم بأنهم ما داموا عصبة فهم أفضل من غيرهم ، وهـذا هو منطق القـوة الـذي يتكلم به كل الطغـاة ، وإذا كــان اخــوة يوسف يقيّمــون أنفســهم وفق المقــاييس الرسالية لعرفوا بـأن صـفات يوسف الرسـالية أحسن من صفاتهم ، فهو أحقّ بحب والدهم منهم لذلك قالوا :

(**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْـلُ لَكُمْ وَجْـهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ**)

ان اخوة يوسف حاولوا الجمع بين الدين والـدنيا ، بين الحق والباطل ، فمن جهة أثــارهم حســدهم ونظــرتهم العنصرية الى أنفسهم. نحو قتل أخيهم البريء ، ومن جهة

---

(1) مجمع البيان الجزء الخامس / ص 212

ثانية فكروا في أن يصبحوا صالحين في يوم من الأيام.

[10] وأدرك أحدهم حنان الأخوة.

(**قـالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُـوا يُوسُـفَ وَأَلْقُـوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ**)

غيابت الجب شبه طاق فوق مـاء البـئر ، ويقـال : ان قائل هذا القول هو (لاوي) من أخوة يوسف ، ويقـال : انه كبـيرهم الـذي رفض مواجهة أبيه عند ما أخذ أخـاهم منهم عند ما اتهمه يوسف بالسرقة خدعة ، وهكذا انصرفوا عن قتل يوسف. واجمعوا على أن يجعلـوه قريبا من البـئر في الصحراء ليأخذه بعض المارة لقيطا.

وهؤلاء اخوة يوسف الذين تآمروا عليه حرموا النبوة ، بالرغم من توبتهم أخيرا ، وأنهم الأسـباط الـذين انحـدرت من نسـلهم الأنبيـاء ذلك لان النبـوة لا تعطى لمثل هـؤلاء الـذين يقومـون بمعاصي كبـيرة في حيـاتهم ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

قـالُوا يا أَبانا ما لَـكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُـفَ وَإِنَّا لَـهُ لَناصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَـعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَـهُ لَحـافِظُونَ (12) قـالَ إِنِّي لَيَحْـزُنُنِي أَنْ تَـذْهَبُوا بِـهِ وَأَخـافُ أَنْ يَأْكُلَـهُ الـذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْـهُ غـافِلُونَ (13) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُـوا أَنْ يَجْعَلُـوهُ فِي غَيـابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْـهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِـأَمْرِهِمْ هـذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (15) وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُـونَ (16) قـالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْـتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُـفَ عِنْـدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُـؤْمِنٍ لَنا وَلَـوْ كُنَّا صـادِقِينَ (17) وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِـدَمٍ كَـذِبٍ قـالَ بَـلْ سَـوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (18)

---

11 [لا تأمنّا] : لا تثق بنا.

مؤامرة الحاسدين

هدى من الآيات :

واحكمـوا الخطة ، وجـاؤوا الى أبيهم ليلا طـالبين منه أن يبعث معهم يوسف في الصــباح ليتمشــوا وليلعبــوا ، وتساءلوا لماذا لا يــؤمّنهم على يوسف أو ليسا أخوته وهم له ناصحون؟! فقال يعقوب ان غياب يوسف يثير حــزني ، كما يثير خوفي من الحاق ضرر به. كأن يأكله الــذئب حين تغفلـون عنه ، ولكنهم أصـروا على طلبهم ، وتعهـدوا بـألّا يغفلـوا عنـه. كيف وهم جماعـة؟! ان ذلك فقـدان لعـزّهم وكرامتهم ولعصبتهم ، فلما ذهبوا به الى الصحراء أجمعـوا أمرهم على ان يجعلوه في طرف البئر من داخلها وجـاءه الوحي يخبره بأنه سوف يتغلب عليهم ويذكرهم بهذا اليوم في الوقت الذي لا يشعرون.

وتأخروا في العودة حتّى جن الليل. وتصـايحوا بالبكـاء وادّعوا لأبيهم أنهم راحوا يتسابقون وتركوا يوسف يحـرس متاعهم ، فلما عادوا وجدوا الـذئب قد أكل أخـاهم وجـاؤوا بقميص يوسف عليه دم كـذب ، ولكن الــدم كشف كـذب أحدوثتهم ، فقال

يعقوب لهم كلا .. ان ذلك أمر سوّلته لكم شهواتكم فانني أصبر صبرا لا جـزع فيه ، ولا خـروج عن القيم ، وأسـتعين بربي في دفع المكارة.

بينات من الآيات :

[11] جاء اخوة يوسف الى أبيهم وطرحوا عليه سؤالا محرجا.

(**قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَـهُ لَناصِحُونَ**)

يبـدو ان يعقـوب كـان يخفي عنهم علمه بحسـدهم ليوسف لكي لا يسبب ذلك إعطـاء شـرعية لهـذا الحسد ، ولكن كان يباشر أمور ابنه الصغير بنفسه ، ولا يـدعها عند إخوته ــ ومن هنا كـان السـؤال محرجا ــ إذ أدّعى أخـوة يوسف ان قلوبهم صافية تجاه أخيهم!

وعلى نبي الله الذي جـاء رحمة لعبـاده ألّا يقـول لمن القى اليه السـلام لست مسـلما. لهـذا رد عليهم يعقـوب بلطف ، ولم يقل أنه لا يثق بهم ـــ وهو لم يكن يثق بهم فعلا ــ.

[12] ثم بعد ان هيـؤوا الجو طـالبوا أبـاهم بـأن يثبت لهم عن حسن ظنه بهم ، ويبعث بيوسف معهم في اليـوم الثـاني ليفرّجـوا عن همهم ، ويتمشـوا في الصـحراء وليلعبوا.

(**أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**)

ثم أكدوا له أنهم سوف يتولون حراسته وحفظه.

(**وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**)

[13] فـبرّر يعقـوب عليه السـلام إبقـاء يوسف عنـده لأنه شيخ كبير ، يستأنس

بيوسف ، ويحزن لغيابه عنه ، كما قـال : بأنه يخشى عليه من الذئب ، وبين لهم أنه قد يحدث ذلك وهم عنه غافلون ، فلا يمكنهم الوفاء بوعدهم لعدم قدرتهم على ذلك.

(**قـالَ إِنِّي لَيَحْـزُنُنِي أَنْ تَـذْهَبُوا بِـهِ وَأَخـافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ**)

جاء في الحديث ان اخـوة يوسف لم يخططـوا لأبعـاد المـؤامرة جميعا ، بيد أن يعقـوب عليه السـلام أعطـاهم بأقواله تبريرا لفعلهم ، فعرفوا أن المنطقة يرتادها الذئاب ، وأن بامكـانهم ادعـاء الغفلة ــ وهكـذا ــ مما يـدل على ضرورة التحذر في الحديث مع الكاذب.

[14] عادوا وأكـدوا بشـرفهم وبعصـبتهم انهم سـوف يحـافظون على يوسف ، وقـالوا كيف نسـمح لأنفسـنا ان يتلطخ شـرفنا بهـذا العـار ، فلا نسـتطيع ان نحافظ على أخينا الصغير من الذئب انها خسارة لسمعتنا الغالية.

(**قــالُوا لَئِنْ أَكَلَــهُ الــذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْــبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ**)

[15] فـــذهبوا بيوسف وأجمعت إرادتهم وعـــزائمهم على أمر واحد هو جعله في داخل البـئر. دون ان يلقـوه في مائها ليغـــرق ، بل ليلتقطه بعض السـيارة ـــ كما أوصاهم أخوه لاوي ـ.

(**فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُـوا أَنْ يَجْعَلُـوهُ فِي غَيـابَتِ الْجُبِ**)

هناك أدركته رحمة ربه حيث جاءه الوحي يبشـره بأنه منصور ، وانه سيأتي يوم بعيد تكون الأيام قد أنست هؤلاء فعلتهم القبيحة ، فيخبرهم يوسف بهذا الأمر الفضـيع وهم لا يشعرون.

(**وَأَوْحَيْنا إِلَيْــهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِــأَمْرِهِمْ هــذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

وبــــالرغم من ان محنة يوسف قد ابتـــدأت منذ تلك اللحظة إلّا ان يد الغيب هرعت اليه لتكون بديلا عن حماية اخوته الخائنين به ، وهكذا تشتد الأمور لتنفرج بـإذن الله ، ويأتي بعد العسر يسر من فضل الله.

جا في الحديث عن الامام الصادق (ع) قال :

«لما القى اخـــوة يوسف في الجب نـــزل عليه جبرائيل فقـال له : يا غلام! من طرحك هنا فقـال : اخوتي لأبي لمنزلتي من أبي حسدوني ، ولذلك في الجب طرحـوني ، فقـال : أتحب أن تخـرج من هـذا الجب؟

قال : ذلك إلى إله إبراهيم وإسـحاق ويعقـوب ، فقــال له : جبرائيل : فــان اله إبــراهيم وإســحاق ويعقوب يقول لك : قل : اللهم إنّي اسـألك بـأنّ لك الحمد لا إله إلّا أنت بــديع الســموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، أن تصـلّي على محمد وآل محمّد ، وان تجعل لي من أمــري فرجا ومخرجا ، وترزقــني من حيث احتسب ومن حيث لا احتسب فجعل الله له من الجب يومئذ فرجا ومخرجا ، ومن كيد المــرأة مخرجا ، وآتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب» [1]

[16] ولنـــــــترك يوسف تحوطه يد الرحمة الالهية ، وتربيّه في غيــابت الجب ، ويــأتي أحد اخوته بطعــام له ، ولنعد الى الــبيت حيث نجد يعقــوب ينتظر بفــارغ الصــبر عودة ابنه الحبيب ، ويتأخر إخوة يوسف أكثر من العــادة ، فلما أسدل الليل سـتارة جـاؤوا الى أبيهم لعل ظلام الليل يغطي بكاءهم الكاذب.

(1) مجمع البيان ص 217 ـ ج 5

(**وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ**)

[17] وقبل ان يسـألهم يعقـوب عن يوسف الـذي لم يجده بينهم بادروه بالكلام.

(**قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**)

ولكن بسبب كذبهم وعدم ايمانهم بما يقولـون بـدرت منهم كلمة أظهرت ما اخفوه فقالوا :

(**وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ**)

ولو كانوا صـادقين فعلا لكـانت الشـواهد الواقعية هي الـتي تكشف عن صـدق حـديثهم ، ولم يكونـوا بحاجة الى هذا الكلام.

[18] وذبحـــوا ذبيحة لطخـــوا قميص يوسف بدمه ، ناســين أن دم البشر يختلف عن دم الحيــوان حــتى بعد تخـثره ، والخبـير يمـيزه بسـهولة ، كما أنّهم نسـوا تمزيق قميص يوسف مما عرف ان العملية كذب باعتبار الذئب لا يخلع ثوب ضحيته ثم يأكله.

(**وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِـدَمٍ كَـذِبٍ قـالَ بَـلْ سَـوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً**)

وجاء في الحديث :

«**ان يعقوب قال حينما رأى القميص : لقد أكلك ذئب رحيم ، أكل لحمك ولم يشقّ قميصك**» [1]

وجاء في حديث آخر :

---

(1) المصدر

«تنبّه يعقــوب على أنّ الــذئب لو أكله لمــزق قميصه ، لــذلك لما ذكــرهم بــذلك قــالوا : بل قتله اللصوص ، فقال : فكيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه أحوج منهم الى قتله» [1]

من هنا عرف يعقـوب ان كيد اخـوة يوسف قد أحـاط به ، فقال :

(**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ**)

اي أصبر صبرا جميلا بالاستعانة بالله فيما اصابني من خيانة ابنائي بي وبأخيهم ، وكذبهم عليّ وتآمرهم ضدي.

---

(1) المصدر

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْـوَهُ قـالَ يا بُشْـرى هـذا غُلامٌ وَأَسَـرُّوهُ بِضـاعَةً وَاللـهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُــونَ (19) وَشَــرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْـدُودَةٍ وَكانُوا فِيـهِ مِنَ الزَّاهِـدِينَ (20) وَقـالَ الَّذِي اشْـتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِـهِ أَكْـرِمِي مَثْـواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ

---

19 [واردهم] : الوارد الذي يتقدم الرفقة الى الماء ليستقي.
[وأسروه] : أخفوه ، ويقال : أسـررت الى فلان حـديثا أي أفضـيت اليه خفية ، وكنّي عن النكـاح بالاسـرار لأنه يخفى ، وسـرّة البطن ما يبقى بعد القطع وذلك لاستتارها بعكس البطن.
[بضاعة] : البضاعة المـال الـوافر يقتـنى للتجـارة ، والأصل في الكلمة الجملة من اللحم تبضع أي تقطع ، وبضـــعة فـــابتعض وتبعّض كقولك قطعته فانقطع وتقطع.
20 [بخس] : البخس النقص من الحق ، يقـــــــال بخسة في الكيل أو الوزن إذا نقصه من حقه فيهما.
21 [أكرمي] : الإكرام إعطاء المراد على جهة الإعظام.
[مثواه] : الثواه الاقامة ، والمثوى موضع الاقامة.

مِنْ تَأْوِيـلِ الْأَحـادِيثِ وَاللـهُ غـالِبٌ عَلى أَمْـرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ (21) وَلَمَّا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ آتَيْنـاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَراوَدَتْــهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْــوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

---

23 [وغلقت] : التغليق أطبـاق البـاب بما يعسر فتحه ، وانما عـدّد ذلك لتكثير الاغلاق أو المبالغة في الايثاق.
[هيت لك] : أقبل وبادر.

يوسف يتحدى الفساد

هدى من الآيات :

وبقي يوسف في الجب حـتى جـاءت قافلة تسـير في ذلك الطريق. فبعثوا واحدا منهم يجلب لهم الماء ، فـأدلى دلـوه في البـئر ، ولما ثقل الـدلو بسـبب تعلق يوسف به استبشر خـيرا به ، وزعم بأنه بضـاعة حباها الله له ولكنه أسر بها لكي لا يكتشف انّه غلام حرّ والله عليم بعملهم.

ولكي لا يفتضح أمـره بـادر ببيعه بثمن بخس ودراهم معدودة ، وكان الجميع يحـذرون من شـرائه لعـدم معرفة واقع أمره ، وجاؤوا به الى مصر حيث اشـتراه عزيز مصر الـذي قـال لزوجته اكـرمي مثـوى هـذا الغلام واحترميه ، فلربما ينفعنا في حياتنا الاجتماعية ، أو نتخـذه ولـدا في حياتنا الشخصية ، وتلك كـانت من إرهاصـات يوسف حيث مكنّه الله في الأرض ابتداء من بيت ملك مصر بما أعطاه الله من علم بعواقب الأمور ، بينما أكثر الناس لا يعلمون.

وبلغ يوسف مرحلة البلـوغ ، فآتـاه الله النبـوة والعلم بسبب إحسانه السابق ،

وحين بلغ مبلغ الرجال طلبت منه صاحبة البيت الفاحشة ، وهيــأت وســائلها بغلق الأبــواب. وتهيئة فــرص الفاحشة ولكنه أبى بشدة واستعاذ بالله من الشـيطان ، وقـال بـأن الله الذي رباني وأحسن مثواي لا أعصيه وان الظـالمين لا يفلحون.

بينات من الآيات :

فأرسلوا واردهم :

[19] كم بقي يوسف في الجب؟

ثلاثة أيام أم أكثر ، وماذا كان طعامـه؟ هل كـان يأتيه أحد اخوته بطعامه أم كـان يكتفي بالمـاء ، أم ان جبرائيل كان يـنزل عليه الطعـام لا نـدري بالضـبط! انما المهم ان الله سـبحانه هيأ أسـباب نجــاة يوسف وتــأديب اخوته ، فجاءت قافلة سيارة ربما كـانت تجارية ، فأرسـلوا واحـدا منهم يرد الماء قبل الآخـرين على عـادة القوافل ، خشـية مفاجـأة غـير سـارة ، فلما أرسل دلـوه في البـئر تعلق به يوسف ، فنظر فاذا هو بغلام ما أجمله فاستبشر به خيرا.

(**وَجـاءَتْ سَـيَّارَةٌ فَأَرْسَـلُوا وارِدَهُمْ فَـأَدْلى دَلْـوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ**)

لقد كـــان يوسف في غاية الحسن حـــتى جــــاء في الحــديث عن النــبي (ص): أعطي يوسف شــطر الحسن والنصف الآخر لسائر الناس. [1]

ولم يبد الوارد للسـيارة انه قد التقطه من البـئر لكي لا يجري عليه حكم اللقيط بل اتخذه بضاعة وكتم الحقيقة عن رفاقه ، بيد أن الله يعلم أنّ يوسف ليس عبــدا ، وهو يحافظ على حريته ..

---

(1) ميزان الحكمة ص 428 رقم 19317

(**وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ**)

[20] باعوا يوسف بثمن قليل ، دراهم معـدودة لقلتها ، وانما يعدّ الشيء القليل ، وزهدوا فيه بالرغم من حسـنه المفــرط ، وربما الســبب محاولة التخلص منه مخافة ان يفضحهم ، ويبيّن انه ليس بعبد فيخسرون حتى هـذا الثمن القليل.

(**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكـانُوا فِيـهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**)

كانت ملامح العبد وصفاته النفسـية تختلف عن ملامح يوسف الــذي كــان كما يقــول الرســول فيما روي عنه : «**الكريم ابن الكـريم ابن الكـريم ابن الكـريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**». [1]

لذلك زهد فيه النـاس ، ولكن لننظر عاقبة هـذا الغلام الــذي ينبــذه اخوته في البــئر ويزهد فيه الســيارة ، كيف يصبح سيدا ورئيسا.

التمكين :

[21] جــاؤوا بيوسف الى مصر حيث اشــتراه ســيد مصر ومليكهم ليكون مسـاعده في شـؤونه ، أو من ولـده وولي عهده.

(**وَقـالَ الَّذِي اشْـتَراهُ مِنْ مِصْـرَ لِامْرَأَتِـهِ أَكْـرِمِي مَثْواهُ**)

أي اجعلي مكانته كريمة وســــامية عنــــدك ، فلا تســتخدميه كــأيّ عبد آخر ، بل حــاولي أن تربيه وتكلفيه الأعمال الهامة.

(**عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً**)

---

(1) بج 12 ص 218

وهكذا أصبح الغلام الطريد الذي زهـدوا فيه ابنا لعزيز مصر ، وهكـــــــذا مكنّه الله في الأرض ماديا ، أما معنويا فسـوف يعلمه من تأويل الأحـاديث حـتى يعـرف عـواقب الأمور ، وسنن الحياة وأنظمة الكون.

(**وَكَـذلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُـفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَـهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحـادِيثِ وَاللـهُ غـالِبٌ عَلى أَمْـرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

يزعم الناس أن حوادث الزمان تجري على غير هـدى ، ولا يعلمـون ان وراء ما يسـمى بالصـدف ارادة حكيمة ، ووراء ما يسـمى بالانظمة والسـنن الطبيعية تـدبير رشـيد من الله سـبحانه ، وهكـذا يشـاء تـدبير الله أن يزهد في يوسف قـوم فيشـتريه عزيز مصر ، كما يشـاء تـدبيره الّا يقتل بل يوضع في غيـابت الجب ، وأن تكـون أول قافلة تجارية تمر من هنـاك متجهة الى مصر ، وهكـذا تتلاحق ما يسـمى بالصـدف ، والاتّفاقـات حـتى يصـبح يوسف سـيد مصر.

[22] شبّ يوسف وبلغ سنّ الرشد ، وأتاه الله النبوة والعلم بسبب إحسانه.

(**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**)

يبدو لي ان بلوغ الأشد هو بلوغه سن الرشد.

(**آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً**)

الحكم هي السـلطة الالهية الـتي تتجسد في النبـوة ، بينما العلم هو فقه الأحكـــام الشــرعية وما يتصل بها من متغيرات الحياة.

(**وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)

فلان يوسف أحسن الى النـاس وتحمل الصـعاب من أجلهم ، فالله بعثه رسولا

إليهم لان أهم صـــفة يحتاجها الرســـول بعد الطهـــارة والصدق هي حب الناس ، والإحسان إليهم.

[23] طلبت امـــــــرأة العزيز من يوسف الفاحشة ، وهيأت وسائلها بتزيين نفسها ، وسدّ الأبــواب ، ودعته الى نفسها صراحة.

[وراودته]

المراودة : المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به.

ان امــرأة العزيز لم تكتف بافســاح المجــال امــام يوسف كما هو شـــأن المـــرأة بالنســـبة الى الرجل ، بل طالبته بــأنواع الــدلال والغنج والخضــوع بــالقول والزينة ، واستخدمت في ذلك سلطتها عليه باعتبارها سـيدة الـبيت الذي يعمل يوسف فيه ، لذلك قال ربنا عنها :

(**الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ**)

أي طلبت منه أمرا صادرا عن نفس يوسف ، وبتعبــير آخر : طلبت منه الانتفاع بنفس يوسف لا بخدمته كما كان المفروض في مثل حاله.

(**وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ**)

أي تعال فالفرصة مهيأة لك.

ولكن يوسف رفض بشدة وبلا تردد.

(**قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ**)

ان الله هو الذي أكرم على يوسف بالجمال والعافية ، وهو الذي هيأ له المكانة

في بيت العزيز وليس العزيز أو امرأتـه. لـذلك لا ينبغي له أن يكفر بنعمة الله ، ويفعل الفاحشة ، كما انه لا يفلح من يفعل الفاحشة ، لأنه ظالم لنفسه ، منحرف عن الرشاد.

(**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**)

فبـالرغم من إغـراء الفاحشة في الظـاهر فانها سـيئة العاقبة.

ان التحـرر من سـلطة المالك ذي القـوة كـان عظيما عند يوسف بقـدر التحـرر من إغـراء جمـال زليخا ودعوته الى نفسها بـذلك الإصـرار ، ولكن الاسـتعاذة بالله وتـذكر نعم الله الواسعة على الفرد ، كما ان تذكر العاقبة يعطي القدرة على مقاومة كل إغراء وكل تهديد.

وهذا ـ أفضل عبرة نستفيدها من هذا الدرس ـ.

وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِها لَـوْ لا أَنْ رَأى بُرْهـانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبـابَ وَقَـدَّتْ قَمِيصَـهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَـزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (25) قـالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَـهِدَ شـاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكـاذِبِينَ (26) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُـرٍ فَكَـذَبَتْ وَهُـوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأى قَمِيصَـهُ قُـدَّ مِنْ دُبُـرٍ قـالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخـاطِئِينَ (29)

---

25 [قدّت] : القد شق الشيء طولا.
[من دبر] : من الخلف.
[ألفيا] : وجدا. [من قبل] : من المقدمة.

مراحل التحدي

هدى من الآيات :

انتهى بنا الســـياق عند رفض يوسف طلب امــــرأة العزيز ، ولكن لماذا رفض بعد أن هيأت له الظروف؟

لأنه رأى برهـــان ربه فتـــذكر نعم الله عليه ، وانه لا يفلح الظالمون ، ويد الله أنقذت يوسف من عــواقب الزنا المادية والمعنوية لأنه كــان قد أخلص لله نفسه ، فأخلصه الله لنفسه ، وأراد يوسف الهـــرب وأرادت زليخا امــــرأة العزيز منعه ، وتعلقت بقميص يوسف من الخلف فانشق القميص ، وإذا بزوجها على الباب فافتعلت تهمة ، وادعت ان يوسف أراد بها ســوء ، وطالبته بــأن يســجنه أو يعذبه ، وقــــال يوسف : انها هي الـــتي طلبت مـــني الفاحشة فرفضت ، وجــاءت الشــهادة من داخل بيتها ومن أهلها أن شـــقّ القميص إن كـــان من الخلف فهي الـــتي لحقت به وشــقته ، وان كــان من الامــام فانه ــ أي يوسف ــ الــذي حاول الاعتداء عليها ، فشــقت قميصه دفاعا عن نفســها ، فلما نظر العزيز وجد القميص مشــقوقا من الخلف وحكم عليها بالخيانة ،

وامر يوسف بـأن يبتعد عن السـوء ، وأمرها بـأن تسـتغفر لذنبها لأنها هي الخاطئة.

وهكذا أنقذ الله يوسف مـرة اخـرى من السـوء ، ولو كـان يوسف فرضا قد اسـتجاب لها ، ودخل زوجها عليهما فما ذا كان مصيرهما ، أو ليس القتل ..؟

بينات من الآيات :

ما هي العصمة؟

[24] هل الأنبيـاء معصـومون بـذاتهم أم بـإرادة الله وروح الارادة؟

لأن الأنبيـاء بشر يميلـون بطبعهم نحو الرذيلة كـأي بشر آخر ، يذوق جسـدهم ألم الجـوع والارهـاق والضـرب والعـذاب ، كما تتحسس قلـوبهم بـالم الغربة وبضـغط الشهوات المكبوتة ، ولكن لأنهم موقنـون. ويعصـمهم الله بروحه فإنهم يتجاوزون أنفسـهم بسـرعة ، وآيـات القـرآن الـتي تعكس هـذه المفارقة في حيـاة الأنبيـاء كثـيرة ، ولا يكاد نبي مـذكور اسـمه في الكتـاب يخلو عن حالة صـعبة اجتازها بتوفيق الله ، ولـولاه ولو لا روح الايمـان لـتردى كأي بشر آخر ـ حاشا لله ـ ويوسف واحد من هؤلاء البشر الكـرام ، المعصـومين بـروح الله ، فلأنه إنسـان مكتمل الشخصـية البشـرية كـان يهم بها ، ولأنه مـوقن ومعصـوم فقد رأى برهان ربه.

ومن هنا نعلم ان همّ يوسف لم يتم عمليا بل كـــان همّا بـالقوة ، فلو لا برهـان ربه المـانع من همّه بالمعصـية لكان قد همّ بها ، والتعبير القرآني يبين بلطف عجيب هذه المفارقة في آية اخـرى حيث يقـول ربنا عن النـبي محمد صـلّى الله عليه وآله : «**وَلَـوْ لا أَنْ ثَبَّتْنـاكَ لَقَـدْ كِـدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**» [1].

---

(1) الإسراء / 74.

وهنا يشير التعبير بدقة الى ذلك حيث يقول ربنا :
(**وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِها لَـوْ لا أَنْ رَأى بُرْهـانَ رَبِّهِ**)

فبرهـــان ربه الـــذي رآه ببصـــيرته منعه من إرادة المعصـــية ، ولكنه من دون هـــذا البرهـــان كـــان يهم بها ويريـدها وأساسا الهمّ : هو العـزم على الفعل ، كما قـال ربنا : (**إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ**). [1]

وربما يسـتخدم الهمّ في الأمر الـذي يريـده الإنسـان ويجد امامه مانع منه ، كما قال الشاعر :

هممت ولم أفعل وكـــدت وليتـــــــــــــني   تـــركت على عثمـــان تبكي حلائله

ومنه قوله تعـــالى : (**إِذْ هَمَّتْ طائِفَتـــانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُما**). [2]

ويبقى الســـؤال : مـــاذا رأى يوسف حـــتى تجـــاوز الفحشاء ، وبتعبير آخر : ما هو برهان ربه؟

أولا : البرهان هو السلطان ، ويـراد به السـبب المقيد لليقين لتسـلطه على القلـوب كـالمعجزة قـال تعـالى : (**فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ**). [3]

وقـــال : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جـاءَكُمْ بُرْهــانٌ مِنْ رَبِّكُمْ**). [4]

---

(1) المائدة / 11.
(2) آل عمران / 122.
(3) القصص / 32.
(4) النساء / 174.

وقال : (**أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هـاتُوا بُرْهـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**). [1]

وهو الحجة اليقينية الـــتي تجلي الحق ولا تـــدع ريبا لمرتاب على حد تعبير تفسير الميزان.

ثانيا : ان يوسف عليه السّلام ، كان صـديقا أيقن قلبه ان جماله من الله ، وهو الـذي أعطـاه القـوة ومكنه في الأرض ، وأن من كفر بـأنعم الله لا يفلح ، وبسـبب إيمانه الصـادق بهـذه الحقـائق أدركه في سـاعة المحنة ايمانه ، وبلـورت المعانـاة شخصـيته الـتي عجنت بـروح الايمـان والتقـــوى ، فظهر له برهـــان ربه وحجته البالغة في تلك اللحظة الشـــديدة من صـــراعه مع طبيعته ومع مجتمعة المتمثل في قـوة ربة بيته ، فكـان كمن قد رأى البرهـان واضحا أمامه.

وهكذا المؤمنـون الصـادقون يتـذكرون ربهم كلما مـرّ بهم طـــائف من الشـــيطان ، وتعرضـــوا لتجربة صـــعبة فيتركون المعصية ، بينما يغط غيرهم في غفلة شاملة.

ان اللحظات الصعبة في حياة الفـرد تسـتخرج دفـائن نفسه ، وخبايا ذاته ، وسـرائر عزيمته ، فـالمؤمن يـزداد ايمانا ، بينما غيره يفشل في التجربة.

ومن هنا كان على الفرد ان يعمل عملا صالحا لـيزداد إيمانا فينتفع به في ساعات صراعه الحاسم مع الشـهوات أو ضغوط المجتمع حيث لا ينفع المرء إلّا ذخائر إيمانه.

(**كَـذلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ**)

وقد جاء في الحديث : «ان برهان ربه كـانت النبـوة» كما جاء في حديث

---

(1) النمل / 64.

آخر : «**ان زليخا قـامت وألقت ثوبا على صـنم كـان في البيت استعدادا لفعل الفحشـاء ، فقـال يوسف لها : ان كنت تسـتحين من الصـنم ، فانا أحـقّ أن أستحي من الواحد القهّار**» [1]

المفاجأة :

[25] وتسـابقا نحو البـاب ، وأخـذت زليخا قميص يوسف تمنعه ، واشـتد يوسف فشـقّ قميصه من خلفه ، وعند الباب كانت المفاجـأة حيث دخل العزيز وهو سـيدها المفـروض عليها طاعته كـزوج ، فـاختلقت تهمة ونسـبتها اليه.

(**وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

أي هل جزاء المعتدي على شرف أهلك غـير السـجن والتعذيب.

[26] وردّ يوسف التهمة بقوة.

(**قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي**).

فهي التي طلبت مـني الفاحشة فلم اسـتجب ، وكـان هناك شـخص ثـالث من أهل المـرأة عـرف القصة وقضى بأنه لو كـان شـقّ القميص من خلف فهي المسـؤولة لأنها التي أخذت قميصه من الخلف والا فهو المسؤول.

(**وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ**)

(1) البرهان ج 2 ص 421.

[27] (**وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُـوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

أي انها هي الكاذبة وهو الصادق.

[28] ونظر السيد فاذا القميص قد شق من خلف.

(**فَلَمَّا رَأى قَمِيصَـــهُ قُــدَّ مِنْ دُبُـــرٍ قــالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**)

أي أن الذي حدث ابتدأ من النساء باعتبـار انهن ذوات كيد عظيم.

والكيد هو طلب الشـــــــــيء بما يكرهه ، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه ويبدو أن في الآية إشارة الى أن ابتــداء الفاحشة من المــرأة ، إذ أنها فتنة للرجل ، وعليها ألا تظهر فتنتها عليه.

[29] ثم وجه العزيز خطابه الى يوسف (ع) وأمــــره بالسكوت والاعـراض عن القضـية وعـدم فضح امرأته بما فعلت ، واكتفى بدعوتها بالاستغفار لخطئها.

(**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هـذا وَاسْـتَغْفِرِي لِـذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ**)

ويبدو من هذه الآيـات ان الفاحشة كـانت شـائعة في ذلك البلد ، وانها لم تكن قبيحة الى تلك الدرجة بســــبب سلب الغيرة منهم ، وإلّا فكيف يسكت الزوج عما رآه من زوجته رأي العين من مـــراودة فتاها ، بل يـــأمر الفـــتى بالاعراض عن الأمر وعدم مطالبتها بعقابها.

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْـرَأَتُ الْعَزِيـزِ تُـراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْـرِهِنَّ أَرْسَـلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَـدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَـهُ أَكْبَرْنَـهُ وَقَطَّعْنَ أَيْـدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَـراً إِنْ هـذا إِلاَّ مَلَـكٌ كَـرِيمٌ (31) قـالَتْ فَـذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيـهِ وَلَقَـدْ راوَدْتُـهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَـمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَـلْ ما آمُـرُهُ لَيُسْـجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّـاغِرِينَ (32) قـالَ رَبِّ السِّـجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ وَإِلاَّ تَصْـرِفْ عَنِّي كَيْـدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ

---

31 [واعتدت] : اعتدّى مأخوذ من العتاد ، ومثله اعدّت.
33 [أصب] : الصبا دقة القلب.

مِنَ الْجـاهِلِينَ (33) فَاسْـتَجابَ لَـهُ رَبُّهُ فَصَـرَفَ عَنْـهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)

وكبرت دائرة التحدي

هدى من الآيات :

كنا مع يوسف وقد افتضح أمر ربة بيته عند زوجها ، وها نحن نجد قصة حبها ليوسف قد شـــاعت في المدينة ، وصارت النساء يعاتبن امـرأة العزيز على عشـقها ليوسف لضـلالها ، وسـمعت بالإشـاعات ، وبـادرت بـدعوتهن الى مائدة ، وأعطت كل واحدة منهن سـكينا ، وأمـرت يوسف بـــــالخروج عليهن ، فأدهشـــــهن يوسف بجماله وجلاله ، فاكبرنه وقطعن أيـديهم بالسـكاكين ، وابعـدن يوسف عن الفاحشة ، وقلن بأنه ليس بشــــرا بل هو ملك كـــــريم ، وتــدخلت في الحــديث وأجـابت عن عتــابهن بقولها : ان ذلكن هو ما لمتنّني فيه ، وانــني فعلا قد راودته عن نفسه لجماله الخارق ولكنه استعصم وامتنع بالله عن الفاحشة ، وليسـجن لو لم يفعل وليهـان ، وعـاد يوسف يـرد التهديد بـــان السـجن أحب اليه من الفاحشة ، واعتصم بالله من كيدهن ، واعـترف بضـعفه البشـري امـام فتنتهن ، وانه لا يقاومها من دون عصــمة الله ودفع الله عنه كيــدهن وهو السميع لدعاء عباده العليم بما يضمرون.

وهكــذا اعتصم يوسف عن فتنة نســاء أهل مصر في تلك الحقبة الـــتي يبـــدو انهن قد تعرضن فيها للفســـاد الخلقي.

بينات من الآيات :

في مهب الفساد :

[30] يبدو ان المجتمع المصــري كـان قد تعـرض آنئذ لموجة فسـاد عريضة وجـاءت قضـية يوسف تفضح الحالة المتردية الـــتي بلغها المجتمع ، وكـــانت كالقشة الـــتي قصمت ظهر بعير الفساد المثقل بالذنوب.

لقد كان حديث المجالس عنـدهم الفسـاد الخلقي. إذ انتشر نبأ مـــراودة امـــرأة العزيز ليوسف فتاها ، والعامل في بيتها كالنار في الهشيم.

(**وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَـةِ امْـرَأَتُ الْعَزِيـزِ تُـراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ**)

أي تطلب ممن يعمل عندها الفاحشة ليفجر بها.

(**قَدْ شَغَفَها حُبًّا**)

اي دخل حب يوسف شــغاف قلبها ، واســتولى على فؤادها ، وإذا كـان المجتمع سـليما من الناحية الخلقية إذا لم يرض بإشاعة الفاحشة ، ونشر أنباء الفساد.

(**إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

يبدو ان النسوة كن يرين ضـلالة امـرأة العزيز لا لأنها تفعل الفاحشة ، بل بســـبب هبوطها الى مســـتوى فعل الفاحشة مع فتاها وهو من عنصر آخر غير عنصرهم.

[31] وعـرفت امـرأة ملك مصر ان النسـوة يتـآمرن ضدها ، ويتخذن من قصة

عشقها وسيلة للحظّ من شأنها ، فأرادت أن تـورطهن في حب يوسف لتنقذ نفسـها من المشـكلة ، فأرسـلت إليهن وهيـأت لهن مائـدة ، واعطت لكل واحـدة منهن سـكينا ، وأمرت يوسف بأن يدخل عليهن.

(**فَلَمَّا سَـمِعَتْ بِمَكْـرِهِنَّ أَرْسَـلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَـدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً**)

المكر لغة : هو الفتل بالحيلة الى ما يـــــــراد ، وانما سميت الاشاعة التي بثتها النسوة حولها مكـرا لأنهن أردن شـيئا آخـرا من الاشـاعة. ربما إسـقاط هيبتها أو محاولة الوصول الى يوسف ، ومعرفة سبب ولهها به.

أما المتكأ : فهو الوسادة وهي كناية عن المائـدة أو لا أقل المجلس الطويل الذي يستراح اليه ، وتدل الآية على وجود شيء يؤكل ويهيء قبل الأكل بالسكين.

(**وَآتَتْ كُـلَّ واحِـدَةٍ مِنْهُنَّ سِـكِّيناً وَقـالَتِ اخْـرُجْ عَلَيْهِنَ**)

وهكذا خرج يوسف على النسـوة في وقت انشـغالهن عنه بالطعام.

(**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**)

أي عظّمن يوسف أيما تعظيم ، بجلاله وجماله.

(**وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ**)

فأخـذن يجـرحن أيـديهن بسـبب الانشـغال بجمـال يوسف.

(**وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً**)

أي ان يوسف مـــــنزه عما ينسب اليه ، ونزاهته انما هي لله بل انه ليس ببشر.

(**إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**)

إذا فـالتعيير الـذي تعرضت له امـرأة العزيز بسـبب مراودتها لفتاها حـتى قـالت عنها النسـوة انها في ضـلال مـبين. لم يكن في موقعه أبـدا. إذ انه أرفع من مسـتوى البشر ، فكيف يحسب فـتى عـاملا في بيت العزيز ـ كما كانوا يزعمون ـ.

[32] واستفادت امرأة العزيز من الوضع وأجابت عن تعييرهن لها.

(**قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**)

ان هذا هو سـبب تعيـيركن لي ، فهل يعيّر من يعشق مثل هذا الفتى.

(**وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**)

أي انه طلب العصـمة من الله حـتى لا يفعل ما يـؤمر به.

(**وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَـلْ ما آمُـرُهُ لَيُسْـجَنَنَّ وَلَيَكُونـاً مِنَ الصَّاغِرِينَ**)

وهنا أرادت زليخا ان تأخذ الشـــرعية من النســـوة لفعلها ، ويبـدو ان النسـوة قد أعطينها تلك الشـرعية مما دلّ على مدى الفساد المنتشر في ذلك المجتمع الجـاهلي ، حيث انه يسمح لامرأة تحب الفجور أن تسجن فتى بريئا لمجرد طهارته واستعصامه بالله عن الفحشاء.

السجن أحب الى :

[33] ويبـدو أن النسـوة اختلين بيوسف الواحـدة تلو الاخـرى بحجة السـعي وراء اقناعه بقبـول كلام سـيدته ، ولكنهن عرضن ليوسف الفجـور بهن ، والشـاهد هو قـول يوسف الذي ضـاق بهن ذرعا ، وتوسل بالله أن ينقـذه من أيديهن ولو كان بالسجن.

(**قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**)

وبـدل ان كـانت المشـكلة واحـدة فقط أصـبحت الآن متعددة ، حيث ان الفساد الذي كـان شـائعا في تلك البيئة قد أحــاط بشــخص يوسف (ع) ، ولكن كــانت تلك حكمة بالغة لله حيث ان تحــدي يوسف (ع) وهو فــتى اشــتري للخدمة ، وطالبته ســـيدات مصر للفاحشة بما فيهن من جمـال وشـهرة ، ان تحديه للفسـاد ، وللضـغوط المختلفة هز المجتمع الجاهلي من الاعمـاق وأثـار فيهم التسـاؤلات إذا فوق قيمة المـادة. قيمة اسـمى هي قيمة الايمـان. إذا فنحن على خطأ. إذ كيف يرفض هـذا الفـتى هـذا العـرض المغري ، أم كيف يتحدى هذه الضـغوط الهائلة ، فيعـرض نفسه للسجن والإهانة؟

لقد كانت الإغراءات كبيرة إلى درجة نرى يوسف (ع) ذلك الفتى الصديق يستعين بالله منها ويقول :

(**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْــبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ**)

اي : ان لم تدركه رحمة الله وعصـــمته يكـــاد يميل إليهن ويصبح جاهلا بذلك ، أو يفعل الفحشاء.

[34] وأنقذه الله تعالى في الوقت المناسب وأعطاه القـــوة الكافية لمقاومة جاذبية المـــادة الثقيلة ومن ثم التحليق في سماء القيم.

(**فَاسْتَجابَ لَـهُ رَبُّهُ فَصَـرَفَ عَنْـهُ كَيْـدَهُنَّ إِنَّهُ هُـوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

وهكذا يصرف الله تعالى عن المؤمنين الصـادقين كيد شياطين الأنس والجن ، ويعطي الفرد عصمة عن الذنوب بعد ان يطلب الفرد ذلك من ربه.

ثُمَّ بَــدا لَهُمْ مِنْ بَعْـدِ ما رَأَوُا الْآيــاتِ لَيَسْـجُنُنَّهُ حَتَّى
حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَـهُ السِّـجْنَ فَتَيـانِ قـالَ أَحَـدُهُما
إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِـلُ
فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُـلُ الطَّيْـرُ مِنْـهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِـهِ إِنَّا
نَــراكَ مِنَ الْمُحْسِــنِينَ (36) قــالَ لا يَأْتِيكُما طَعــامٌ
تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَـرَكْتُ مِلَّةَ قَـوْمٍ لا يُؤْمِنُــونَ بِاللــهِ
وَهُمْ بِــالْآخِرَةِ هُمْ كـافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبــائِي
إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ
مِنْ شَــيْءٍ ذلِــكَ مِنْ فَضْــلِ اللــهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ
وَلكِنَّ أَكْثَـــرَ النَّاسِ لا يَشْـــكُرُونَ (38) يا صـــاحِبَيِ
السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِـدُ الْقَهَّارُ
(39) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَـمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ
وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ

إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ (40) يا صـاحِبَيِ السِّـجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْـرُ الَّذِي فِيـهِ تَسْـتَفْتِيانِ (41)

رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَ

هدى من الآيات :

بعد ان تحــدى يوسف (ع) ضــلالة المجتمع وفســاده العــريض لم يســعهم الا ســجنه ، ولكن يوسف اتخذ من السـجن منطلقا للـدعوة ، فحين دخل معه فتيـان وجـدا عنــده مظــاهر المحســنين ، فســألاه عن حلمين تــرآى لأحدهما : انه يعصر العنب ليصنع منه الخمر لمولاه ، بينما تــرآى للآخر : انه وضع على رأسه خــبزا تأكل الطــير منه ووعدهما يوسف (ع) بتأويل ما رأياه قبل ان يأتيهما طعام ، ولكنه قبلئذ ذكرهم : بـأن معرفته بالتأويل هي مما علمه ربه ، وذلك بســبب رفضه لــدين المشــركين ، ومقاومته لكفــرهم بالله واليــوم الاخر ، واتباعه لآبائه المؤمــنين إبراهيم وإسحاق ويعقـوب (ع) ، وهكـذا أوضح لهم انه من سـلالة النبـيين ، وانه أمر الا يشـرك بالله شـيئا ، والتوحيد فضل من الله عليهم وعلى النــاس ولكن أكــثر النــاس لا يشكرون ربهم باتباع الرسالة.

ثم ذكرهما بــأن التوحيد دين الوحــدة ، وان الأربــاب المتفرقين ليسوا سوى أسماء ليس وراءها حجة حقيقية ، انما السيادة والحق لله. وانه امر أن تستوي هذه السيادة

على عـرش الحيـاة الاجتماعية ، وان هـذا هو الـدين القيم الذي لا عوج فيه ، بينما أكثر الناس لا يعلمون.

وهكذا اعطى يوسف (ع) درسا في الرسالة لصـاحبيه في السجن قبل ان يفسر لهما الرؤيا.

بينات من الآيات :

قرار السجن :

[35] بعد ان عرفــــــــــوا ان يوسف (ع) لن يرضخ لفسادهم ، وانه يتحدى ضغوطهم بقوة ايمانه ، وانه يفضح واقعهم الــذي تــردوا اليه دون ان يشــعروا. بعدئذ قــرروا سجنه لفترة معينة. ايغالا في الظلم والفساد.

(**ثُمَّ بَـدا لَهُمْ مِنْ بَعْـدِ ما رَأَوُا الْآيـاتِ لَيَسْـجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**)

برنامج السجن :

[36] وأنقذ الله يوسف (ع) من عــــذاب الأغــــراء ليمتحنه هذه المـرة بالسـجن الـذي يقـال ان يوسف كتب على بابه يـوم خـرج منه : (هـذا مقـبرة الأحيـاء. اللهم لا تمنعه أخيـــار الأرض) فلننظر كيف واجه الصـــديق هـــذه المحنة؟ لقد دخل معه السجن شخصـان آخـران يبـدوا ان كلا منهما كـان أيضا مثله من الفتيـان العـاملين في بيـوت الأشراف من الـذين عصـوا أوامـرهم الجـائرة ، فـزج بهم في السجن ، ودار بينهما وبين يوسف حوار رسالي.

(**وَدَخَـلَ مَعَـهُ السِّـجْنَ فَتَيـانِ قـالَ أَحَـدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً**)

اي ارى نفسي وكأني أعصر عنبا ليصبح خمرا.

والسؤال المطـروح هو ان الرؤية هـذه هل كـانت في المنام أم كـانت من أحلام اليقظة الـتي هي الاخـرى دليل على إرهاصــات الحقيقة الــتي يشــعر بها الفــرد أحيانا ، ويسمى عادة بالتفاؤل أو التشاؤم ، أو الحس الســادس .. أو ما أشبه.

في بعض الأحاديث ان صاحب الخمر كان صـادقا وهو الـذي نجى ، بينما كـان صـاحب الخـبز كاذبا في رؤيـاه ، وسواء صدقا أم لا فان ما رأيـاه كـان صـورة عن الحقيقة التي سـوف تقـع. راها أحـدهما في المنـام وتخيلها الثـاني في اليقظة ، والقــرآن ســكت عن كيفية الرؤيا واكتفى بقوله : «**إِنِّي أَرانِي**» الــذي ينطبق على حالة الحلم كما في حالة اليقظة.

(**وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْـزاً تَأْكُــلُ الطَّيْــرُ مِنْــهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِــهِ إِنَّا نَــراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**)

لقد اســتغل يوسف (ع) وجــوده في الســجن عمليا وقوليا ، فهو يبلغ لرسـالته بـالقول ، ولكنه لم يكتف بـذلك بل جسد رسالة السماء في سلوكه عمليا شأن كل الدعاة الصادقين لقد كان يبكي على امتـداد الـوقت ، ويجتهد في الضراعة ، ويتبتل الى ربه بصلواته الخاشـعة وفي فـترات فراغه كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع له ، وان احتاج جمع له ، وان مــرض قــام عليه لــذلك انجــذب اليه المعتقلون ، واعتقدوا بأنّه صاحب فضل عليهم وقالوا له : «**إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**».

[37] قـال يوسف (ع) قبل ان يأتيكما الطعـام الـذي هو مخصص لكم اما من البيت أو من إدارة السجن سوف انبئكما بتأويل رؤيا كما.

(**قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِـهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما**)

وبعد ان وعـــدهما بتأويل رؤياهما قريبــا. أخذ يبلغهما رسالات ربه. ابتـداء من نفسه حيث كـان معروفا عنـدهما بالإحسان والفضل فقال لهما :

اولا : انه رسول من الله.

(**ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**)

فلقد علمه الله تأويل الأحاديث.

ثانيا : انه حنف عن الشــرك الــذي اتخــذه قومه ملة لهم ، ورفض طريقة قومه وملتهم ، وثــار على نظــامهم الثقافي والاجتماعي.

(**إِنِّي تَــرَكْتُ مِلَّةَ قَــوْمٍ لا يُؤْمِنُــونَ بِاللــهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ**)

ان طريقة هـــــذه الجماعة ليست المثلى لأنها قائمة على أساس الكفر وإني ارفضها رأسا.

[38] ثالثا : اما الملة المثلى في طريقة آبــائي ـــــ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ وهكـذا بين يوسف (ع) انه من سلالة النبوة.

(**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ**)

وان طريقة هؤلاء قائمة على أساس التوحيد ، ورفض كل أنواع الشرك ، وكل ألوان العبودية والطاعة لغير الله.

(**ما كانَ لَنا أَنْ نُشْـرِكَ بِاللـهِ مِنْ شَـيْءٍ ذلِـكَ مِنْ فَضْـلِ اللـهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**)

فالتوحيد ليس فقط واجب الهي مقـــدس ، بل وأيضا نعمة كبري على البشرية.

حيث انه يعني التحرر من عبودية الطاغوت وعبودية المال والشهوات. ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله في الأيمـان بهذه النعمة.

[39] رابعا : بين يوسف (ع) لصـــــاحبيه وزميليه في السـجن الـذين تقاسـما وإيـاه المعانـاة والأذى. ان أكـثر الحروب والصراعات الاجتماعية ، والخلافـات الهدامة انما هي نتيجة مباشرة للشرك. حيث ان كل فريق يعبد صــنما من دون الله ، ويطيع ربا مختلفا عن رب الآخــرين ، فكل يعبد صـــنم أرضه وإقليمه وقومه وعشـــيرته وحزبـــه. فيختلفون.

(**يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ**)

[40] خامسا : بين ان الأصنام التي تعبد من دون الله تعالى ان هي الا انعكاس لأوضاع وحالات انحرافية فاسدة داخل المجتمع أو النفس ، وليست لها قدســـية أو واقعية حقه.

ان صــنم الإقليمية انعكــاس لضــيق الأفق ، وشــذوذ الفكر ، ومحدودية الرؤية ، فهو إذا اسم ســماه الإنســان وليس حقا أنزله الله ، وهكــذا صــنم الوطنية والعنصــرية والشوفينية والقومية .. وكل الأصنام الباطلـة. إنها أسـماء اخترعها الإنســان انعكاسا لواقعه الفاسد ، وليس تعبــيرا عن الحقيقة.

(**ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلَّا أَسْـماءً سَـمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ**)

نعم هنالك أســماء ورمــوز يــنزل الله بها ســلطانا فتكتسب الشــرعية من اللـــه. مثل الرســول وخليفته ، وصـاحب الفقه والعدالة ، وكل القيـادات الشـرعية الـتي تطـاع بـأذن الله وباسم اللـه. لا بـأذن الشـعب أو باسم الأصنام.

ذلك لان الولاية الحق لله ، والحاكمية والســـــــيادة والملكوت لله سبحانه ، فكل حكم لا يستند الى الله والى حاكميتـه. بـأن لا يكـون بـإذن الله ، ولا يهـدف اقامة حكم الله فهو حكم باطل وزائل.

(**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**)

فلأن الولاية الحق لله في الكـــــون ، ففي مجـــــال التشريع وفي الواقع السياسي يجب ان يكـون هو الحـاكم من خلال خليفته ورسالته.

(**أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**)

فلم يأذن للسلطة الا بأذنه. ولم يبح الحكم كما أباح ــ مثلا ــ خـيرات الأرض وبتعبـير فقهي : الأصل في نعم الله الإباحة والحلية ، فالبشر حر في الانتفــاع إلا إذا جــاء نص بخلاف ذلك ، ولكن الأصل في السلطة هو العكس تمامـا. اي ليس لبشر ان يطيع بشـــرا في ســـلطة الا بعد التثبت من وجود نص.

(**ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

اي هذا هو النهج السليم للحياة. الا يطيع أحد أحــدا الا بأذن الله ، وليس يدين أبـدا بسـيادة الطغـاة أو السـكوت عنهم. وحاكمية الفراعنة والرضا بها. من هنا نعـرف مـدى دلالة الآية على ان الـــدين هو السياســـة. والسياسة هي الدين.

لذلك تجـدهم يفصـلون الـدين عن السياسة ، ويقـول فرعـــونهم : لا دين في السياسة ولا سياسة في الـــدين ، ويقــول هامــانهم : لا دخل لرجــال الــدين في السياسة ، ويقـــول قـــارونهم : اننا نريد رجــال دين لا يتــدخلون في السياسة.

وجمهـور النـاس يسـعون من أجل فصل الـدين عن السياسة تحت تأثير التضليل

الأعلامي ، وبســبب انهم يستصــعبون مســئوليات الــدين والسياسة ، ويريدون الاكتفاء بالطقوس الدينية السهلة.

[41] وبعد ان بين هـذه الحقـائق لهمـا. فسر رؤياهما قائلا :

(**يا صــاحِبَيِ السِّــجْنِ أَمَّا أَحَــدُكُما فَيَسْــقِي رَبَّهُ خَمْراً**)

اي يعود الى سيده ، ويصبح سـاقيا له فيسـقيه الخمر كما وجد في الرؤيا.

(**وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ**)

اي يقتل وتجلس الطيور الجارحة فوق رأسه لتأكله.

(**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ**)

اي انتهى القضــاء فيما ســألتما الى هــذه النهاية ولا عودة فيه.

وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ (43) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (44) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)

---

44 [أضغاث] : الأضغاث الأحلام الملتبسة.
[دأبا] : دأب في عمله يدأب دؤبا إذا اجتهد.

قالَ تَزْرَعُونَ سَـبْعَ سِـنِينَ دَأَبـاً فَما حَصَـدْتُمْ فَـذَرُوهُ فِي سُـنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَـأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَـأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَـبْعٌ شِـدادٌ يَـأْكُلْنَ ما قَـدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَـأْتِي مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ عـامٌ فِيـهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

---

48 [تحصنون] : تحرزون وتدخرون.

الكفاءة

مقدمة التمكين في الأرض

هدى من الآيات :

وخــرج الفتيــان من الســجن. أحــدهما الى الحرية ، والثاني الى المشنقة ، فاستغل يوسف (ع) نجاة أحدهما ، فطلب منه العمل من أجل نجاته بيد ان الشـيطان أنسـاه ذكر ربه ، فبقي في السجن عدة سنين بسبب نسيان الله والتوسل بعبيده ، وحين قضى الله مدة سجنه قدر الله له النجاة وذلك بأن رأى الملك في منامه سبع بقرات سـمان يـأكلهن سـبع بقـرات هـزال ، ورأى بجنبها سـبع سـنبلات خضر وسـبع سـنبلات يابسـات ، فجـاء الى كبـار أصـحابه يستفسرهم عن رؤياه فقالوا : إنها أحلام مختلطة ببعضـها ولسنا بعالمين بها ، وكان صاحب يوسف حاضـرا فتـذكر ، بعد فـترة طويلة ، فطلب إرسـالة الى يوسف (ع) وطلب منه تفسـير رؤيا الملك لينقلها اليه فقـال يوسف (ع) : ان أمامكم سبع مواسم خـيرة تعقبها سـبع مواسم شـحيحة ، وهكـذا تأكل السـنين السـبع التالية ما كـانت في السـنين الســابقة من نعمة ، أما الســنة الأخــيرة. فهي ســنة الاستغاثة. حيث يعصر الجـوع النـاس عصـرا ، وهكـذا وفر الله ليوسف أسباب النجاة.

بينات من الآيات :

وصية يوسف :

[42] خرج الشخص الذي فسر يوسف رؤياه بالنجـاة. واسـتغل يوسف المناسـبة ، وطلب منه ان يرفع مظلمته عند الملك ، وكـــــــان عليه ان يتوسل بالله في ذلك لا بالسجين الناجي أو الملك لأنه رسول الله الـذي ينبغي ان يقطع صـــلاته الشخصـــية بالنـــاس جميعا ، ويمحض الله إخلاصه.

(**وَقـالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نـاجٍ مِنْهُمَا اذْكُـرْنِي عِنْـدَ رَبِّكَ**)

لمـاذا اسـتخدم القـرآن تعبـير الظن. أو لم يقل ربنا سابقا : ان الله قد علمه تأويل الأحاديث؟

في الاجابة قـال صـاحب المجمع : ان معـنى الآية أي للـذي علم من طريق الـوحي انه نـاج متخلص ، كما في قوله تعالى : «**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ**» هذا قول الأكثرين واختيـار الجبـائي. وقـال قتـادة : للـذي ظنه ناجيا لأنه لم يحكم بصدقه فيما قصه من الرؤيا والأول أصح. [1]

ولكن ـ يبـدو لي ـ ان الظن هنا بمعنـاه الأصـلي وهو التصور والتخيل الذي يوهم بعدم وجود علم ثـابت بـذلك ، والسبب ان يوسف (ع) لم يكن يضمن المستقبل لأن الله قد يشاء شيئا أخر ، فلربما مـات الشـخص أو تغـير نظـام الملك ، أو بدى لله في شأنه وعاد به الى السجن ، أو الى الاعدام ، ومناسبة الظن بما بعده هي ان يوسف (ع) كـان موقنا بأن الله سبحانه ارحم الراحمين ، وانه يسـتجيب له دعاءه بينما كان يظن بنجاة

---

(1) المجمع ج 2 ص 234

صــاحبه ظنا ، وكــان ينبغي ان يتوسل بالله قبل توســله بــذلك الشـخص لأن الله اولى بـاليقين من رؤيـاه حـول الشخص التي لو صدقت لتجاوزت حدود الأقـدار ، وقضـاء الله فوق قدره وإرداته فوق سنته سبحانه وتعالى.

ولكن الشـيطان اعجل يوسـف. حيث ان مشـكلات السجن رفعته الى التسرع بالتوسل بالبشر دون ربه.

(**فَأَنْسـاهُ الشَّـيْطانُ ذِكْـرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّـجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**)

ليربيه ربّه على الإخلاص التام في عبادته سبحانه.

رؤيا الملك :

[43] وبعد ان قضى مدة سـجنه الـتي حـددها الله له من بعد نسيان ذكر ربه ـ والتي طالت سـبع سـنين حسب ما جـاء في الأخبـار ــ بعدئذ هيأ الله له وسـيلة نجاته بحلم رآه الملك.

(**وَقـالَ الْمَلِـكُ إِنِّي أَرى سَـبْعَ بَقَـراتٍ سِـمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ**)

اي هزال.

(**وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ**)

وأراد من كبار مستشاريه تفسيرا لرؤياه الغامضة.

(**يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُـونِي فِي رُءْيـايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ**)

اي ان كنتم تفسرون ما يراه النائم في حلمه.

[44] ولكنهم حين عجزوا عن تفسير رؤياه الغامضـة. قالوا بأنها أفكار مختلطة

وليست رؤية للحقيقة.

(**قـالُوا أَضْـغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيـلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ**)

الضـغث : الحزمة من كل شـيء ، وقيل بأنه الخلط ، وقـــالوا : والحلم بكسر الحـــاء ضد الطيش وهو الانـــاة ، وكأن أصل حلم النوم عن هذا لأنه حال أناة وسكون.

ويبـدوا ان الحلم غـير الرؤيا ، فهو كل ما يـراه النـائم من آثار نفسه وتخرصاتها.

مفاتيح الرؤيا :

[45] وكـــان في حاشـــية الملك صـــاحب يوسف في السجن الذي تذكر الآن رؤياه في السجن ، وتعبـير يوسف الصادق له.

(**وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**)

اي تـذكر بعد مـرور وقت طويل ، قـالوا : انها سـبع سنين.

(**أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ**)

اي ابعثوني الى يوسف لآتيكم بتأويله.

[46] فبعثـــوه الى يوسف في الســـجن ، فطلب منه تفسير رؤيا الملك بعد ان نقله له.

(**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**)

عبر عنه بالصـديق لما رأى منه من آيـات الصـلاح في السجن ، ولما جرّبه شخصيا في تعبير رؤياه ونجاته.

(**أَفْتِنا فِي سَـبْعِ بَقَـراتٍ سِـمانٍ يَـأْكُلُهُنَّ سَـبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ**

يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

يبدو ان صاحب يوسف عرف انه يحب خدمة الناس بينما يكره الطغاة ، لذلك لم يقل : لعلي ارجع الى الملك بل قال (إلى الناس).

[47] وعبر يوسف رؤيا الملك ، بما اهتز له أركان المجتمع ، فبين لهم : ان امامهم سبع سنين من الرفاه والوفرة ، ولكن عليهم ان يستعدوا فيها لسبع سنين جدباء ، فكلما حصدوا أكثر من حاجتهم من القمح احتفظوا به وهي في السنابل لمجابهة أيّام القحط التي تنتهي بسنة صعبة يتوافد عليهم الناس من كل مكان طلبا للقمح.

(**قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً**)

اي تجتهدون سبع سنين في الزراعة ، ويبدو ان الشعب المصري كان في عز حضارته في تلك السنين.

(**فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ**)

اي اعملوا كثيرا ، وكلوا قليلا ، وحافظوا على ثرواتكم للمستقبل ، وهكذا نصح يوسف قوم مصر بأفضل الحكم الحضارية.

[48] (**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ**)

اي تأتي سبع سنين شديدة جدباء تأكلون فيها ما جمعتم في سنين الرخاء.

(**ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ**)

وعبر يوسف (ع) بالسنين وكأنها حيوانات تأكل خيرات السنين الماضيات للإشارة إلى الرؤيا ، وأن السنة تشبه البقرة التي رآها ملك مصر في نومه.

(**إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ**)

فهو الوحيد الباقي لكم.

الحصن هو : الحــرز ، ويبــدوا ان يوسف أشــار عليهم بضرورة المحافظة على انتاجهم في سنين الرخاء بصـورة جيدة.

[49] وأشــار لهم عن الســنة الأخــيرة الــتي انعكست في الرؤيا في صورة ســبع ســنبلات خضر وأخر يابســات ، وهي ســنة القحط الشــديد الــتي يتوافد فيها النــاس الى مصر طلبا لشراء الطعام.

(**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ**)

والغوث : هو نفع يأتي بعد شدة الحاجة ، أو نفع يــأتي لــدفع ضر شــديد ، ويبــدو ان معنــاه قــريب من رفع ضــرر الجوع ، ومنه أطلقت كلمة الغيث على المطر.

(**وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**)

اي يلتجئون طلبا للطعام.

وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (52) وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) وَقالَ

---

51 [خطبكن] : الخطب الأمر الذي يعظم شأنه فيخاطب الإنسان فيه صاحبه.
[حصحص] : اشتقاقه من الحصة أي بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل.
52 [كيد] : الكيد الإقبال سرا لإيصال الضرر الى الغير.

الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَـهُ قـالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَـدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قـالَ اجْعَلْنِي عَلى خَـزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيـظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَـذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُـفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَـوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشـاءُ نُصِـيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشـاءُ وَلا نُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِـنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (57)

---

54 [استخلصـــه] : الاســتخلاص طلب خلــوص الشــيء من شـــائب الاشتراك كأنه يريد أن يكون خالصا به.

[مكين] : المكين من المكانة ، وأصله التمكن في الأمر.

56 [يتبوء] : التبوء اتخاذ منزل يرجع اليه وأصله من باء يبوء إذا رجع.

الملك من بعد

هدى من الآيات :

وعـاد الرسـول الى الملك ، يحمل معه تعبـير الرؤيا ، فلما سمعه الملك دعا يوسف ، فلمّا جاء الرسـول يـدعوه أبى يوسف ان يخـرج من السـجن بعفو بل بإثبـات براءته وادانة الذين اتهموه ، وهكذا عاد الرسول الى الملك الذي أعاد الملف ، وسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل كـان يوسف مذنبا ، فكـررن كلمتهن الشـهيرة (قلن حاشا للـه) ما علمن عليه من سـوء ، وهنالك اعـترفت امـرأة العزيز انها هي التي راودته عن نفسه.

وهكـذا أرسل يوسف الى الملك تلك الرسـالة لاثبـات براءته ، وانه لم يخنه في غيبته عنه ، وان الله لا يهـــــدي كيد الخــــائنين ، ولكن دون أن يــــبرئ نفسه من كل زلة وغطـاء إذ ان النفس امـارة بالسـوء ، ولكن الله هو الـذي يعصم عباده المؤمنين ، وانه غفور رحيم.

وهكــــذا بعد أن ثبتت براءته التامــــة. أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ، ويجعله وزيرا

له ، وطلب يوسف أن يجعله على أمـــــــــوال الدولة لأنه حفيظ لا يخون ، وعليم بالأمور لا يجهل.

وهكذا مكنّ الله ليوسف في الأرض برحمته الواسـعة لأنه كان من المحسـنين ، وهـذا أجر الـدنيا ، وأجر الآخـرة خير للذين آمنوا والذين يتقون ربهم.

بينات من الآيات :

الآن حصص الحق :

[50] صـــاحب يوسف في الســـجن عـــاد الى الملك يحمل اليه بشارة حل اللغز الذي أعجز الملأ من قومه بما فيهم من كبار العلماء ، فأمر الملك بإحضار يوسف عنده.

(**وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ**)

ولكن يوسف أبى الحضـــــــور عند الملك ، إلا بعد ان يثبت عنـده براءته ، وبعد إثبـات فسـاد نظامه الـذي يلقي بشخص في السجن بضع سنين من دون محاكمة أو إثبات للتهمة.

(**فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ**)

أي جاء صاحبه اليه.

(**قــالَ ارْجِــعْ إِلى رَبِّكَ فَسْــئَلْهُ ما بــالُ النِّسْــوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ**)

واحتج يوسف على الملك بالنســوة اللاتي شــهدن له أول يـــوم بـــالبراءة والطهر ، واستشـــهد بهن على زوجة العزيز الــتي اتهمته بــالفجور ، كما ذكــرهم بــربهم العليم بكيدهن.

(**إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**)

يبــدو أن كل النســوة اشــتركن في المــؤامرة ضد يوسف ، لـــــــذلك اتهمن يوسف ، وذكر الملك ان الكيد الشيطاني لا يدوم.

وجاء في حديث ظريف مأثور عن النبي (ص) انه قال بهذه المناسبة :

«**لقد عجبت من يوسف وكرمه وصــبره ـــ والله يغفر له ـ حين سئل عن البقرات العجاف والســمان ، ولو كنت مكانه ما أخـــبرتهم حـــتى اشـــترط أن يخرجــــوني من الســـجن ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ـ والله يغفر له ـــ حين أتــاه الرسـول فقـــــــال إرجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السـجن ما لبث ، لأسـرعت الاجابة وبـادرتهم البـاب وما ابتغيت العذر ـ انه كان لحليما ذا أناة ـ**» [1]

[51] وهكـــذا بقي يوسف في الســـجن الى أن يتم التحقيق في ســبب ســجنه ، واستحضر الملك النســوة وسألهن عن سبب تقطيع أيديهن ، وهل كـان ذلك بسـبب فعل يوسف لشــيء ـــ حاشــاه ـــ ، ولم يحــرن جوابا ، فــاعترفن بحقيقة الأمر ، وان يوسف كــان نقيّ الجيب ، وانهن دونه طلبن الفاحشة.

(**قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ**)

أي هل بسبب إنه كان أهلا لهذا.

(**قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**)

لقد كــان نظيفا للغاية ، واســتعذن بالله من اتهــام يوسف بسوء ، فلما شهدن بالأمر اضـطرت امـرأة العزيز إلى الاعتراف هي الأخرى.

---

(1) نور ثقلين ج 2 ص 431

(**قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُ**)
اي الآن ظهر الحق وأبان عن الباطل.
(**أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**)
فأنا وليس هو الذي طلب منّي الفجور.
[52] وقال يوسف (ع) ـ وهو يؤكد براءته امام عزيز مصر ـ انما اطلب منه التحقيق مجددا ، ليعلم اني بريء ، وأنني لم أخن الملك في بيته وهو غائب عنه.
(**ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**)
وان الخائن كانت امرأته التي لم يوفقها الله ، بل أظهر حقيقتها للناس.
(**وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ**)
والكيد : الحيلة ، والله لا يوفق الخائنين في حيلهم ومكرهم.
[53] ثم أكد يوسف (ع) ان كلامه لا يعني انه من انصاف الآلهة ، وانه ليس من جنس البشر ، وان الذين يعملون السيئات هم من الشياطين. كلا .. بل إن النفس لأمارة بالسوء ، وان السقوط في اوحال الرذيلة ليس بعيدا عن طبيعة البشر ، وانما يعني ان التمسك برسالات الله والتسلح بقوة الايمان والتقوى يمنع من هذا السقوط.
(**وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي**)
فرحمة الله تعطي الإنسان قدرة كبيرة للتغلب على النفس الأمارة بالسوء.
(**إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

المـؤمن يدركه الله في الظـروف الـتي يتعـرض فيها للضغوط الاجتماعية أو النفسية كما فعل سـبحانه بيوسف الذي أحـاطت به أسـباب الرذيلة الاجتماعيـة. حيث هددته زوجة العزيز بالســجن ، وكــذلك عواملها النفســية حيث عرضت امرأة شـابة جميلة نفسـها عليه وهو في عنفـوان شبابه ، حيث الشـهوة الجنسـية في أوجها ، ولكنه نجا من الرذيلة برحمة الله حيث قـــال : «**وَإِلَّا تَصْــــرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ**».

[54] وبعد ان ثبتت بـــراءة يوسف (ع) امـــام الملك طلبه لكي يصبح من المقربين اليه.

(**وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**)

اي اجعله خالصا لنفسي ، أســتعين به في امــوري ، ويبدو ان الكلمة توحي بمفهوم الوزارة عندنا.

وجــاء يوسف (ع) تحــدث معه الملك ، فعــرف رشد عقله ، واكتمال شخصيته من خلال كلامه.

«**فالمرء مخبوء تحت لسانه**»

كما جــاء في الحــديث ، لــذلك خــوّل اليه المناصب الهامة.

(**فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ**)

اي ذا مكانة ثابتة ، واننا نثق بك.

[55] ولكن يوسف (ع) لم يكتف بــذلك ، ولم يفــرح بـالتحول الفجـائي الـذي حـدث عنـده من السـجن ، الى الـوزارة ، بل سـعى من أجل الوصـول الى خطته البعيـدة المدى.

(**قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ**)

اي طالب بما يسـمى بـوزارة المالية ، وادارة البنـوك لأنه عرف ان المشكلة الاساسـية في الدولة هي مشـكلة القحط الـذي سـوف يصـابون به ، وعليه من جهة العمل من أجل حل هذه المشـكلة ، وان يسـعى من جهة اخـرى نحو هداية الناس من خلالها.

وبين أنه أفضل فـرد تخـوّل اليه شـؤون المـال وهو صـــاحب علم وامانة ، فبعلمه يخطط وبأمانته يعمل دون فساد.

(**إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**)

[56] وقبل الملك ذلك ، فلما امتلك يوسف (ع) سلطة المال في الدولة نشر سلطته الى سائر المرافق ، وتمكن في الأرض بفضل ربه الذي جازاه على إحسانه.

(**وَكَـذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُـفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَـوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ**)

اي بنشر سلطته فيها في اي مجال يريد بسبب علمه وأمانته وسلطته المالية.

(**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ**)

ذلك لأن الأمـور بيد الله ، والله سـبحانه اجـرى في الدنيا نوعين من الأنظمة :

النوع الاول : الانظمة الطبيعة ، مثل السعي والحكمة والصبر والاستقامة.

النـوع الثـاني : الانظمة الغيبية مثل الايمـان والتقـوى والإحسان ، ويوسف تقدم من خلال تطبيق هذين النوعين من الأنظمة ، فمن جهة عمل بحكمة وأنـاة واسـتقامة ، ومن جهة ثانية قاوم الشـهوات ، واتقى ربه ، وأحسن الى الناس.

(**وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**)

ان الإحسان الى الناس يتضاعف بإذن الله ليعود إليك في يوم قريب أو بعيد.

[57] وجـزاء المـؤمن في الـدنيا شـاهد على جزائه الأوفى في الآخرة ، وان الله سبحانه لا يخلف وعده معه.

(**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ**)

وهكـذا نسـتوحي من هـذه الآيـات ان أسـباب التقـدم الغيبية هي التقـوى والايمـان والإحسـان بيد ان الإحسـان أشد وأسرع أثرا في أمور الدنيا.

وجاء في حديث مأثور عن الامام الرضا (ع):

«**واقبل يوسف على جمع الطعـــــام فجمع في السـبع السـنين المخصـبة ، فكبسه في الخـزائن ، فلما مضت تلك السـنون ، وأقبلت المجدبة اقبل يوسف على بيع الطعام فبـاعهم في السـنة الاولى بالـدراهم والـدنانير حـتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في مملكة يوسف ، وبـاعهم في السـنة الثانية بـالحلي والجـواهر حـتى لم يبقى بمصر وما حولها حلي ولا جـــواهر ، الا صــــار في مملكته ، وبــــاعهم في الســـنة الثالثة بالــــدواب والمواشي حـــتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية ، الا صارت في مملكته ، وبـاعهم في السـنة الرابعة بالعبيد والإمـاء حـتى لم يبق بمصر عبد ولا امة الا صـــار في مملكته ، وبـــاعهم في الســـنة الخامسة بالـدور والعقـار حـتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقـار الا صـار في مملكته ، وبـاعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهـار حـتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة الا صار في مملكته ، وباعهم في السنة السابعة برقـابهم حـتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر الا صـــار عبد يوسف ، فملك احرارهم وعبيدهم وأموالهم ، وقال الناس ما رأينا ولا ســـمعنا بملك أعطـــاه الله من الملك ما اعطى هذا الملك حكما وعلما وتدبيرا**».

ثم قـال يوسف للملك : «**ايها الملك ما تـرى فيما خوّلني ربي من ملك مصر**

وأهلهـا؟! اشـر علينـا برأيـك فـاني لم أصـلحهم لأفسدهم ، ولم انجهم من البلاء لأكون بلاء عليهم ، ولكن الله أنجـاهم على يـدي قـال لـه الملـك الـرأي رأيك.

قـال يوسف : اني اشـهد الله وأشـهدك ـ ايها الملك ـ اني قـد أعتقت أهـل مصـر كلهم ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم ، ورددت عليك ايهـا الملـك خاتمك وسـريرك وتاجـك على الا تسـير الا بسـيرتي ولا تحكم الا بحكمي.

قال له الملك ان ذلك لزيني وفخري ألّا أسير إلّا بسـيرتك ، ولا أحكم الا بحكمك ، ولـولاك ما قـويت عليه ولا اهتـديت له ، ولقد جعلته سـلطانا عزيـزا لا يرام ، وانا اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شـريك له ، وانك رسـوله ، فـأقم على ما وليتك ، فانك لـدينا مكين أمين». [1]

وجاء في خبر :

«ان يوسف (ع) كان لا يمتلئ شـبعا من الطعـام في تلك الأيـام المجدبة فقيل له : تجـوع وبيـدك خزائن الأرض ، فقال (ع) : أخـاف ان أشـبع فأنسى الجياع»

---

(1) نور الثقلين ج 4352

سورة يوسف

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (60) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (61) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ

---

59 [جهزهم بجهازهم] : اجهاز البيت متاعه ، وجهزت فلانا هيأت جهاز سفره.
61 [سنراود عنه أباه] : نصرفه عن رأيه.
62 [بضاعتهم] : ثمن ما اشتروه من الطعام.
[رحالهم] : الرحال جمع وهي الاوعية ، ومفردها رحل ، وأصله الشيء المعد للرحيل من وعاء المتاع ومركب البعير.

قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (63) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (66)

---

63 [نكتل] : يقال كلت فلانا أي أعطيته الشيء كيلا واكتلت عليه أخذت منه.
64 [آمنكم] : الأمن اطمئنان القلب الى سلامة الأمر.
66 [ونمير] : الميرة الأطعمة التي تحمل من بلد الى بلد ، ويقال مرتهم أميرهم ميرا إذا أتيتهم بالميرة.
[موثقا] : عهدا مؤكدا باليمين.

فتنة اخوة يوسف

هدى من الآيات :

ومضت السـنون الاربعة عشر السـمان فالعجـاف ، وجاء عام الاغاثة ، وضاعت الحياة بأهل فلسـطين وسـعى اخـوة يوسف الى مصر ـ فيمن سـعى ـ للحصـول على نصيبهم من المؤونة لقاء ما عندهم من سلع أو نقود.

فلما وردوا مصر دخلوا علي أخيهم ، فعـرفهم يوسف دون أن يعرفوه ، وأمر بـأن يهيأ لهم نصـيبهم ثم قـال لهم (**ائْتُـونِي بِـأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ**) ، أفلا تجـدوني اني أوفي الكيل وأحسن الضـيافة ، وإلا فلا أعطيكم نصـيبه ولا أقـربكم الى نفسي ، قـالوا سـنحاول ذلك مع أبيه ، وقبل أن يرحلوا أمر يوسف بـأن يجعل السـلعة الـتي جـاؤوا بها في رحـالهم لعلهم يعرفونها ، فيعـودون الى مصر دون أن يمنعهم قلة الـزاد أو خشـية الجفـاف ، فلما عـاد اخـوة يوسف قـالوا لأبيهم ان الكيل قد منع منا حـتى تبعث معنا أخانا نكتل له ، وانا له لحافظون ، وعـاد يعقـوب يـذكرهم بمصـير أخيهم يوسف بعد أربعين عاما ، وقـال هل آمنكم عليه كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل؟! ثم

قـــرر أن يتوكل على الله بعد أن عـــرف من أبنائه التوبة والصـــــدق ، فقـــــال : الله خـــــير من يحفظ وهو أرحم الراحمين.

ثم حين فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم ، فقــالوا لأبيهم مــاذا نطلب لقد ردّت إلينا بضــاعتنا ، وانا نسـعى من أجل الحصـول على الطعـام لأهلنا ، بالاضـافة الى كيل نأخـــذه لاخينا وهو كيل يســـير بالنســـبة لحاجتنا الماسة ، قال أبوهم : كلا .. لن أرسله معكم حتى تــأتوني بوثيقة وعهد من الله بإعادته اليّ إلّا إذا لم تقـــــدروا على ذلك ، فلمّا أعطـــوه الموثق قــال يعقــوب : الله على ما نقول وكيل.

وهكـذا بعد اليمين المكـرّر أذن الشـيخ لابنه العزيـزة بالرحيل مع اخوته طلبا للمايرة.

بينات من الآيات :

بعد أربعين عاما مرت على قصة الجب :

[58] أربعـــون عاما مـــرّ على قصة الجب ، ويوسف ذلك الغلام المتــوهج جمــالا واناقة قد أصــبح اليــوم رجلا عركته المآسي والـــــــويلات ، وجلس على أريكة الملك بملابسه الزاهيـة. كل ذلك مع هيبة السـلطنة منعت اخوته من معرفته ، أما يوسف فقد عـرفهم بسـرعة لأنهم كـانوا رجالا حين تركهم.

(**وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْـهِ فَعَـرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**)

قبل أربعين عاما نبذ هؤلاء أخاهم يوسف منكرين له ، فقطعـــوا رحمهم ، بينما هو وصل رحمه ، وكـــانت عاقبة الأمر هو ان يجازيه الله بالملك والمعرفة ويجـــــــــازيهم بالحاجة والجهل.

[59] وبعد أن أعدّ لهم ما جاؤوا من أجله من طعام ، استدرجهم يوسف بحديثه

حــتى اعــترفوا له أنّ لهم أخا من أبيهم ، ومن زوجة ثانية لأبيهم لا يصاحبهم ، فطلب منهم أن يأتوا به ، وقـال : اني لا أريد ظلمه أو ظلمكم ، ولكـــني أريد الخــــير لكم. أفلا ترون اني أوفي الكيل وأحسن الضيافة؟!

(**وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**)

ويبدو من هـذه الآية ان يوسف أعطى لأخوته مقـدارا من الطعام ومنع عنهم مقدارا.

[60] وبعد أن رغّبهم في عطائه الجزيـل. هـددهم أنه لو لم يأتوا بأخيهم فانه سوف يمنع عنهم الكيل.

(**فَــإِنْ لَمْ تَــأْتُونِي بِــهِ فَلا كَيْــلَ لَكُمْ عِنْــدِي وَلا تَقْرَبُونِ**)

أي في المستقبل.

[61] اخـوة يوسف الـذين اذهلتهم المفاجـأة وعـدوه بتنفيذ أمره ، ومحاولة اقناع والده بالأذن له بالمجيء.

(**قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ**)

[62] ولكن يوسف لم يرض بـأن يأخذ منهم أمـوالهم الـتي جـاؤوا بها لأخذ المـيرة ، بل أمر غلمانه بـأن يجعلـوا بضاعتهم في أمتعتهم لكي يعرفـوا أنها لهم ، ولكي يكـون لديهم دافع للمجيء الى مصر مرة اخرى.

(**وَقــالَ لِفِتْيانِــهِ اجْعَلُــوا بِضــاعَتَهُمْ فِي رِحــالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُــــــــوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

إذا عرفوا بضـاعتهم عرفـوا ان الملك رحيم بهم ، فلا يخشون ظلمه فيعودون اليه.
[63] وقطعــوا تلك المســافة الطويلة قــافلين الى أبيهم ، فلما تلقاهم أبـوهم قـالوا له ان ملك مصر منع عنا الكيل فلم يعطنا كل حصتنا من الطعـام ، وطالبنا بإحضـار أخينا من أبينا ، فأرسله معنا لكي نأخذ نصـيبنا وانا سـوف نحفظه.
(**فَلَمَّا رَجَعُـوا إِلى أَبِيهِمْ قــالُوا يا أَبانا مُنِـعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**)
[64] وأعاد يعقوب عليهم قصـتهم مع يوسف ، وكيف فرّطوا فيه.
(**قالَ هَـلْ آمَنُكُمْ عَلَيْـهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيـهِ مِنْ قَبْلُ**)
فأنتم لا تحفظـون عهـدكم ، ولكن لا آمنكم عليه ، بل اتـرك الأمر الى الله ، واجعله حافظا له فهو أفضل حافظ ، وخير راحم لعباده.
(**فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**)
[65] وكانت المفاجـأة عند ما فتحـوا أمتعتهم ليجـدوا فيها بضــاعتهم الــتي اشــتروا بها الطعــام ، فآنئذ ازدادوا إلحاحا على أبيهم بالسماح لأخيهم بالسفر معهم.
(**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي**)
أي ماذا ننتظر أكثر من هذا ، لقد أوفي الكيل ، وردت البضاعة إلينا.
(**هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا**)
ثم شـــــرعوا في تشـــــجيع أبيهم على الأذن لأخيهم بالسفر معهم.

(**وَنَمِيرُ أَهْلَنا**)

أي نأتي بالطعام لهم.

(**وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ**)

حيث ان كل واحد كان يكال له بقدر حمل بعير.

(**ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**)

أي ميسور الحصول. حيث باستطاعتنا جلبه بسهولة.

[66] ولان قلب يعقوب ، لكنه طلب منهم تعهدا أكيدا بإعادة أخيهم اليه.

(**قـالَ لَنْ أُرْسِـلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُـونِ مَوْثِقـاً مِنَ اللهِ**)

أي تتعهدون لي بذلك تعهدا دينيا ..

(**لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ**)

تردونه عليّ إلّا عند ما تغلبـــون على أمـــركم ، فلا تقدرون على ذلك ففعلوا ، فـاذن يعقـوب لهم باصـطحاب ابنه الذي تسلى به عن يوسف.

(**فَلَمَّا آتَـوْهُ مَـوْثِقَهُمْ قـالَ اللـهُ عَلى ما نَقُـولُ وَكِيلٌ**)

فالله وكيل بيني وبينكم على هذا الأمر.

ان الله ابتلى يعقــوب مــرة بغيــاب يوسف فصــبر ، وابتلاه هذه المرة بغياب ابنه بنيامين شقيق يوسف فصـبر أيضا بـالرغم من التجربة السـابقة الـتي كـانت عنـده من أبنائه اخــوة يوسف الــذين رمــوا به في غيــابت الجب ، وهكذا تجاوز يعقوب حساسيته

النفســية لما رأى ضــرورة عقلانية لبعث ابنه العزيز عليه مع اخوته ، وهكــذا جعل الله ذلك وســيلة لانهــاء محنته الطويلة.

ومن جهة اخــرى يبتلي الله اخــوة يوسف مــرة ثانية بذات المشكلة السابقة تقريبا ليجـرب مـدى صـدقهم في ادعاء التوبة ، ولكي يجزيهم بسوء أعمالهم السابقة.

وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

69 [آوى] : يقال آوى منزله ، يأوي أويا إذا صار إليه.
[تبتئس] : الابتئاس الاغتمام واجتلاب البؤس والحزن.
70 [السقاية] : الإناء التي يسقى منها وهو من السقي ، وقيل السقاية والصواع واحد.

الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (70) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (71) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قالُوا تَاللهِ لَقَـدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِـــدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا ســـارِقِينَ (73) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (74) قالُوا جَــزاؤُهُ مَنْ وُجِــدَ فِي رَحْلِــهِ فَهُــوَ جَــزاؤُهُ كَــذلِكَ نَجْــزِي الظَّالِمِينَ (75)

[العير] : القافلة.

72 [زعيم] : كفيل والزعيم أيضا القائم بأمر القوم وهو الرئيس.

انّي أنا أخوك

هدى من الآيات :

وبعد ان أخذ يعقـــــــوب موثقه من أبنائه بعث معهم أخـاهم ، وأوصـاهم بـألا يـدخلوا في مصر من بـاب واحد ليمنع عنهم الشر لو كـان قد خطط ضـــدهم به ، وأكد ان هذا الاجراء لا يقـاوم قضـاء الله ، وان الحكم لله ، وينبغي ان يتوكل عليه المتوكلـــون ، فـــذهبوا ولما وصـــلوا مصر دخلوا حسبما أمرهم أبوهم ـ اي من أبواب شـتى ــ ولكن البلاء قد قـدر لهم. نعم اسـتطاع يعقـوب بـذلك ان يمتحن عمليا مدى طاعتهم بالغيب له.

فلما دخلوا عليه اقـترب يوسف (ع) الى أخيه من امه وكشف له السرّ ، وأمره بألا يحزن بما كـانوا يعملـون من الأذى به ، ولما جهـــــزهم جعل الكيل في امتعة أخيه من امه ، ثم نادى منادى الدولة : أيتها العـير انكم لسـارقون ، وكانت تلك مفاجأة ثانية بالنسبة إليهم. حيث أسـرعوا الى المنادي ، وقالوا له : ماذا تفقدون؟ قـالوا نفقد كيل الملك وحددوا جائزة لمن كشف عن السـارق وهي حمل العـير ، وأكد يوسف (ع) على انه

كفيل بإعطــاء ذلك الكيل لأهميته عند النــاس في ســني المجاعـة. قـال اخـوة يوسف وهم يحلفـون بالله لم نـأت لكي نفسد في الأرض أو نسرق ، فسـألهم : مـاذا لو وجد الكيل عند واحد منكم ، وما هو جزاؤه؟ قـالوا ان السـارق سوف يكون شخصيا جزاء جريمته ، وبإمكـان السـلطة ان تأخــذه عبــدا لما اقترفه ، وهكــذا تأمرنا قــوانين بلادنا ، وهكــذا تم ليوسف ما أراد حيث وجد مــبررا لإبقــاء أخيه عنده.

بينات من الآيات :

قاعدة امنية :

[67] قبل ان يرحل أبنـاؤه عنه أوصـاهم يعقـوب بـألا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب شتى.

(**وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَـدْخُلُوا مِنْ بـابٍ واحِـدٍ وَادْخُلُـوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**)

والسؤال لماذا؟

هل خشي عليهم من العين الحاسدة. حيث انهم كانوا ذوي هيئة وجمــال ، وكــانوا مجموعة اخــوة من أب واحد متحدين ، أم أراد ان يجرب مدى طاعتهم له وهم بعيـدون عنه ، أم انه خشي عليهم من الســـــلطة الــــتي طلبتهم باصطحاب أخيهم؟

يبدو من السياق ان الاحتمـال الأخـير أقـرب الى ذلك لأن يعقـوب أكد لهم ان مثل هـذا الاجـراء لا يحفظهم عن الله ، وان قــــدرة الله محيطة بهم ، وبســـلطات مصر ، وعلى الإنسـان ان يتحـذر من مكر أعدائه ، ولكن دون ان يــترك التوكل على الله الــذي يعطيه الشــجاعة والتواضع والسعي الدائم الأفضل قال يعقوب :

(**وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**)

أي ان تدبير الأمور في الحياة بيد الله سبحانه.

(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**)

اي ليس من الصـــــــحيح ان يعتمد أحد على ذكائه أو حذره وخططه بل على الله.

[68] وهكذا انفصل اخوة يوسف عن بلدهم ، ودخلـوا مصر من أبواب متفرقة مثلما أمرهم أبوهم ، وكانت خطة ملك مصر أسـبق من خطة والـدهم ، فلقد خطط يوسف للإبقـاء على واحد منهم من أجل اسـتدراجهم الى مصر ، وهكذا غلب التوكل الحذر.

(**وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُـوبَ قَضاها**)

تلك الحاجة هي امتحـــانهم ، أو دفع الحسد عنهم ، أو المحافظة عليهم والاطمئنان على سلامتهم.

وبالرغم من ان التوكل يغلب الحذر ، فأن على البشر الا يترك الحـذر ، وهكـذا يمـدح الله يعقـوب على الانتفـاع بعلمه ووصـيته لأبنائه بأخذ الحيطة بـالرغم من ان ذلك لم ينفعهم شيئا بعد ان هيئت أسباب بقائهم بمصر.

(**وَإِنَّهُ لَـذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْنـاهُ وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

لقد كان يعقـوب عالما اسـتفاد من علمه الـذي علمه ربه ، ولكن أكـثر النـاس لا يسـتفيدون من علم الله ، فلا يعلمون شيئا.

لقاء الأخوين :

[69] ودخلوا على يوسف فقرب أخاه بنيامين ، وأسر إليه بأنه هو يوسف صاحب

الجب ، لكي لا يحزن للخطة التي سوف يطبقها عليه.

(**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

لقد كـانت آثـار الحـزن بادية على بنيـامين ليس فقط لما فعلــوا بشــقيقه يوسف من قبل ، انما أيضا بما كــانوا يعملـون به من التميـيز. فطمأنه يوسف ودعـاه الى تـرك الحزن.

[70] ولأجل الإبقاء على أخيه جعل الكيل الذي يكتال به والذي سماه القرآن مره بالسقاية لأنه كان يسقى به ، ومرة بالصواع لأن الكيل كان بقدر صـاع ، جعله في امتعة أخيه.

(**فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْـلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ**)

اي أيتها القافلة انكم لسارقون.

[71] وكانت دهشتهم بالغة من هذه التهمة الكبــيرة ، لذلك اجتمعوا اليه وهم يسألون عما فقد.

(**قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ**)

[72] (**قالُوا نَفْقِـدُ صُـواعَ الْمَلِـكِ وَلِمَنْ جـاءَ بِـهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ**)

فبكفالتي سيحصل الذي يـدلنا على مكـان الكيل على حمل بعير من الطعام.

[73] فتــبرأ أخــوة يوسف من هــذه التهمة ، وحلفــوا بالله : أنهم لم يهـدفوا الفسـاد في الأرض والسـرقة حين جاؤوا الى مصر. انما جـاؤوا لطلب المـيرة كما تـدل على ذلك

شواهد حالهم ، أما أحوالهم السابقة فلم تكن لهم سوابق السرقة.

(**قــالُوا تَاللــهِ لَقَــدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِــدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ**)

يقــال : ان اخــوة يوسف أعــادوا اليه ما وجــدوه في رحــــــــالهم. زعما منهم بأنه قد وضع خطأ ، وانهم حينما دخلــوا مصر ســدّوا أفــواه دوابهم لكي لا تأكل من زرع النــاس احتياطا على دينهم وكل ذلك دفعهم الى الاعتقــاد بان ملك مصر وملائه على يقين بصلاحهم ، وبــراءتهم عن تهمة السرقة.

عقاب السرقة :

[74] وقبل ان يستخرج يوسف الصــاع من رحل أخيه بنيامين. سأل اخوته عن جـزاء الســارق في دينهم ، وكـان هـذا أسـلوبا جديـدا في الحكم ان يعـترف المجـرم بحكم الجريمة لو ثبتت عليه : ـ

(**قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ**)

[75] كـــان ولا يـــزال جـــزاء الســـرقة مختلفا عند الشعوب باختلاف الظروف المعيشية ، ولأن السرقة خرق للنظام الاقتصادي القــائم وللقــوانين الاجتماعية الحاكمة ، فلا بد ان يكـــون عقابها متناســـبا مع ذلك النظـــام وتلك القوانين ، وفي مصر حيث الرخــاء كـانت الســرقة خروجا على العرف الاجتماعي وجزاؤها الضـرب والسـجن ، بينما في فلسـطين ذلك اليـوم حيث القحط كـانوا يسـتعبدون السارق بقدر سرقته لأن السرقة كانت بهدف أخذ حقــوق الناس ولدوافع اقتصادية.

لذلك تجدهم يحددون جزاء السارق حسب بلدهم.

(**قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ**)

اي فان السارق بذاته سوف يصبح جزاء سرقته.
(**كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**)
وتمت ليوسف خطته الــتي اســتهدفت الإبقــاء على أخيه عنده.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (77) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (79) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ

---

77 [فأسرها] : كتمها.

80 [خلصوا نجيّا] : انفردوا للتناجي والتشاور والمناجاة ، المشاورة والاختفاء في الكلام.

تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقـاً مِنَ اللـهِ وَمِنْ قَبْـلُ ما فَـرَّطْتُمْ فِي يُوسُـفَ فَلَنْ أَبْـرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْـرُ الْحـاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَـرَقَ وَما شَـهِدْنا إِلاّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حـافِظِينَ (81) وَسْئَلِ الْقَرْيَـةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِـيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (82)

[فلن أبرح] : لن أفارق.

يوسف خطة حكيمة

هدى من الآيات :

فلما اعترفوا بجـزاء السـارق. امر بتفـتيش أمتعتهم ، ولكن بدأ برحـالهم ، ثم فتح امتعة أخيه واسـتخرج الصـاع منها ، وحق له ان يحتفظ بأخيه عنده جزاء سـرقته ، بينما لم يكن بإمكانه حسب انظمة الملك ان يفعل ذلك الا ان الله علمه خطة حكيمة ، وهكـذا يتفاضل النـاس في العلم بما يعلمهم الله سبحانه.

ولكي يـبرءوا سـاحتهم قـالوا بأنه ليس شـقيقنا ، وان شـــقيقه يوسف كـــان قد ســـرق هو الآخر ، فكتم يوسف الحادثة في نفسه ، واكتفي بان قـال لهم : كلا .. أنتم شر مكانا بما تتهمـون شخصا غـير حاضر ، كما توافقـون على تهمة غير ثابتة بحق أخيكم ، والله اعلم بما تقولون!!

ولكنهم لم يقـــدروا على فصل مصـــيرهم عن مصـــير أخيهم بعد ان أخذ منهم أبوهم الميثاق ، فتوسـلوا بـالعزيز للعفو عنه لمكـــان والـــده العجـــوز ، وطلبـــوا منه ان يأخذ أحـــدهم مكانه ، ولكنه رفض وقـــال : انه ظلم ان نســتعبد غير السارق ، أما هم فتنكبوا جانبا

وتناجوا بينهم ، فـذكرهم كبـيرهم بعهـده الإلهي مع أبيهم ، وبما فعلوا سـابقا بيوسف ، وقـال : اني سـأبقى هنا حـتى يسـمح لي أبي ، أو يحكم الله لي وهو خـير الحـاكمين ، وأمرهم بأن يعودوا الى أبيهم ، ويقولوا له ان ابنك سرق ، ولكنا لا نشهد ضـده الا بقـدر ما علمنا من ظـواهر الأمـور دون ان نعلم الغيب ، وبإمكانك ان تسـأل أهل مصر ، أو تسأل القوافل المسافرة. وانا لصادقون.

بينات من الآيات :

استخراج السقاية :

[76] بـدء يوسف يفتش اوعية اخوته من أبيه الـتي كـانت مليئة بالحنطة بتهمة وجـود الكيل داخلها ، ولم يفتش متاع أخيه الا أخيرا ، فوجدوا الصاع فيه.

(**فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ**)

اي استخرج السقاية من امتعة أخيه من امه بنيامين ، وانما فعل كل ذلك مبالغة في السرية ، واحكاما للخطة.

(**كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ**)

اي هكـذا علمنا يوسف الخطة والكيد : كل فعل لا يعرف الآخرون هدفك منه الذي قد يكـون الإضـرار بهم أو الانتفاع منهم دون معرفتهم بوجهه.

ولم يكن باسـتطاعة يوسف وهو عزيز مصر ان ينفذ قانونا اجتماعيا يرعـاه ملك مصـر. ان يظلم النـاس ، ويستعبد الذين جاؤوا لشراء الطعام الا بالكيد الـذي علمه الله.

(**ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**)

ولقد شـــاء الله ان يـــأتي بعائلة يوسف الى مصر ، فعلّم يوسف هـذه الخطة ، واجـرى مشـيئته على يد وليه الصـــالح يوسف (ع) وهكـــذا نعلم ان محتـــوى الأحكـــام الشـــرعية والحكم البالغة الـــتي هي وراء سن الأحكـــام ، وتشـــريع الأنظمة وان الله كلف الأنبيــاء بقــدر عقــولهم ، فمنهم من فـــرض عليه التقيد بحرفية الأنظمة الشـــرعية كســـــائر النـــــاس ، ومنهم من أوجب عليه العمل وفق الغايــات الســامية الــتي يــوحي بها إليهم الله ، ليحققــوا مشــيئة الله كالأنبيــاء والأئمة والعلمــاء الــذين بــدورهم يختلفون في درجاتهم ، وعلى الأقل علما منهم ان يهتــدي بنــور الأكــثر علما ، والله يرفع من يشــاء بحكمته وعلمه ممن هم أصلح من غيرهم.

(**نَرْفَـعُ دَرَجـاتٍ مَنْ نَشـاءُ وَفَـوْقَ كُـلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**)

خبث التهمة :

[77] فـور ما تـراءى لهم ان أخـاهم قد سـرق نسـوا عهـدهم مع والـدهم يعقـوب بإعـادة أخيهم بنيـامين اليه سالما ، ونسوا ما فعلوه بأخيهم يوسف ، فاذا بهم يؤكدون تهمة أخيهم ، ويتـبرءون منه ، ويعـودون الى اتهـام يوسف بالسرقة أيضا.

(**قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ**)

وبذلك اخطـأوا مـرتين : عند ما أكـدوا تهمة بنيـامين ، وعند ما اتهموا أخـاه يوسف بالسـرقة من دون اي سـبب سوى إنقاذ أنفسهم من المشكلة ، ويبدو ان شبح الجريمة التي قاموا بها بحق أخيهم يوسف ظل يلاحقهم ، فـاذا بهم حساســـون من إلصـــاق اية تهمة بهم خشـــية ان يفضح أمرهم ، وإذا بهم لا يزالون يبررون بيعهم لأخيهم الحر بأنه كان قد سرق ، فاستعبد وبيع جزاء سرقته ، وكانت التهمة شـــــديدة الوقع على قلب يوسف ولكنه ملك نفسه ، ولم تظهر على ملامحه آثار الغضب.

(**فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ**)

ولكنه إكتفي بتأنيبهم على ذكر أخيهم بسوء.

(**قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً**)

ويطرح المفسرون هـذا السـؤال : مـاذا كـان التـبرير الظـاهر ليوسف حينما قـال لهم : «**أَنْتُمْ شَـرٌّ مَكانـاً**»؟ فأجاب بعضـهم : ان هـذا القـول أسـره يوسف في نفسه دون ان يبديه لهم ، وبعضـــهم قـــال : بل ظهر للنـــاس الشقاق القـائم بينهم وبين أخيهم بنيـامين مما كـان يكفي لتأنيبهم ، وربما كان يوسف يـذكرهم بـأن جفـاءهم لأخيهم هو السـبب في سـرقته لو انه فعلا ارتكبها ، ولكنه هز ضميرهم بقوله :

(**وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ**)

وانه هل هو فعلا صحيح أم لا؟ وبالتالي. هل قد سـرق اخوه أم ان ذلك ليس سوى تهمة؟

[78] وتذكروا مـوقفهم مع أبيهم يعقـوب ، واكتشـفوا ان مصـــيرهم بالتـــالي مرتبط بمصـــير أخيهم ، فأخـــذوا يتضرعون الى عزيز مصر بـأن يعفو عن أخيهم أو ان يأخذ أحدهم مكانه.

(**قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِـيراً فَخُـذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**)

وهكذا يـتردد البشر بين حـالتين متناقضـتين فـبين ان يتهم الأبريـاء بالسـرقة وبين ان يفـدي بنفسه في سـبيل الوفاء بعهده.

[79] اما يوسف (ع) الـــــــذي رتّب كل تلك الخطة للإبقاء على أخيه عنده ، فرفض العرض.

(**قـالَ مَعـاذَ اللـهِ أَنْ نَأْخُـذَ إِلَّا مَنْ وَجَـدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ**)

وذكـــرهم بـــذلك ان الإحســـان يجب الا يمنع تنفيذ القوانين السائدة. والا ينقلب الى ظلم ، فالإنسـان يحسن في إعطــاء ماله وما هو اولى به ، ولا يحسن في امــوال الناس وحقوقهم ، ولذلك جاء في الإسلام :

«لا شفاعة في حد»

الموقف المسؤول :

[80] ألحــوا على يوسف ــ عبثا ــ بـترك أخيهم بأية وسيلة ممكنة ، فلما بلغوا حد اليأس اجتمعوا الى بعضـهم يتناجون فقال كبـيرهم وأسـمه روبين كما يقـال ، وهو ابن خالة يوسف وهو الذي نهاهم من قتله من قبل قـال لهم : إننا قد عاهـدنا الله عند أبينا الا نفـرط في أخينا ، وقد كنا فعلنا مثله مع يوسف ، فتعهـــــدنا وأخلفنا ، ولا يمكن ان نكـرر الأمر ، واني سـأبقى هنا انتظر امر الله ، فأما يـأذن لي أبي أو يأذن لي ربي.

(**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ**)

قـــال ابن كثـــير : «استيأســـوا منـــه» و «اســـتيأس الرسـل» ويئس واسـتيأس بمعـنى مثل سـخر واستسـخر وعجب واستعجب.

ولكن يبدو ان اليأس هو : العلم الصادق بعـدم فائـدة المحاولة بينما الاســتيئاس هو الظن بــذلك الــذي يداخله الضعف النفسي للبشر ، وإذا كان هذا المعنى صحيحا فان ذلك يعني ان اخـوة يوسف كـانوا غـير مسـتقيمين نفسـيا بســـبب الجريمة الســـابقة الـــتي ارتكبوها بحق أخيهم ، ولذلك فهم يأسوا سريعا ..

(**خَلَصُوا نَجِيًّا**)

اي انفردوا عن الناس حتى أصبحوا خالصين من دون غريب يشاركهم الأمر ، وهدف خلوصهم وانفرادهم كان النجوى ، وهنا من أبلغ ما نفهمه من آيات القرآن في اناقة الظاهر وعمق الباطن ، وتنوع المعنى.

(**قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ**)

اي بعد ان أخذ أبوكم منكم موثقا أيضا.

(**فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ**)

اي حتى يأذن لي صاحب الحق أو صاحب التشريع ، وهكذا تجلت في أخيهم الأكبر روح المسؤولية ، وظهر انه تاب الى ربه توبة نصوحا.

[81] وأمرهم روبين وهو أكبر الأخوة بالعودة ، وبيان كل الحقيقة ومن دون اضافة آرائهم إليها ، قال لهم :

(**ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**)

ولكن دون ان تؤكدوا التهمة ، بل قولوا لأبيكم أيضا.

(**وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا**)

إذ رأينا انهم اخرجوا السقاية من وعائه ، ولم نشهد بأكثر من هذا.

(**وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ**)

لم نكن حافظين لما يجري في الواقع ، ولذلك لا نعرف هل سرق أخونا أم لا ، ولعله تهمة ، يبدو ان تفريطا حصل منهم بشأن أخيهم حيث قبلوا من دون تردد تهمة

السلطات ضد أخيهم وذلك بسبب سوء ظنهم به وبـأخيهم يوسف من قبل.

[82] وبإمكانك ان تســـأل المجتمعين ببلد مصر ، أو تسأل العائدين من هناك.

(**وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها**)

اي أهل القرية.

(**وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها**)

اي : ايّ مسافر قادم مع قافلتنا.

(**وَإِنَّا لَصادِقُونَ**)

قـالَ بَـلْ سَـوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُـكُمْ أَمْـراً فَصَـبْرٌ جَمِيـلٌ عَسَــى اللــهُ أَنْ يَــأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعــاً إِنَّهُ هُــوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَــوَلَّى عَنْهُمْ وَقــالَ يا أَسَــفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنـاهُ مِنَ الْحُـزْنِ فَهُـوَ كَظِيمٌ (84) قالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُـفَ حَتَّى تَكُـونَ حَرَضـاً أَوْ تَكُــونَ مِنَ الْهــالِكِينَ (85) قــالَ إِنَّما أَشْــكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللـهِ ما لا تَعْلَمُـونَ (86) يا بَنِيَّ اذْهَبُــوا فَتَحَسَّسُــوا مِنْ يُوسُــفَ وَأَخِيــهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ

---

83 [سوّلت] : زينت وسهلت.

84 [يا أسفي] : يا حزني.

[كظيم] : الكظم اجـتراع الحـزن وهو أن يمسـكه في قلبه ولا يبثه في غيره.

85 [تالله تفتؤا] : لا تزال.

[حرضا] : الحرض المشرف على الهلاك.

86 [البث] : الهم الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثه.

87 [فتحسّسوا] : التحسس طلب الشيء بالحاسة.

إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (87) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (89) قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (91) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

[روح الله] : الروح الراحة ، والروح الرحمة ، وأصل الباب من الريح التي تأتي بالرحمة.

ولا تيأسوا من روح الله

هدى من الآيات :

وعاد اخـوة يوسف (ع) الى أبيهم وبغم جديد ، وخـرق للميثـاق ، فلم يصـدقهم يعقـوب (ع) بـان أخـاهم سـرق ، واتهمهم بتدبير حيلة جديدة ، ولكنه تذرع بالصبر الجميل ، ووضع كل أمله على الله العليم الحكيم ، وتـــرك أبنـــاءه وأعاد نوحه على ابنه يوسف (ع) وأسفه عليه حـتى مشى البياض في سواد عينه ، وكادت تعمى ، وحتى بدى للناظر في مظهره المليء ، بالهموم. الكاظم نفسه عنها. أما هم فقد أشفقوا عليه وقالوا : انك لا تـزال تـذكر يوسف حـتى تشـــرف على الهلاك أو تهلك فعلا ، ولكن يعقــوب تمسك بهدى ايمانه فلم ييأس وقال : اني أشكو همومي واحزاني الى الله الذي اعلم انه ارحم الراحمين ، وانه يفي بوعــده باستخلاف يوسف وسـجود اخوته امامه وأمـرهم بتكـرار ، المحاولة لعلهم يقـرون على يوسف ، ونهـاهم عن اليـأس الـذي هو بضـاعة الكفـار الـذين لا يؤمنـون بالله وبرحمته الواســعة ، واســتجاب اخــوة يوسف لأمر والــدهم الــذي أشفقوا عليه ، وبلغ ندمهم على فعلهم السابق مبلغ التوبة النصوح.

فذهبوا الى مصر ودخلوا على العزيز وقـالوا له بلهجة المتضرع : اننا قوم قد أحاط بنا البلاء حتى تحسسـنا بـألم الفقر ، ولا نملك الا بضــاعة رديئــة. ونســألك ان تعتبرها جيـدة فتـوفي لنا الكيل بقـدر البضـاعة الجيـدة ، وتصـدق علينا بإطلاق أخينا فالله يجزي المتصدقين الذين يحسنون الى النـاس ابتغـاء مرضـاته ، ورأى يوسف ان الـوقت قد حان للكشف عن نفسه فقال.

هل تـــــذكرون ما فعلتم بيوسف في أيــــام جهلكم تحسـبون ان باسـتطاعتكم سـلب حب أبيه عنـه؟ وكـان أبـوهم قد أعطـاهم الأمل في البحث عن يوسف ، وجـاء سؤال العزيز عن يوسف غريبا فقالوا : أإنك لأنت يوسف. قـال : انا يوسف وهـذا اخي. انظـروا كيف منّ الله علينا بسبب التقوى والصبر والإحسان ، وبالرغم من انفة اخـوة يوسف الشـديدة من الاعـتراف بفضل يوسف سـابقا. الا أنهم حلفوا الآن بالله بأن الله قد فضّله عليهم ، وانهم هم الخـــاطئون ، فعفي عنهم يوسف ، واســـتغفر الله لهم وأملهم من رحمة ربهم الـذي هو ارحم الـراحمين وطلب منهم العـودة الى أبيهم مع قميصه ليسـتعيد بصـره الـذي فقده لحزنه ، وليأتوا بأهله جميعا ليشهدوا نعم الله عليه.

بينات من الآيات :

نفحات الأمل :

[83] لماذا اتهم يعقوب أبناءه بالكذب بعد ما اخـبروه بواقع ما جرى عليهم من احتجـاز السـلطات لأخيهم بتهمة سرقة صواع الملك ، وقال لهم بعد ما اخبروه :

(**قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً**)

اي ان أهـــواء كم زينت لكم فكـــرة آمنتم بها انطلاقا من الهوى لا العقل لماذا؟

أولا : ان اخــوة يوسف (ع) كــذبوا أول مــرة وكــانت تهمة الكذب أقرب إليهم

لسوء سابقتهم في الخيانة.

ثانيا : ان اتهــام الســرقة الى أخيهم بمجــرد وجــود السـقاية في وعائه ، كــان نابعا من استصــغارهم له ، وعدائهم الدفين له ولأخيهم يوسف.

ثالثا : ان تــــذليل أخيهم والتعصب لأنفســـهم في مواجهته كان هو السبب لسرقته لو انه ارتكبها.

ولكن يعقوب (ع) تسلح بالصبر الجميل لمعالجة سوء أخلاق ابنائه ، وعنصريتهم المقيتة حتى ضد أخيهم الأصـغر سنا منهم.

(**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**)

اي عندي صـبر جميل اسـتعيض به عن مكـركم ، وما تســوله لكم أنفســكم ، فلا أجــزع لشــدة البلاء ، فافقد رشـدي وقـوة احتمـالي ، ولا أتـردد في أن البلاء سـيزول بأذن الله ، ولا أنطوي على نفسي بسبب المصـيبة واتـرك العمل انتظـارا لـزوال المصـيبة بـذاتها أو بطريقة غيبية ، وبالتـالي أضـيف عامل الـزمن (الصـبر) الى سـائر عوامل النجاح حسن التدبير ـ السعي ـ التوكل حتى ينصـرني ربي ، ويـدل على معـنى الجمـال في الصـبر السـياق القـادم. يقول ربنا على لسان يعقوب :

(**عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**)

[84] وتـرك أبنـاءه موقتا ، ولكنه اثـار فيهم عواطف الأبناء لوالدهم العجوز وقد أنهكته المصائب فابيضت عيناه حزنا ..

(**وَتَــوَلَّى عَنْهُمْ وَقــالَ يا أَسَــفى عَلى يُوسُــفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ**)

يبــدو ان اســتمرار الكآبة افقد يعقــوب قدرته على الرؤية. فتحول سواد عينه الى

بيـاض شـأنه شـأن كبـار السن ، ولا يجب ان يكـون ذلك بسبب البكاء وحده. إذ ان الحـزن المكبـوت الـذي يكظمه صاحبه قد يكون أشد أثرا على البشر من البكاء لذلك قال ربنا.

(**فَهُوَ كَظِيمٌ**)

اي يحفظ نفسه من آثـار الحــزن الــتي تظهر عليه ، ومنها فقد توازنه بأبعـــاد ابنائه عن نفسه والإســـراع في عقابهم دون انتظار تربيتهم وهدايتهم.

تأثير البكاء على القلب القاسي :

[85] يبـــدو ان قلب أبنـــاءه القاسي بـــدأ الآن يلين لوالـــدهم الحـــزين فجـــاءوا اليه يواســـونه ويطلبـــون منه التقليل من الحزن للإبقاء على صحته لكي لا يكـــون فاسد الجسم أو هالكا.

(**قالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ**)

اي اننا نقسم عليك بالله الا تســتمر على ذكر يوسف فتعجل مرضك أو موتك.

(**حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ**)

الحرض المشرف على الهلاك.

[86] ولكنه قـــال : كلا ان عـــاقبتي ليست الهلاك أو المــرض بل ســوف أبلغ هــدفي لان اعتمــادي على الله ، ولاني اعلم عن تعبير رؤيا ولـدي يوسـف. اني سـوف أراه ذا شأن كبير. وهـذا الأمل يحـدوني الى الضـراعة الى الله لتعجيل الفرج علي.

(**قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ**)

البث هو ما ظهر من الحزن.
(**وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

بث روح الأمل :

[87] ثم دعــاهم الى الســعي بلا يــأس ، وأمــرهم بــالتحرك والتفــتيش عن يوسف وأخيه لمعرفته ان البلاء يرفع عند شدته.
(**يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا**)
اي اســتفيدوا من احساســكم ولا تعتمــدوا على نظر يأتكم التي قد يداخلها اليأس فتبدو لكم الحقائق أساطير ، ولا تعتمدوا على أقوال الناس التي قد لا تكـون صـحيحة ، وهذا امر صريح منه بضرورة الاعتمـاد على العلم خصوصا الحاصل من التجربة الحسية.
(**مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ**)
ان آفة التحسس والتفــتيش عن الحقيقة هي اليــأس والاعتقــاد بقصر عقل الإنســان عن المعرفة وروح اللــه. ذلك الإلهام المفاجئ الذي يغمر قلب الباحث فيهتـدي الى الحق.
ان العلم نـور يقذفه الله تعـالى في قلب من يشـاء ، وهو روح الله في هــذا المجــال ولكن لا يقذفه الا بعد ان يكون الفرد صالحا والـذي لا يتحسس ولا يفتش بأحساسه عن الحقيقة لا يقذف الله نورها في قلبه.
(**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ**)
فالــذين يكفــرون بالله ويســترون نعمه عليهم. هم الذين ييأسون من روح الله.

بين يدي يوسف :

[88] وقـام اخـوة يوسف (ع) بشد الرحـال الى مصر يحــدوهم أمل جديد لانهــاء مشــكلة والــدهم ، وقد بلغت الضراء بالنسبة إليهم حدا لا يطـاق ، فـدخلوا على يوسف في حالة يرثى لها إذ جاؤوا ببضـاعة قليلة رديئة لا تسـاوي قدرا يذكر من الطعام ، وطلبــوا منه ان يتقبلها منهم على أساس انها كاملة صالحة فيعطيهم من الطعـام ما يعـوض ضـرهم. كما طلبـوا منه ان يتصـدق عليهم بـإطلاق سـراح أخيهم. طلبا لجزاء الله الذي أعده للمتصدقين.

(**فَلَمَّا دَخَلُـوا عَلَيْـهِ قـالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيـزُ مَسَّـنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ**)

أصل الكلمة الــدفع قليلا قليلا. وســميت البضــاعة اليسيرة والناقصة بالمزجاة.

(**فَـأَوْفِ لَنَا الْكَيْـلَ وَتَصَـدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللـهَ يَجْـزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**)

الصدقة أصلها من تصديق وعد الله.

[89] لقد تحطم غرور اخوة يوسف (ع) على صــخرة الواقع فها هم يجـــأرون الى عزيز مصر لكي يـــرحمهم ، ويطلبون منه التصدق عليهم ـ والجوع ـ ومشكلة والدهم ، وهاجس الذنب يقض مضاجعهم ، وكان الوقت إذا مناسـبا ليكشف يوسف عن لغز القصة. فبادرهم بسؤال مفاجئ.

(**قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ**)

ففي أيام جهلكم وصغر سنكم وكـبر غـروركم. القيتم يوسف أخــاكم الــبريء في غيــابت الجب. واستصــغرتم أخاكم الثاني ، ثم تركتموه عبـدا عند الغربـاء بعد ان أثبتم عليه تهمة الســــرقة واتهمتم أخـــــاه يوسف بها ، والآن تطالبونني بالتصدق

وتزعمـون ان الله يجـزي المتصـدقين؟ الآن عـرفتم هـذه الحقيقة. أم لأنها في مصلحتكم توسلتم بها؟

وحل اللغز :

[90] كان واضحا ان تقريع العزيز لم يكن عبثا ، وانما كان يتناسب مع شعورهم الداخلي لأن مشـاكلهم انما هي بسـبب ما فعلـوه بـأخيهم يوسف .. وهنا أدركهم روح الله الـذي طلبـوه بإرشـاد والـدهم يعقـوب ـ فعرفـوا ـ بلغته الذكية ان الذي يخاطبهم هو يوسف ذاته.

(**قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ**)

قـالوا بلحن السـؤال المليء بـالتعجب والشـوق الى الجواب.

(**قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا**)

ولم ينسى يوسف ان يذكرهم بعبرة الحياة ويقول :

(**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْـبِرْ فَـإِنَّ اللـهَ لا يُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُحْسِنِينَ**)

اي ان من يقاوم ضـغوط الشـهوات ، ويقـاوم الحسد والحقد ، ويبقى مستقيما على تقواه. صابرا على المكـاره التي تصيبه بسبب التقوى .. فان الله يجزيه بقدر إحسـانه الى الآخرين ، والقرآن يؤكد في سـورة يوسف على قيمة الإحسـان لأهميتها في الملك ، وفي الحصـول على مغـانم الدنيا.

لحظات الاعتراف :

[91] فاعترفوا بذنبهم ، وبـأن الله حين فضـله عليهم فانما بعلمه وحكمته البالغة.

(**قـــالُوا تَاللـــهِ لَقَــدْ آثَــرَكَ اللـــهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ**)

إن خطأهم الأساسي كان في مقاومة سنة الله الـتي لا يزيدها رفض الناس لها الا عجلة.

[92] اما يوسف (ع) الذي عرف عاقبة الغرور بالقوة ، وكيف ان اخوته قد أســكرهم خمر العصــبية فقــاموا بجريمة منكرة وحطموا مستقبلهم ، اما يوسف عــرف ان زكــاة النصر هي العفو فقد تســلح بقيمة الإحســان الـتي رفعته الى هذا المقام بإذن الله. وعفا عنهم بل وأعطـاهم الأمل بــأن يعفو عنهم الله لكي لا يلاحقهم شــبح الجريمة فتتعقد أنفسهم ، وتسوء أخلاقهم فيقوموا بجرائم اخرى ..

(**قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**)

اي لا توبيخ ولا تقريع.

(**يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**)

[93] ثم أمرهم بأخذ قميصه الى والده يعقــوب. وهو ذلك القميص الـذي تضـوع بعبق جســده ذا النكهة الخاصة الـتي لا بد لأبيه الواله من معرفته بســبب تركز احاسيسه في لحظة المصاب وتذكره كل شيء من يوسف .. بسبب استمرار حضور يوسف في مخيلته رغم مرور أربعين سنة على فراقه.

(**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**)

ان الحزن البالغ الذي ذهب بنور عين الشــيخ الواله .. يتبدل فجأة الى ســرور بــالغ فتنشط خلايا جســده جميعا ، ويعود بصيرا بأذن الله.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِـدُ رِيحَ يُوسُـفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قـالُوا تَاللـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَـلالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقـاهُ عَلى وَجْهِـهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللـهِ ما لا تَعْلَمُـونَ (96) قـالُوا يا أَبانَا اسْـتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (97) قالَ سَـوْفَ أَسْـتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ (98) فَلَمَّا دَخَلُـوا عَلى يُوسُـفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ

---

94 [فصلت] : الفصل أصله القطع ، وفصلت العير بمعنى انفصلت من المدينة نحو الشام.
[تفنّدون] : التفنيد تضعيف الرأي والفند ضعف الرأي.

مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْـوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْــكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيــلِ الْأَحــادِيثِ فــاطِرَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الــدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْـلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـالِحِينَ (101) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَما كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)

---

100 [نزغ] : أفسد وحرش.

من الرؤيا الى الحقيقة

هدى من الآيات :

وتحـركت من مصر قافلة البشر تحمل قميص يوسف (ع). فقـال يعقـوب (ع) وهو جـالس بين بعض أبنائه إني لأشـتمّ ريح يوسـف. بـالرغم من انكم تضّـعفون رأيي. فأنكروا عليه ذلك ونسبوه الى الابتعاد عن الحقيقة بسبب حبه العميق لولـده. بيد ان البشـير ما لبث حـتى وصل والقى قميص يوسف على وجهه فأعاد الله عليه به عينيه. (**قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ**) نهاية مشكلتي ، وتعبـير رؤيا ابـني وأنتم لا تعلمـون فسـقط في أيـديهم وطلبوا أبـاهم ان يسـتغفر لهم الله من ذنـوبهم واعـترفوا بخطئهم ، فقـال يعقـوب : (**سَـوْفَ أَسْـتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ**). وارتحلوا جميعا الى مصر فـدخلوا على يوسف عزيز مصر حيث استقبلهم بحفاوة ـ (**وَقـالَ ادْخُلُـوا مِصْـرَ إِنْ شـاءَ اللـهُ آمِنِينَ**) وجعل أبويه فـوق العـرش بينما خـرّ النـاس سجد الله امام عرشه ، وقال يوسف : هـذا تأويل رؤيـاي. من قبل ـ لقد جعلها الله واقعا حقا ، ثم فصل قصـته لهم وكيف انه سـجن فأحسن الله به وأخرجه من السـجن ، وكيف بالتـالي جـاء بأهله من الصـحراء بعد ان فـرق الشيطان بكيده بينه وبين اخوته.

وكيف ان الله لطيف يجـــري ســـننه برفـــق. وبحسن تدبير وهو عليم حكيم. ثم استغل المناسبة لكي يدعو الله ويحدد موقفه من الملك الذي أنعم به الله عليه. فقـال ان الله أتـــاه الملك وعلمه من تأويل الأحـــاديث لـــذلك فهو يطلب منه مزيـــدا من الفضل ـــ وهو فـــاطر الســـموات والأرض وهو الولي في الدنيا ـ ذلك الفضل هو ابقـاؤه في الـدنيا على الإسـلام وإلحاقه بالصـالحين في الآخـرة. كل ذلك كـانت قصة يوسف (ع) الـتي اوحى بها ربنا الى قلب الرسـول ، وكيف احتـوت على أدق التفاصـيل الهامة مثل مباحثـاتهم وهم يجمعـون أمـرهم ويخططـون لإلقائه في غيابت الجب.

بينات من الآيات :

نسائم البشرى :

[94] حينما تحـــــركت القافلة الـــــتي تحمل قميص يوسف (ع) تجـــــدد الأمل في قلب يعقـــــوب برؤية ابنه المختطف بعد طـول المعانـاة فقـال لمن حوله اني أجد ريح يوسف.

(**وَلَمَّا فَصَـلَتِ الْعِـيرُ قـالَ أَبُـوهُمْ إِنِّي لَأَجِـدُ رِيحَ يُوسُفَ**)

بيد ان من حوله لم يكونوا يصدقوه.

أولا : لأنهم اعتقـــدوا أن أمل يعقـــوب نـــابع من حبه العميق لابنه يوسف.

ثانيا : لأنه لم يكن معقولا عندهم ان يجد أحد ريح ابنه من بعيد خصوصا من مسافة عشرة أيام سيرا لـذلك قـال يعقوب :

(**لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ**)

أي تضـعفون رأيي. وتحـاولون إبطاله .. ويبقى هـذا السـؤال هل ان الحاسة السادسة .. الـتي هي قد تكـون تركيزا. لمجمل القوى العلمية عند البشر هي التي

كشفت ليعقوب تحرك العير بقميص يوسف. أم انه كان إعجازا غيبيا؟!

[95] وبالرغم من ان يعقوب أكّد لهم ان تفنيدهم لرأيه لا يؤويه عنه وهو متشبث برأيه بالرغم من مخالفتهم وبالرغم من ذلك نجدهم يؤكدون له معارضتهم ويحلفون بالله أنه في ذات الضلالة القديمة التي كانت عنده.

(**قالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ**)

حيث أنه لا يزال ينتظر ابنه الذي ضاع في دنيا المآسي وفي عالم الإنسان أقل قيمة فيه من أي شيء آخر.

(**فَارْتَدَّ بَصِيراً**) :

[96] ما لبث أن وصل البشير يحمل قميص يوسف. وربما بعد عشرة أيام من السير الحثيث لقطع المسافة بين فلسطين ومصر .. فأخذ القميص وألقاه على وجه يعقوب فعاد اليه بصره ربما بسبب الفرح الذي طرأ بصورة مفاجئة أو بسبب غيبي الهي.

(**فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**)

حيث علم يعقوب بتفسير رؤيا يوسف انه يبقى حتى يصبح ملكا تخضع له أعناق اخوته كما علم بالغيب ان يوسف لم يمت ولقد وعده الله بإعادته اليه.

[97] وهنا لك فقط اعترف اخوة يوسف ـ ويبدو أنهم الباقون منهم عند أبيهم يعقوب ـ اعترفوا بذنبهم ، وطلبوا من أبيهم ان يشترك في الاستغفار لهم.

(**قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ**)

[98] ووعدهم يعقوب الاستغفار مستقبلا وأملهم في مغفرة ربهم كما فعل يوسف بسائر اخوته! وكما يفعل الصالحون بالمذنبين ، والسبب ان اليأس من جنود الشيطان. ومن عوامل الانحراف.

(**قـالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

ويبقى سؤال ـ لماذا أخر الاستغفار؟

والجواب : ان للاستغفار شروطا : إصلاح ما فسد والعزم على عدم التكرار ، وتزكية النفس وتطهيرها من رواسب الذنب ، ثم الاستغفار في أوقات خاصة. بعد صلاة خاشعة. وهكذا. لذلك جاء في الحديث المأثور عن الصادق عليه السلام :

«**إنّ يعقوب أخرّ أبناءه الى وقت السحر لأنه أقرب الى إجابة الدعاء**» (1)

ثم أن الذنب لا يكفيه مجرد طلب المغفرة مرة واحدة بل لا بد من الاستمرار على الاستغفار المرة بعد الاخرى هذا لا يحصل الّا عبر أيام متطاولة ، ولذلك قال يعقوب لهم سوف ... وقالوا : ان يعقوب كان يصف أولاده عشرين سنة يدعو ويؤمنون على دعائه واستغفاره لهم.

وتحقق الحلم :

[99] جمع يعقوب أبناءه وأمتعته وساروا الى مصر حيث الملك العادل. فاستقبل يوسف عند المدينة أبويه يعقوب. وزوجته التي هي خالته. وراحيل امه الحقيقية.

(**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ**

---

(1) نور الثقلين ج 2 ص 466 رقم 197

آمِنِينَ)

ان أعظم نعم الله على أصـحاب المـدن هو الأمـان. والابتعـاد عن الحر والـبرد والحيوانـات الضـارية. والغـزو والنهب وما أشبه.

[100] أما أبواه فقد استقرا عند يوسف على عــرش الملك. بينما سجد الجميع لله شكرا لهذه النعمة.

(**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً**)

قال بعضهم إن السجود كان باتجاه يوسف فعلا ولكنه لم يكن بمعـنى الوقــوع على الأرض. انما الانحنـاء التـام احتراما لمقام الملك. والإكرام يجوز. فيما تحرم العبادة إذ ان الحـرام هو تقـديس أحد ورفعه الى مسـتوى الالوهيـة. سواء كان ذلك عن طريق السجود له أو الطاعة المطلقة له أو حتى رفع اليد ، فحـتى رفع اليد إذا كـان إشـارة الى ان صاحبه إله. فهو حرام وشرك .. وأما لو كـان الاحـترام بهـدف الإكـرام لا التقــديس ، وإذا كــانت الطاعة بهـدف عبــادة الله والخضــوع لأمــره بطاعة ولي الأمــر. فــان السجود امامه. لا يكتب حرمـة. إلّا إذا كـان السـجود بذاته رمزا للألوهية كما الحال بيننا نحن المسلمين.

وإن كثـيرا من الشـعوب ينحنــون الى حد الركــوع أو أكثر تحية للقـاء بينهم. ولا يعـني ذلك أبـدا معـنى الاعتقـاد بألوهية من يفعلون أمامه ذلك .. وبالتـالي لا يحـرم عليهم ذلك بينما يحرم علينا لان الركوع قد تحــول بذاته الى رمز للعبـادة ، واختص به اللـه. وحين فعل أخـوه يوسف أمامه ما فعلوه التفت يوسف الى أبيه.

(**وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ**)

فالشمس والقمر هما والداه ، والأحد عشر كوكبا هم أخوته الذين سجدوا أمامه

جميعا.

وهكــذا جعل ربنا تلك الرؤيا حقيقيــة. بينما كــان من الممكن لو لم يـــوفر يوسف شـــروط تحقيقها في نفسه وبسعيه وحسن إختياره إذا بقيت حلما وأماني.

(**قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَـنَ بِي إِذْ أَخْـرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**)

ركز حديثه على مرحلة الســــــــــجن لأهميتها ولبعد المسـافة بين السـجين المتهم بجريمة شـرف وبين الملك العزيز الذي بيده كل شيء.

(**وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ**)

أي من حيـــاة الصـــحراء الى العيش بمصـــر. حيث المدينة.

(**مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**)

أي أفسد العلاقة بيـــني وبين اخـــوتي. ثم أكد ان أمر الله ينفذ برفق بين ثنايا الحيـــاة كما المـــاء في مســـارب الرمال. بحيث لا يعرف أحد كيف تم التحول.

(**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ**)

حيث أن تـــدبيره يوغل برفق ومن دون صـــخب أو صعوبة بين صخور الحياة دون أن يقدر أحد على الوقــوف أمامه.

(**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**)

فبعلمه سبحانه أحاط بسـبل الحيـاة. وبحكمته أجـرى تدبيره عبرها حتى النهاية.

[101] في عـــزة قدرته وملكه لم يغفل يوسف عليه السّـلام ربـه. ولم ينس أنه هو الـذي آتـاه الملك ، وان ما عنـده جــزء من الملك الأكـبر الـذي يملكه الله سـبحانه فخوّله إيـاه. كما ان علمه جــزء مما عند الله .. وبالتـالي فانه بحاجة الى ربه ليأتيه المزيد من الملـــــــك. ويعلمه المزيد من تأويل الأحاديث.

(**رَبِّ قَـدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْـكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيـلِ الْأَحادِيثِ**)

ان نشوة الانتصـار لم تـدع يوسف الى الانتقـام لايـام الذلة والعـــذاب. حيث ألقي في الجب ، وحيث وجد نفسه عبـــدا يتبادله النـــاس بثمن بخس دراهم معـــدودة. وحيث تسجنه امـرأة العزيز زورا ، ويعـاني في السـجن الأمـرّين ذلك لان قلبه كان عـامرا أبـدا بنـور الله فلم يصب بعقـدة النقص والانهيـار والسـلبية. كما لم يصب بـالغرور والفخر لأنه كـــان يعلم ان الشر والخــــير فتنة ، وان البلاء رحم العظمة وقد تكون النعمة سبيل الهاوية.

كما كـان يـؤمن بـان الحيـاة الـدنيا بما فيها من خـير وشر. قنطرة الى الآخرة التي هي الحيوان لـذلك لم ينس تفاهة الدنيا بخيرها وشرها ، بسجنها وملك مصرها ، لذلك قال. وهو يدعو ربه.

(**فاطِرَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الـدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**)

ان الهدف الأسمى للإنسان ينبغي ان يكون الاستمرار على خط الإســلام حـــتى المـــوت. ومن ثم ان يحشر مع الصالحين.

[102] وهكـــــذا انتهت قصة يوسف يوحيها ربنا على قلب الرســول ، ويعلمنا بـــأدق التفاصــيل فيها وبعــدها ، وكيف ان المكر لا ينفع صاحبه ، وانه لا يحيق المكر

السيء إلا بأهله.

(**ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**)

وفي الــدروس القادمــة. نجد المزيد من عــبر هــذه القصة الحكيمة.

وَما أَكْثَـرُ النَّاسِ وَلَـوْ حَرَصْـتَ بِمُـؤْمِنِينَ (103) وَما تَسْـئَلُهُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ هُـوَ إِلاَّ ذِكْـرٌ لِلْعـالَمِينَ (104) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (105) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَـرُهُمْ بِاللـهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْـرِكُونَ (106) أَفَـأَمِنُوا أَنْ تَـأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَـةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُـبْحانَ اللـهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (108) وَما أَرْسَـلْنا مِنْ قَبْلِـكَ إِلاَّ رِجـالاً نُـوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْـلِ الْقُـرى أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ

---

103 [حرصت] : الحرص طلب الشيء باجتهاد في اصابته.

107 [غاشـية] : الغاشـية المجلّلة للشـيء بانبسـاطها عليه ، والغشـاء الغطاء.

[بغتة] : البغتة الفجأة وهو مجيء الشيء من غير توقع.

108 [سبيلي] : السبيل الطريق وهو المكان المهيأ للسلوك.

مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَــدارُ الْآخِــرَةِ خَيْــرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَــوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَـدْ كُـذِبُوا جـاءَهُمْ نَصْـرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشـاءُ وَلا يُـرَدُّ بَأْسُـنا عَنِ الْقَـوْمِ الْمُجْـرِمِينَ (110) لَقَـدْ كـانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ما كـانَ حَـدِيثاً يُفْتَـرى وَلكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْــهِ وَتَفْصِــيلَ كُـلِّ شَــيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111))

---

11 [استيأس] : استيأس بمعـنى يئس كأنه طلب اليـأس لعلمه بامتنـاع الأمر.

[بأسـنا] : البـأس الشـدة وهو شـدة الأمر على النفس ، ومنه البـؤس الفقر.

111 [الألبـاب] : العقـول ، مفردها لب وانما سـمي بـذلك لأنه أنفس شيء في الإنسان ، ولب كل شيء خياره.

في قصصهم عبرة

هدى من الآيات :

انتهت قصة يوسف (ع). وبقيت عبرتها المتمثلة في طبيعة البشر المعانـدة للحق ، فـأكثر النـاس رغم حـرص الرسول وأصـحاب الحق ليسـوا بمؤمـنين ، ويحسـبون ان الرسالة خسارة بينما هي ذكر. وتوجيه للعاملين الى الحق الـــذي غفلـــوا عنه ، وكم هي الآيـــات المنتشـــرة في السماوات والأرض يمـرون عليهـا. دون ان ينتفعـوا بها بل هم معرضون عنهـا. إن ايمـان أكـثرهم مخلـوط بالشـرك. وبالتالي فهو ليس بأيمان. ولا يدرى هل هم قد أخذوا صك الأمان من عذاب الله الذي يشملهم إذا جاء ومن السـاعة التي تأتيهم فجأة في الوقت الذي هم لا يشعرون.

ولكن الرسول يدعوهم الى سبيل واضـحة هي الـدعو الى الله على بصـيرة ورؤية واضـحة له ولمن يتبعه ، وهي بصيرة التوحيد وتنزيه الله عن اي نوع من أنـواع الشـرك. وهذه كـانت رسـالة الله من قبل الـتي نـزلت على رجـال من أهل القرى ، فلما ذا لا يسيرون في الأرض ليروا مـاذا كانت نهاية أولئك السابقين وليعرفوا ان الدار الآخرة

أفضل للمتقين. فلما ذا لا يعقلون والحقيقة واضحة.

لقد أرسل إليهم رجـــالا فبلغـــوا رســـالات الله فلم يستجيبوا لهم حتى إذا بلغوا درجة اليأس ، وظنـوا انهم قد كذبوا فعلا جـاءهم نصر اللـه. فنجى ربنا من شـاء بينما لم يقـدر أحد على رد بأسه سـبحانه عن المجـرمين. ان هـذه هي عبرة قصص السابقين الـتي يسـتوعبها أولـوا الألبـاب والعقول ، وليس حـديثا يمكن ان يفـتري انما هو كلام حق يصـــدق الأحـــاديث الســـابقة وبفصل كل شـــيء ويهـــدي المؤمنين. ويفلح به المؤمنون.

بينات من الآيات :

البشر وطبيعته :

[103] مبدئيا يجب على كل إنسان ان يكـون مؤمنـا. إذ ان الله أودع فيه العقل وانزل له الهدى. اما عمليا فـان قليلا من النـاس يرتفعـون الى مسـتوى الايمـان ، كما ان قليلا منهم يستفيد من طاقة العلم ومن كنوز الارادة الـتي استفاد منها كبـار العبـاقرة من أبنـاء آدم. من هنا لا يجـوز لصـاحب الرسـالة ان يصـطدم بسـبب عـدم ايمـان أكـثر الناس. بل عليه ان يشكر الله كثيرا لايمـان من آمن منهم لأنه قد وفق ان يكون سببا لصعود طائفة من أبنـاء البشر الى هذه القمة السامقة برغم الصعاب.

(**وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**)

[104] ولا يـــدل عـــدم إيمـــان النـــاس بالرســـالة ان مصالحهم تضرب بالرسالة ، أو ان الرسول يطالبهم بـأجر ، أو ان الرسالة قد هبطت لطائفة خاصة فقط. كلا ..

(**وَما تَسْـــئَلُهُمْ عَلَيْـــهِ مِنْ أَجْـــرٍ إِنْ هُـــوَ إِلَّا ذِكْـــرٌ لِلْعالَمِينَ**)

[105] كما لا يعـــني عـــدم إيمـــانهم قلة الآيـــات. لان الآيـــات كثـــيرة ومبثوثة في الســـماوات والأرض ولكنهم يعرضون عنها الى شهواتهم والى الضغوط القريبة.

(**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَـةٍ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ**)

[106] نعم ان الناس يتعرفـون بفطـرتهم على الله ، ولا ينكرون وجوده سبحانه وتعالى بصـورة أو بـأخرى. انما القضية التي جاءت رسالات السماء من أجل إصلاحها هي ان ايمانهم مشـوب بالشـرك. فهم يؤمنـون بالله وبـالهوى وبالطاغوت ، وبالتالي لا يخضعون كاملا لله سبحانه ، وهذا يساوي الكفر تمامـا. إذ ما فائـدة الايمـان الـذي لا يعطيك القدرة على مقاومة الضغوط.

(**وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**)

[107] يبقى ان نعـرف ان عـدم ايمـانهم بالله ايمانا حقيقيا انما هو بسـبب زعمهم بـان الله لا يعـاقبهم. لقد فرحوا بنعم الله عليهم. فلم يخشوا العذاب الذي يشملهم ويغشـاهم. كما لم يخـافوا المـوت وما وراءه من سـاعة القيامة. التي تـأتيهم فجـأة في الـوقت الـذي هم غـافلون عنها.

(**أَفَـأَمِنُوا أَنْ تَـأْتِيَهُمْ غاشِـيَةٌ مِنْ عَـذابِ اللـهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

مهمة الرسول :

[108] الـدعوة الإلهيـة. واضـحة ويـؤمن بها أصـحابها على يقين. وهي ليست مادية أو شخصـية أو مصـلحية بل خالصة لله وحده.

(**قُلْ هذِهِ سَبِيلِي**)

هذه الآيات القرآنية تشكل سبيل الله.

(**أَدْعُوا إِلَى اللهِ**)

لا الى نفسي أو وطني أو ارضي أو عشـيرتي أو .. أو إلخ.

(عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فنحن نرى بوضوح طريقنا ونمشي عليـه. لا نشك فيه ولا نتردد قيد أنملة ولا نختار طريقنا على الهوى أو التقليد أو استجابة للضغوط.

منطق السماء :

(وَسُبْحانَ اللهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[109] ان المؤمـنين على طريق معبد بسـيرة السـابقين ، فلقد بعث الله رجـالا من النـاس أنفسـهم فأوحى إليهم كما اوحى الى النبي محمد (ص).

(وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُـوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى)

اي من أهل المدن التي بعثوا إليهم.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا)

عليهم ــ لكي يفهمـوا الحقيقة ــ الا يكتفـوا بـالجلوس في بيـوتهم والاكتفـاء بأفكـار السـابقين أو ثقافة الوسط الاجتماعي بل عليهم ان يتحركـوا ، ان يسـيروا في الأرض وليكن سـيرهم وبحثهم بهـدف الوصـول الى الحقيقـة. لينظروا نهاية المجتمعات الهالكة.

(أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

فقد كانت عاقبتهم الدمار بسبب تكـذيبهم بالرسـالات أما الآخرة فانها ـ بالطبع ـ ليست من نصيب الكافرين.

(**وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

[110] وهلاك الكفـــار والمكـــذبين لم يكن من دون سابقة إنـذار ، بل لقد اسـتنفذ الرسل كلما كـان بوسـعهم في سبيل دعـوتهم ، وصـبروا على أذاهم ، وبلغ بهم الأذى درجة اليأس.

(**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُـذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا**)

جـــاء في التفاســـير : اي تيقن الرسل ان قـــومهم كذبوهم تكـذيبا عاما حـتى انه لا يصـلح واحد منهم .. ومن جهة فمعناه ظن الأمم ان الرسل كـذبوهم فيما اخـبروهم من نصر الله إيـــاهم وإهلاك أعـــدائهم .. وروي عن ابن عباس قال : كانوا بشرا فضـعفوا ويئسـوا وظنـوا انهم قد أخلفـــوا ثم تلا قوله تعـــالى : «**حَتَّى يَقُــولَ الرَّسُــولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَـتى نَصْـرُ اللـهِ**» .. قـال الطبرسي وهذا بعيد وقد بينا ما فيه. المجمع ج 2 ص 271

(**فَنُجِّيَ مَنْ نَشـــاءُ وَلا يُــرَدُّ بَأْسُـــنا عَنِ الْقَــوْمِ الْمُجْرِمِينَ**)

[111] إن المقتطفـات من تـاريخ الرسـل. وقـومهم يمكن ان تأخـــــــــذنا الى ما ورائها من انظمة اجتماعية وتكشف عن طبيعة التحـــولات التاريخيـــة. ولكن بشـــرط واحد وهو ان يكون الإنسان عاقلا. ويهتم بجوهر القضايا.

(**لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ**)

وبالتالي ليس العـبرة التاريخية مما يمكن ان يفـتري. لأنها اشـــارة الى حقـــائق خارجية يمكن لكل إنســـان ان يعرفها لو استخدم عقله أو حتى شعوره. مثلا لو أشار أحد الى الشمس أو الى الجبال والبحار. وقال أفلا ترونها كيف انها جميلة ومنظمة. فهل يمكن أن يقال له بأنك كـذاب؟! الشـــمس يراها الفـــرد بذاته ، ويشـــعر بجمالها ، ويعقل نظامها بمجـرد التفكـير فيهـا. وليس بما يقوله الآخـرون ، وهكذا آيات القرآن

أشارات واضحة الى ما في الكون ذاته من حقائق.

(**ما كـانَ حَـدِيثاً يُفْتَـرى وَلكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**)

انما القرآن يفصل الحقائق التي يراها الفرد بأبهام.

(**وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

يعـــرفهم بحقيقة الأشـــياء ويـــوفر لهم النعم بهـــذه المعرفة.

وهكــذا تنتهي ســورة يوسف المليئة بــالعبر التاريخية والـتي كشـفت خبيئة النفس البشـرية بما تمتلك من عقل وإرادة وعلم تجلت عند يوسـف. أو من حسد وكـبر وحيلة تجلت عند اخوته.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن الرسول الأكرم (ص) قال :

«من قــرأ ســورة الرعد ، أعطي من الأجر عشر حسنات ، بعدد كل سحاب مضى ، وكل سحاب يكون الى القيامة ، وكان يــوم القيامة من المــوفين بعهد الله تعالى»

(م البيان ـ ص ـ 273 ـ ج ـ 6)

عن الامام الحسين (ع) قال :

«من أكــثر قــراءة الرعد لم يصــبه الله بصــاعقة أبدا وان كان مؤمنا أدخل الجنة بغير حســاب وشـفع في جميع من يعرفه من أهل بيته وإخوانه»

(م البيان ـ ص ـ 273 ـ ج ـ 6)

الإطار العام للسورة

لماذا سميت السورة بسورة الرعد؟

سميت السورة بسورة الرعد لوجـود آية محورية فيها تنـبئ عن الخط العـام للسـورة الـتي توصـلنا الى الايمـان والهداية عـــــــبر آياته الكونية ، فالرعد حالة طبيعية ، له مســـبباته وأهدافه ، على ان الرعد ليس آية كونية فقط ، وانما من الممكن ان يكــون آية لنا يـــدلّنا على الله وقوته ورزقه للعباد.

وبالرغم من ان الرعد يخيفنا صـوته عند سـماعه ، الا أن الله ينبهنا الى قضـــــية مهمة وهي : ان الرعد آية من آياته ، كما ان الســــماوات والأرض آيــــات له ، فليست الطبيعة هي المعبود الذي يجب ان نعبده ، وانما هي خلق من خلق الله ، سخرها إلينا لنستفيد منها فليست الطبيعة هي الحاكمة. هذا إذا علمنا ان الرعد والسـماوات والأرض تسبّح الله من خيفته.

لقد كانت الطبيعة منذ القدم ربّا يعبـدها بعض النـاس لمّا رأوا عظمتها ، فهناك

من عبد الشمس وهناك من عبد القمر أو النجم أو .. أو .. ولا زال الحاضر يشهد على مخلفات الماضــي. فمثلا كلمة اطلس تـــدل على إله الأرض ، وكــــذلك ابوالو على إله السماء.

فاذا عبدت الله فانه يعبّد لك كل شيء.

«عبــدي اطعــني تكن مثلي أقــول للشــيء كن فيكون ، وتقول للشيء كن فيكون»

«فلا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرّا»

إما إذا لم تعبد الله فانك لن تكون سيدا على الطبيعة بل ستكون الطبيعة سيدة عليك ، يسلطها الله عليك مـتى جحدت وكذّبت.

إذا فالهـدف من آيـات الله سـبحانه في الطبيعة ليس ذاتها ، وانما الهدف من آيــات الله في الطبيعة هي تعميق روح الايمـــان بالله في قلب الإنســـان ، وزرع اليقين في قلبه ، فمسيرة الطبيعة هي تلخيص لحياة الإنسـان ، فمثلا يقــول العلمــاء : ان الطبيعة الى زوال ، وانها في تنــاقص مســتمر ، أفلا يــدل ذلك على ان أعمارنا كــذلك ، وإذا لم نصــدق بــأن أعمارنا ســتنتهي عند حد معيّن لوجــود موانع نفسية تمنع هذا التصديق. الا يعـني ذلك أنه لا بد أن تنتهي أعمارنا عند أفول الشمس والأرض والقمر الى الأبد. هــذا إذا تصورنا ان أعمارنا بقدر عمر الشمس والقمر.

سورة الرعد مدنية وهي

ثلاث واربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(المر تِلْـكَ آيـاتُ الْكِتـابِ وَالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (1) اللهُ الَّذِي رَفَـعَ السَّـماواتِ بِغَيْـرِ عَمَـدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْـتَوى عَلَى الْعَـرْشِ وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ يَجْـرِي لِأَجَـلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّـلُ الْآيـاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقـاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)

---

2 [عمد] جمع عماد وهي الدعائم.

أسماء الله وتجلياتها

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لماذا تتكرر البسملة في كل سورة؟

تتكـرر البسـملة في كل سـورة لتعطي معـنى جديـدا ينسجم مع الإطار العام للسـورة ، فبسـملة الحمد يختلف تأويلها عنها في ســــورة الشـــورى ، ويختلف عنهما في سورة الذاريات وهكذا.

وهكذا فانّ بسملة هذه السورة تنسجم مع السـورة ، حيث انّ السورة تتحدث عن الهـدى عن طريق آيـات الله في الطبيعة ، والرعد هو نمـــــوذج عن آيـــــات الله في الطبيعة ، وهي جميعا تجل لأسـماء الله الـتي تـدل على القــــدرة والســـــلطان والعظمة فباسم الله ذا الهيمنة والعظمة والملكوت والقدرة ، والرحمة الشـاملة والرحمة الدائمة نبدأ :

آفاق القرآن :

[1] [المر]

الرموز في بداية السورة تشير الى أحد معنيين :

انها رمـوز بين الله وبين عبـاده المخلصـين ، أو انها اشـارة الى القـرآن ذاته أو كلاهما ، فنحن قد نقـول كلاما نقصد به معـنى واحـدا ولكن الأديب قد يقـول كلاما يقصد به معنـيين ، ولكن رب العـزة قد يـوحي بكلام يقصد به سبعين معنى ، وكذلك جاء في الحديث :

«**كتـاب الله على أربعة أشـياء : على العبـارة والاشارة واللطـائف والحقـائق ، فالعبـارة للعـوام ، والاشـارة للخـواص واللطـائف للأوليـاء ، والحقـائق للأنبياء**» [1]

(**تِلْـكَ آيـاتُ الْكِتـابِ وَالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُ**)

لا بد أن تعـرف ان الـذي أنـزل إليك هو الحق ـ كل الحق ـ.

لم يقل الله «والذي انزل إليك من ربك حق» بل قال : الحق ـ فـالالف واللام تعطي معـنى الاسـتغراق ـ اي لا يوجد حق في غير القرآن.

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**)

يكرر الله سبحانه في كثير من الآيـات هـذا المعـنى : ان القليل من العبـاد الشـكور ، والقليل من العبـاد المؤمنون ، وان تتبع أكثر من في الأرض يضلوك وهكذا ..

---

(1) ـ البحار ـ ج 92 ـ ص 103

لماذا؟

يتكـرر هـذا المعـنى كثـيرا في القـرآن لان الإنسـان بطبيعته الضـعيفة ، وانعـدام ثقته بنفسه لا يتبع عقله دائما ، بل يتبع النــاس ويقــول : حشر مع النــاس عيد ، فلكي يجعلنا القـــرآن ننظر الى آفـــاق الســـماوات والأرض بلا حجـاب يبعـدنا عن الضـغوط الاجتماعية الـتي تكبل عقل الإنســان إذا في البــدء اقطع العلاقة التبعيّة لكي تكــوّن شخصــية مســتقلة ثم فكر في ذلك لأنّ مفتــاح العقل التحرر.

حقائق كونية :

[2] (**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها**)

جاء في الحـديث في تفسـير على بن إبـراهيم القمي في حــديث طويل عن الامــام الرضا (ع) عن هــذه الآية : قـــال : فثم عمد ولكن لا ترونها [1] والله اعلم ما هــــذه العمد.

كل تصورنا حتى الآن عن هذه العمد ، أنها ربما تكـون تعادل قوى الطرد والجذب بين الكـواكب والنجـوم فمثلا : ان قوة الطـرد الناشـئة من دوران الأرض حـول الشـمس تساوي بالضـبط قـوة الجـذب للشـمس ، فعلى ذلك تبقى الأرض ملايين الســنين في مــدار واحد ، اما لو تغــيرت احدى هاتين القـوتين لحـدث ما لم يكن في الحسـبان فلو زادت قـوة الطـرد لانفلتت الأرض الى المجهـول في خط مستقيم ، ولو زادت قوة جذب الشمس للأرض لالتصـقت الأرض بالشـمس لأنها ستضـطر في النهاية لأن تسـير في مسار حلزوني ، ولنشبه هذا المثال بما يلي :

أنت تمسك بطــرف حبل في يــدك والطــرف الآخر للحبل مشدود به قطعة حجر ..

(1) ـ تفسير نور الثقلين ـ ج 2 ـ ص 481

حاول أن تدير الحجر ، ماذا يحدث ان الحجر يريد الانفلات ، فلا الحجر ينفلت ، ولا هو يلتصق بيدك ، لأن كلا القـوتين متسـاويتين ، ولكن هب أنك تـركت طـرف الحبل الـذي بيـدك ، انك تجد الحجر ينفلت ، وهب انك أثنـاء تـدويرك للحجر تلف الحبل بيـدك سـتجد بعد قليل ان الحجر قد التصق بيدك.

ربما هذا التفسير يكون تفسيرا للعمد ـ والله أعلم :

(**ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ**)

ان الله سـبحانه لم يخلق الحيـاة كسـاعة ميكانيكيّة تجري لحالها ، بل أنه خلقها ، ثم استوى على العرش يدبر أمرها ، فحـتى حركتك أنت انما هي بـإرادة ، فكيف بالسـموات والأرض ، فالله وراء كل شـيء يجـري في الكون ومدبره.

هناك أحاديث عن العرش تصوّر بأنه مخلوق ، والواقع ان عقلي يقف عند هذه الأحاديث تلك التي تصفه أنه فوق الكون وأكبر منه ، وأنه على المـاء ، وهـذا معـنى العقل : ان تقف عند حـدودك ، ولا تقف بما لا تعلم. كما قـال الرسول صلّى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر :

«**يا أبا ذر : إذا سـئلت عن علم لا تعلمه ، فقل : لا أعلمه ، تنجي من تبعته ولا تقف بما لا علم لك به تنج من عذاب الله يوم القيامة**» [1]

(**وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ يَجْـرِي لِأَجَـلٍ مُسَمًّى**)

ان الله سخر الشـمس والقمر لأهـداف معلومة والى وقت معلـوم لـذلك لا نتطـرق الى هـذه الأهـداف ، ولكن الذي يهمنا شيئان :

(1) ـ بحار الأنوار ـ ج 77 ـ ص 78

الشــيء الاول : ان الشــمس والقمر لفظــان يــدلان على العمــوم مما كـان من جنســهما ، وهـذا يعـنى حـتى الأرض ، وربما أن الله سبحانه ذكر هذين الاثـنين للاشـارة الى أبناء الأرض.

ولا يمكن تحديد ذلك الـــــــــوقت بالدقة الّا أن عمر الشمس والقمر يقـدر بأعمـار الكـواكب والنجـوم ، وعلى كل حـال ، ان شمسـنا هـذه أصـبحت كهلة بالنسـبة الى بعض الشموس الاخرى.

يقـــول أحد العلمـــاء أن (النجم) يمر من مرحلة الى أخرى عملا بقوانين التطـور الطـبيعي ، ولأنه كـان يتطـور فانه يهرم ، وقد يستغرب القارئ قولنا : ان النجم يهـرم ، فمنذ ان كانت البشرية لم يسمع أحد بـأن النجم القطـبي ينازع ، أو أن قلب العقـرب يلفظ أنفاسـه! ومع ذلك فـان هـذا ما يحـدث في الواقع ، فكل نجم إذ يلمع يشع طاقة ، كـــأي كـــائن حي خلال حياته ، وإذا أفلح بطريقة ما في تجديد طاقته فان هذه الطاقة تنضب أخـيرا ، ويكـون هـذا النضوب سريعا بقدر ما يفرط به ، ويأتي وقت لا محالة ــ تنفذ فيه جميع وسائله ـ.

فاذا نظرنا الى الشمس نلاحظ انها شتت في الفضـاء بشكل اشـعاعات كهروطيسـية مختلفة طاقة تبلغ (000 و 380) مليـار كيلـوواط ، وهـذا ما يكفي لحمل ميـاه المحيطــات كلها على الغليــان في ثانية واحـــدة ، وتعجز مخيلتنا عن تصور أرقام بهذا المقـدار ، ولكنها تحملنا على الاعتقاد بـأن هـذا التبـذير لن يمكّن الشـمس من ان تعمّر طــويلا ، ولو كـانت مؤلفة من الفحم الصـافي لكـانت قد تحـــولت منذ زمـــان طويل الى رمـــاد ، ولكن ما يغـــذي الشــمس بالطاقة ليس وقــودا كيميائيا عاديا ، وهي تــدين باشعاعها لتفاعل زخمي حراري دائم ، كما هو معلوم.

بقي كلمة وهي ان هــذه الآية تشــير الى ان الــزمن جزء من الطبيعة.

(**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ**)
ان الله يفصل الآيات لنا ، ويقصها علينا ، ولكن ما هو الهدف؟
(**لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**)
اليقين هو أعلى درجات الايمان.

وَهُـوَ الَّذِي مَـدَّ الْأَرْضَ وَجَعَـلَ فِيها رَواسِـيَ وَأَنْهـاراً وَمِنْ كُـلِّ الثَّمَـراتِ جَعَـلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِـي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجـاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُـلِ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

---

3 [رواسي] جبال ثوابت.
[يغشي الليل النهار] يلبس ظلمة الليل ضياء النهار.
4 [صنوان] جمع صنو وهو المثل ، وصنوان نخلات يجمعها أصل واحد.

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِـدُونَ (5) وَيَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالسَّـيِّئَةِ قَبْـلَ الْحَسَـنَةِ وَقَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَـذُو مَغْفِـرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَـدِيدُ الْعِقـابِ (6) وَيَقُـولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَـوْ لا أُنْـزِلَ عَلَيْـهِ آيَـةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْـذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7)

---

5 [الأغلال] الغلّ طوق تشد به اليد الى العنق.
6 [خلت] مضت [المثلات] العقوبات ومفردها مثلة.

عظمة الله تتجلى في الطبيعة

هدى من الآيات :

السياق القرآني يذكرنا بطبيعة الاختلاف الموجـود في الكـون ، وأن في هـذا الاختلاف دلالة واضـحة على قـدرة ربّنا سبحانه.

ان ما في هذه الحياة يدل على أن الله رب كل شيء ، وما من إله غـــــــيره ، كما أنّ توحيد الله يتجلى في الاختلاف الموجود في الكون.

لقد مــــدّ الله الأرض وجعل فيها رواسي شـــامخات لتحفظها من الميلان والتحرك ، وخلق فيها من كل شــيء زوجين اثـنين ، وأولج النهـار في الليل ، والليل في النهـار الا يــدعونا ذلك الى البحث عمّن ينظم هــذا الكــون ، والا يدلّنا ذلك على وحدة المنظّم ، فلو كـان المنظم أكـثر من واحد هل حدث مثل هذا التناسق العجيب في الكون؟!

وكما ان في كلّية الحيـاة عــبرة ، فــان في تفاصــيل الحيـــاة عـــبرة اخـــرى ، فمثلا طبيعة الأرض الواحـــدة ، واختلافها برغم تجاورها الا تقودنا الى رحاب الأيمــان بالله ، فهذه

الأشـجار تتفاضل على بعضـها في الأكل ، بعضـها مفـردة وبعضها أزواج .. علما بأن هـذه الأشـجار تشـرب من مـاء واحدة وتنمو في أرض واحدة.

ان هـذه الآيـات كفيلة بتنبيه الغـافلين ذلك لمن ألقى السـمع وهو شـهيد ، ولكن بـالرغم من كـثرة هـذه الآيـات وانتشـارها في أرجـاء الكـون ، يبقى الإنسـان يرتـاب في قدرة ربه على احيائه بعد مماته.

ان خلق الأشياء وابتداعها من العدم أصعب من إعادة بنائها ، ومن جهة ثانية انهم انما أنكروا البعث لأنهم كفـروا بربهم ، فلم يعرفوه حق معرفته.

إنّ هــؤلاء وضـعوا غل الشــهوات على افئــدتهم فلم يستطيعوا أن يفكروا بحرّية ، ولذلك تـراهم يـوم القيامة ، نزلاء النار خالدين فيها أبدا ، وهؤلاء الذين كفروا بربّهم لم تكن الحياة في صالحهم لأنهم كـانوا ولا زالـوا يسـتعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، ولو لا أنّ رحمة الله سـبقت غضـبه بأن يمهل الإنسان إذا لأخذهم بعذاب بئيس.

وهم عند ما يطالبون الرسول بالآيات لا يعلمـون بـأن الرسـول ليس سـوى منـذر لا يملك ان يـأتي بآية إلا بـإذن الله ، ثم انهم حين كفــروا بما عنــدهم من الآيــات ، فمن يضـمن ايمـانهم بآيـات جديـدة لو جـاءتهم ، أليس هنـاك احتمال كبير بأن يكفروا بها كما كفروا بما قبلها؟!

إذن فالمشكلة عند الإنسان هي المنهجية في التفكير ، ولو صــحّت هــذه المنهجية لاســتطاع أن يفكر تفكــيرا سليما من دون حجـاب يمنعه من الوصـول الى المعرفة ، والمعرفة تعطيه الحكمة التي قال عنها الله : «**مَنْ يُــؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**» ، والقرآن الكـريم عـبر آياته يهـدف إصـلاح منهجية الإنسـان في التفكـير بعد ان يبصّره بالقوى الضـاغطة عليه ، كما أنه يصـوّر لنا الطبيعة من جديد حتى يلفتنا إليها وكأننا لم نرها من قبل.

بينات من الآيات :

(**لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) :

[3] (**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ**)

لا بد من ربط جزئيــات الحيــاة بمحــور واحد لكي لا تستقطب جزئيات الحياة كل اهتمامنا وتصرفنا عن الهدف ، وعند ما لا نربط هذه الجزئيـات بـالمحور الاساسي نـرى الفـروق والاختلاف ، بينما حين ننظر إليها معا نهتـدي الى المدبّر الواحد وهو الله الذي يدّبر هذه الجزئيات ويوجهها.

ما الذي نرى حولنا ضمن هذا الإطار العام.

نرى الأرض وهي كتلة كبـيرة تسـبح في الكـون مـدّها الله ســبحانه على طــول البصر ، ولم يجعل اســتدارتها شــديدة لتســهيل البنــاء عليها والــزرع ، ولا منافــاة بين اسـتدارة الأرض وامتـدادها ، فـالأرض مسـتديرة ، ولكنك مهما نظرت إليها من أي جهة فستجدها ممدودة والامتداد هذا دليل آخر على الاستدارة ، فأنت مهما سرت في خط مستقيم تجد الأرض ممدودة إلى أن تعود الى مكانك.

(**وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً**)

لم يترك الله سـبحانه الأرض تميد بمن فيها ، بل ثبتها بالجبال ، أليست الجبال تدل على المدبر؟! وعند ما نـذكر الجبال لا بد أن نـذكر الأنهـار لأن الأنهـار صـنيعة الجبـال ، كما جاء في توحيد المفضل عن الامام الصادق (ع):

«انظر يا مفضل الى هذه الجبال المركومــة من الطين والحجـارة الـتي يحسـبها الغـافلون فضـلا لا حاجة إليهـا ، والمنـافع فيهـا كثـيرة ، فمن ذلـك أن تسقط عليها الثلـوج فتبقى في قلالهـا لمن يحتـاج اليه ، ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون

الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام»[1]

يقول علماء الجيولوجيا : ان الأرض تعتمد على شبكة قوية ومنظمة من الصـــخور المتصـــلة مع بعضـــها داخل القشرة الارضية والـتي تكـون نتـوءات أو مرتفعـات بعض الأحيان ، ولو لا هذه الشبكة داخل وخارج الأرض لتنــاثرت الأرض يمينا وشـمالا مع دوران الأرض ، ولما صـار للأرض شـــكلا معينا ، فالجبـــال والشـــبكة الداخلية لها كالهيكل العظمي للأرض يحفظ شكلها.

(**وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**)

ما علاقة الأرض بالجبال ، وما علاقة الأنهار بالجبـال ، وما علاقة النبات بالأنهار.

هــذه أشــياء مختلفة لكن كل واحد يخــدم الآخر ، ألا يدل ذلك على وحـدة الصـانع ، وأن الأشـياء مهما اختلفت فهناك رابط دقيق يربط بين عناصر الكون.

فالنبـات له دلالة كبـيرة إذ لم يخلق من النبـات جنسا واحدا ، بل من كل نوع من النبات جنسين ذكر وأنثى ليتم التناسل والتكاثر ، الا تكمن حكمة الله في ذلك؟!

(**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ**)

وهـذا الاختلاف دليل آخر على وحدانية الله سـبحانه ، واما لمـاذا قـال بـأن الليل هو الـذي يغشى النهـار ، فلأن الأصل في الحيـاة هو الليل ، فتـأتي الشـمس لتبـدد هـذا الظلام بعضا من الـــوقت ، هـــذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانّ اللّيل والنهار لهما

(1) بحار الأنوار ـ ج 3 ـ ص 127

فوائد جمة لا يـدركها الا العـاقلون ، والامـام الصـادق (ع) يفصل ذلك للمفضل بقوله :

«فكر يا مفضل في مقـادير النهـار والليل كيف وقعت على ما فيه صلاح هـذا الخلق ، فصـار منتهى كل واحد منهما ـ إذا امتدّ ـ الى خمس عشرة سـاعة لا يجاوز ذلك ، أفرأيت لو كان النهار يكـون مقـداره مائة ساعة أو مـائتي سـاعة؟ الم يكن في ذلك بـوار كل ما في الأرض من حيوان أو نبات.!؟ اما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة ، ولا الإنسـان يفتر عن العمل والحركة ، وكان ذلك سيهلكها أجمع ، ويؤديها الى التلف ، وأما النبات فكان يطـول عليه حرّ النهار ووهج الشمس حتى يجف ويحترق ، كذلك الليل لو أمتد مقدار هذه المـدة كـان يعـوق أصـناف الحيـوان عن الحركة والتصـرف في طلب المعـاش حـتى تمـوت جوعا ، وتخمد الحـرارة الطبيعية عن النبات حـتى يعفن ويفسد كالـذي تـراه يحـدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس» [1]

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

ان آيات الله في الكون مبثوثة ، وروحك عطشى الى معرفة الحقيقة ، ولكن الحقيقة لن تـــــأتي إليك إلا حين تذهب إليها أنت ، فأنت بحاجة الى إعمال ذهنك وتفكـيرك كي تفهم وتتعظ من هــذه الآيــات ، والتفكــير يعتمد على تحريك العقل واثـــارة دفائنه ، وربط الأشـــياء ببعضـــها ، وربطها كلها بخالقها ومدبرها.

(**لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) :

[4] (**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ**)

أن الأرض تحتـوي على قطع متجـاورة يختلف بعضـها عن بعض ، فبعضها ارض

---

(1) بحار الأنوار ـ ج 3 ـ ص 118

سبخة ، وبعضها أرض زراعية ، وبعضـها صـخرية .. وهكـذا .. وقد جاء في الحديث عن العياشي :

«**يعني هذه الأرض الطبيعة مجاورة بهذه الأرض المالحة وليست منها ، كما يجـاور القـوم القـوم وليسوا منهم**» [1].

(**وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ**)

كما ان اختلاف الأرض المتجـاورة آية لله تـدل عليه ، فالجنـان والخمائل الغنّـاء من الأعنـاب والـزروع المختلفة والنخيل آيـات أخـرى ، والعجيب أن بعض هـذه النخيل اثنـتين تخـرج من أصل واحد ، والأعجب هو اختلاف ثمـار الأشجار علما بأنها تستقي من ماء واحد ، وتستمد الغـذاء من ارض واحـدة ، وأن الشـجرة تنبت نوعا واحـدا مهما وضعتها في تربة مختلفة أو في جو مختلف.

(**وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ**)

لم يقل : «انها تتفاضل على بعضـها» وانما قـال «ونفضّل» أي ان الله هو الـذي أعطى لكل ثمـرة خاصـية في الطعم واللون والشكل والمنفعة ، وما اختلاف الطعم الّا دلالة على اختلاف المواد والفوائد ، وما اختلاف المـواد والفوائد الا دليل على حكمة ربانية ، فجسـمك يحتـاج الى نسـبة معينة من الحديد ، لـذلك تجـدها في بعض الخضروات ، وكذلك بالنسبة أنواع الفيتـامين والسـكريات وغيرها .. علما بأن مقـدار ما يحتاجه جسـمك موجـود في فاكهة معينة أو ليس هذا دليل على وجود تـدبير موحد بين حاجة الجسم ونسـبة هـذه الحاجة في هـذه الثمـرة ، ثم أليس يدل على أن رب الثمرة وخالقها هو خالقك؟

(1) تفسير العياشي ج 2 / 203

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)

العقل هو الاســـــتيعاب ، وقد أكد عليه هنا بينما في المــرة الســابقة قــال : «**إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**» فهاتــان الآيتــان تقودنا الى فكــرة وهي : أن التفكير بداية العقل والعقل هو طريقة الهداية.

لماذا الكفر بالبعث؟

[5] (**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُرابـاً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**)

إذا كنت تعجب من شــيء فهنــاك شــيء أعجب وهو قــول الكفــار بإنكــار البعث بعد المــوت ، ولكن هل ان الموت نهاية كل شيء؟

في الحقيقة ان العقل يقضي بـأن يكـون هنـاك يـوم يحاسب فيه كل إنسان ، ويرجع ليقف امام ظالم فينتصف منه ، أو ينتصف هو منه إذا كان ظالما له ، والإنسان الذي يــرى عظمة الكـــون كيف ينكر البعث ، أليس ذلك دليل على عدم استيعابه لحقائق الكون؟ أو ليس من العبث أن يعيش الإنســـان خبـــالا مضلا ويــــترك؟ ولكن هل من المستحيل على خالق هذا الكون ان يعيـده كما كـان؟! إنّ انكــار البعث في الحقيقة هو انكــار للمســؤولية ، وجحد للأمر المفـــترض اتباعه ومن هنا فـــان إنكـــار الحقيقة الواضحة يسمى كفرا.

(**أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ**)

قد يقـــول البعض : اننا نـــؤمن بالله ولكن لا نـــؤمن بـالبعث ، والحقيقة ان الكفر بـالبعث ينسـحب على سـائر الأشياء ، فالكفر بالبعث كفر بالله بدرجة أولى ، لأنه إنكار لقدرة الله وعدله ، وهل يكـون المنكر لصـفات الله كلا أو بعضا الا كافرا؟

(**وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ**)

يظهر من النصوص أنّ : «الجـزاء من جنس العمـل» فلأنهم غلوّا أعناقهم في الدنيا بـأغلال المصلحية والأفكـار البعيدة وأو صدوا أبواب فكرهم كان جـزاؤهم في الآخـرة ان يغلوا كما غلوّا أنفسهم.

(**وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

هذه هي النهاية المثلى لمن يكفر بالآخرة ، وما جـزاء من يتهـرب من المسـؤولية في الـدنيا الا أن يسـجن في الآخرة ، وما جزاء من يرفض الأمر الواقع ، الا أن يقع في واقع النار!!

وقد سـماهم الله أصـحاب النـار. أي بينهم وبين النـار صـداقة لا يفترقـان ، وقد سـماهم الله أصـحاب النـار في الدنيا ، لأن النار نتيجة حتمية لهم ، والنار وفيّة لأصحابها.

سنة الله وموقف الكفار :

[6] (**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**)

أليس من الحمق أن يفضل الإنســـان الســـيئة على الحســـنة ، هل لأن الحســـنة لا تعجبه فيتمنّى العـــذاب ، ولكنهم في الحقيقة نسـوا ما حل بمن قبلهم قـوم نـوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب الرس .. وغيرهم.

(**وَقَـــدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَـــذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ**)

ان رحمة الله ســبقت غضــبه ، فهــذه بشــارة الله للمـذنبين بـأن يتـوب عليهم إن هم تـابوا إذ ان ، مشـكلة أغلب النـــاس أنهم عند ما يـــرون أنفســـهم في الفســـاد ييأســون من رحمة الله ، ويجزمـون بـأن الله لا يغفر لهم فيبقون على ما هم عليه.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ**)

ان الله رحيم بعباده ويقبل التوبة عنهم ، ولكنه شـديد العقاب لمن اسـتمر في ظلمه ، فمغفرته تقف في حـدود الحيـاة اليومية ، ولكن إذا عـثى الإنسـان في الظلم فـان جهنم هي المثوى والمصير.

في مجمع البيـان : لما نـزلت هـذه الآية قـال رسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلم :

«لو لا عفو الله وتجـــــاوزه ما هنأ أحد العيش ، ولو لا وعيد الله وعقابه لاتّكل كل أحد» (1)

الاستخلاف :

[7] (**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ**)

هـؤلاء لا يكفيهم ما عنـدهم من الآيـات ، بل يريـدون المزيد ، ولكن الله يصف الرسول بقوله :

(**إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ**)

هذه حدودك أيها الرسـول ، فليس من مسـئوليتك ان تأتي بالآيات ..

(**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ**)

هذه الآية نزلت في رسـول الله وعلي بن أبي طـالب (ع) إذ هو الهـــادي لأمة محمد (ص) بعـــده ، وقد بلغت الروايات في هذا المجال حد الاستفاضة ومنها ما جاء

---

(1) تفسير الصافي ـ ج 3 ـ ص 58

في دعاء الندبة في حق علي (ع):

«**إذ كان هو المنذر ولكل قوم هاد**»

وقد جـاء في تفسـير العياشي ، قـال أمـير المؤمـنين عليه السّلام :

«**فينا نـزلت هـذه الآية**» (**إِنَّما أَنْتَ مُنْـذِرٌ وَلِكُـلِّ قَوْمٍ هادٍ**)

فقال رسول الله (ص) :

«**انا المنـذر وأنت الهـادي يا علي ، فهنا الهـادي والنجاة والسعادة الى يوم القيامة**» [1]

---

(1) تفسير نور الثقلين ـ ج 2 ـ ص 484

سورة الرعد

اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْـثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحـامُ وَما تَـزْدادُ وَكُـلُّ شَـيْءٍ عِنْـدَهُ بِمِقْـدارٍ (8) عـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعـالِ (9) سَـواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَـرَّ الْقَـوْلَ وَمَنْ جَهَـرَ بِــهِ وَمَنْ هُـوَ مُسْـتَخْفٍ بِاللَّيْـلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10)

---

8 [تغيض] الغيض ذهاب المائع في جهة العمق ، وغاضت المياه نقصت وغيّضته نقصته.

10 [سارب] السارب الساري الجاري بسرعة ، والسرب الماء السـائل من المزادة.

لَهُ مُعَقِّبـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْــرِ اللــهِ إِنَّ اللــهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَـرَدَّ لَـهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِـهِ مِنْ والٍ (11) هُـوَ الَّذِي يُـرِيكُمُ الْبَـرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّـحابَ الثِّقـالَ (12) وَيُسَـبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّـواعِقَ فَيُصِـيبُ بِها مَنْ يَشـاءُ وَهُمْ يُجـادِلُونَ فِي اللـهِ وَهُـوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِـطِ كَفَّيْـهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكـافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14)

---

11 [معقبات] المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكـون بـدلا منه ، وأصل التعقيب أن يكـون الشـيء عقيب آخر ، والمعقب الطـالب دينه مرة بعد مرة ، ومنه العقاب لأنه يستحق عقاب الجرم.

13 [الصواعق] جمع صاعق وهي نار تسقط من السماء.

[المحال] الأخذ بالقوة.

ينابيع الايمان وعوامل الشرك

هدى من الآيات :

يذكرنا السـياق القـرآني في سـورة الرعد بآيـات الله في الكون ، ويوجهنا الى النظر «العـبري» إليها لكي نصل من خلالها الى معرفة الله سـبحانه ، لأن الغاية الـتي خلق الله من أجلها هذا الكـون هي معرفته في الدرجة الأولى ، وآيــات الله في الطبيعة أقــرب ما تكــون الى الإنســان وتصوره ، لأن الإنسان تراب ويحنّ الى أصله ، وكل شيء في الكون تجسيد لاسمائه سبحانه ، وينحرف الإنســان إذا ما اتبع عقله في كشف حقائق الكون.

وهذا الدرس يذكر ببعض صفات الله ، ويذكر الإنسان بهذه الحقائق التي يغفل عنها وينساها دائما فالله سـبحانه يعلم ما تحمل الإناث في بطونهن من ذكر أو أنثى ــ ليس ذلك فحسب ــ بل يعلم تفاصـيل حيـاة الجـنين وما يحمل من صــفات وراثيــة. وغيرها وعلم الأجنة هو أحد العلــوم الخمسة التي لا يعلمها غيره ، قال تعالى : (**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّـاعَةِ وَيُنَـزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحـامِ ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ**

ما ذا تَكْسِبُ غَداً ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (34 / لقمان)

وعلم الله لا يقف عند حـــدود الأجنة ، بل هو يعلم كل مكنون من القـول وكل ظـاهر منه ، وكل من سـار بالليل أو سـرب في النهـار ، وعلم الله ليس الشـهود وحـده أو الغيب وحـــده ، بل علمه محيط بهما معا ، فعلمه بــالغيب كعلمه بالشــهادة ، وكيف لا وهو مع كل شــيء ، وأقــرب الى كل شيء من أي شيء ، وهو معنا أينما كنا ، وأقــرب إلينا من حبل الوتين ، فسبحان الله الكبير المتعـال : أكـبر من التصور ، متعال عن مجانسة الخلق.

ومن آياته ان جعل مع كل نفس ملائكة تحفظها من الأخطار ، فاذا جاء أجلها خلّـوا بينها وبين الأجل .. الا يـدل ذلك على رحمة ربنا ، وأنّه أرحم بنا منّا ، وأنّه كيف نحفظ أنفسـنا ونحن لا نسـتطيع ان نـدفع عنها ضـرا أو نجلب لها نفعا ، ولو قلنا بأننا نسـتطيع أن نــدفع عن أنفســنا حــال غفلتنا وانشغالنا ، إذا فالإنسان ليس سـيد نفسه ، بل الله ســـــيده على نفسه ، وان له الولاية المطلقة ، ولكن الله سبحانه مع حفظه للإنسـان يسـمح بمـرور العـذاب والبلاء بمقدار ما تسـتحق كل نفس (**إِنَّ اللـهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**).

ومن آيــات الله ان يرافق الســحب الثقــال الــبروق والرعود خوفا من عقابه ورجاء لرحمته ، فهذا الرعد الذي يسبح بحمده يهز ضمائرنا ، ويذكرنا بعظمة الجبـار ، وسـرّ عظمة الرعد أنه خاضع لله ، مسبح بحمـده ، وليس الرعد وحده هو الذي يسبح بحمـده ، بل أن الملائكة الـتي تقـوم بــأمر الرعد والسـحاب تسـبح كـذلك خشـية منه .. (**هُـوَ شَدِيدُ الْمِحالِ**).

أبعد هـــذه الآيـــات يكفر الإنســـان بالله ويشـــرك به غـيره؟! إن هو آمن بالله وفّقه للخـيرات ، وان أشـرك به لم يوفق للخـــيرات ولن يصل الى غاية حميـــدة فســـوف يبقى في

عطش ، ولن ترويه الآلهة الاخـــرى ، ودلالة اخـــرى على علم الله ومقدرته أنه يســتجيب لمن يــؤمن به ، لأنه في موقع العلم بالمســـألة وموقع القـــدرة على الاجابة ، اما الآلهة الأخـــرى فهم أعجز من ان يحيطـــوا علما بما تكن نفس البشر ، وأعجز من أن يستطيعوا تلبية مطالبه.

بينات من الآيات :

علم الله :

[8] لو عرف الإنسان أن ربه محيط به علما لاطمـأن الى رحمته ، ولخشي عذابه لأنه آنئذ يشعر بـأن الله يحيط بسـكناته وحركاته .. سـرّه وجهـره ، ولاسـتقامت سـيرته وسلوكه ، والآيات القرآنية تذكرنا بهذه البصيرة المرة بعد الأخـرى ، وذلك بسـبب غيابها عنا ، وعـدم حضـورها في تصورنا ، وغيابها عنا كان السبب المباشر لانحرافاتنا وعلم الله بالإنسـان شـامل فمنذ ان كـان جنينا يعلم تفاصـيل حياته.

(**اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحـامُ وَما تَزْدادُ**)

ان علم الله أحاط بالجنين هل هو ذكر أم أنثى ، وهل سيعيش شقيّا أم سعيدا ، ويعلم أثناء الحمل وعند الـولادة ما سـيحمله الجـنين من صـفات كما انه دبر أمر الإنسـان جنينا فأطعمه وسقاه.

جاء في توحيد المفضل عن الامام الصادق (ع):

«**اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هـذه الأحـوال المختلفة ، هل تـرى مثله يمكن ان يكـون بالإهمـال ..؟ أفـرأيت لو لم يجر اليه ذلك الـدم وهو في الـــرحم ، ألم يكن ســـيذوي ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء؟!**»

وفي موضع آخر قـال المفضل : فقلت : صف نشـوء الأبدان ونموها حالا بعد حال

حتى تبلغ التمام والكمال ، قال عليه السّلام :

«**أول ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ، ولا تناله يد ، ويـــدبره حـــتى يخـــرج ســـويا مســـتوفيا جميع ما فيه قوامه ، وصـــلاح الأحشـــاء والجـوارح والعوامل الى ما في تـركيب أعضـائه من العظـام واللحم والشـحم والعصب والمخ والعـروق والغضاريف ، فاذا خـرج الى العـالم تـراه كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شـكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص الى أن يبلغ أشدّه** ..» [1]

وعلم الله محيط بما تحمل الإنـــاث من الأجنة «وما تغيض» أي ما تفيض وتسـقط مما لم يكتمل خلقه ، «وما تـزداد» سـواء كـانت الزيـادة في العـدد أو الزيـادة في الأعضاء.

جاء في تفسير العياش عن الامام الصادق (ع):

«**ما تحمل أنــثى : الــذكر والأنــثى ، وما تغيض الأرحـام : ما كـان من دون التسـعة وهو غيض ، وما تــزداد : ما رأت الــدم في حــال حملها ازداد به عن التسعة أشهر**».

«**ما تغيض : ما لم يكن حملا ، وما تزداد : الــذكر والأنثى جميعا**» [2]

(**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ**)

لكل شيء في هذا الكون حدّ محدود ، وقـدر مكتـوب فنحن لا نعرف هذه الأقدار لذلك ننسب الأشياء الى الكبر والصغر ، والطول والقصر ، ولكن لو تعمقنا لعلمنا ان

(1) بحار الأنوار ـ ج 3 ـ ص 117 ـ 119
(2) تفسير الصافي ـ ج 3 ـ ص 59

الحرارة في جسم الإنسان بقدر معيّن ، وان للجبال قــدرا وأوزانا معينة ، بل لكل معـــدن قـــدر معين في الكثافة والكتلة والوزن ، وحتى الهواء والضياء له وزن ومقدار.

مظاهر علم الله :

[9] (**عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ**)

الغيب عنده كما الشـهود ، كلاهما يتسـاوى عنـده في الظهور.

(**الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ**)

انه أكـبر من ان يوصف وانما يتفاضل الأشـياء بـالكبر ويقـاس ببعضـها إذا كـانت من جنس واحد وليس الله من جنس الأشياء بل انه الخالق وهي مخلوقات لذلك جاء في الحديث : ان رجلا كبّر عند الامام الصادق (ع) فسأله (ع):

«**الله أكبر من أي شيء؟**

فقـال (الرجـل) : من كـل شـيء ، فقـال عليـه السّلام :

حدّدته!

فقال الرجل : كيف أقول؟ قال :

قل : الله أكبر من أن يوصف»

وفي حــديث : ان الامــام بعد ما سـأل الرجل عن أن الله أكبر من أي شيء؟ وقال له : أنه أكبر من كل شيء. أجابه الامام فقال :

«**وكان ثمّة شيء فيكون أكبر منه**!!!

فقال : وما هو؟ فقال :

أكبر من ان يوصف» [1]

والمتعال : مهيمن على كل شيء ومتعـال عليه ، وأنه لا يماثل شيء ولا شيء يماثله.

[10] (**سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِـهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ**)

كما الغيب والشهادة عنده سـواء كـذلك المكتـوم من القـول والمجهـور به ، وكـذلك هو محيط علما بمن يكمن في الليل سـاريا بظلامه ، ومن يتحـرك نهـارا سـاربا في ضوءه.

(**حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**) :

[11] (**لَـهُ مُعَقِّبـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**)

أي ملائكة يتعـاقبون بعضـهم بعد بعض ليحفظـوا الإنسان من الوقوع في الاخطار ، ولكن إذا كانت الملائكة تحفظنا من الوقـوع في الأخطـار فلما ذا نمـوت ، ولمـاذا تصيبنا المخاطر كل لحظة؟

اما لمـاذا نمـوت فـان أجل الإنسـان إذا جـاء لا تمنع الملائكة منه ، بل انها سوف تخلي بين الإنسان وبين حتفه ، اما لماذا نتعرض للمشاكل كل لحظة ، فهذا ما سـتجيب عليه نهاية الآية :

---

(1) تفسير الصافي ـ ج 3 ـ ص 228

ولنا ان نتساءل : ما علاقة الإنسان بالملائكة حتى يحفظوه؟

أولا : الملائكة عباد مكرمون لله ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ثانيا : ان لكل شيء في الحياة ملكا موكلا به ، فللسحاب ملك موكل به وللرعد ملك موكل به ، وللبحر ملك موكل به ـ وهكذا .. يكون للإنسان ملك موكل به ، لأنه جزء من الطبيعة.

ثالثا : ان الله عند ما أسجد ملائكته لآدم فان ذلك دلالة على سجود الطبيعة وتسخيرها له وهكذا سخر الله الملائكة لخدمة الإنسان.

إذا لنرجع الى نهاية الآية ونقول : ان الإنسان هو الذي يصنع واقعه بنفسه ، ولا نشك ان للتصرفات والسلوك الانساني دخلا في صنع الظروف المؤثرة فيه ، فباستطاعتك ان تغيّر نفسك ، وإذا غيرت نفسك فانك آنئذ تغيّر ما حولك.

وهكذا الظروف التي تمر بها الأمة الاسلامية ، وما مرت به بالأمس انما كان بسبب نفسي ، فاذا لا يجب ان نلقي اللوم على الحكام وحدهم ، بل يجب ان نراجع حساباتنا ، ونمارس النقد الذاتي الصريح بحق أنفسنا .. وهذا هو العلاج الأمثل لذلك قال ربنا :

(**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ**)

ان الله هو المهيمن الواحد ان شاء أعطى ، وان شاء محق النعم ، ولكن الله سبحانه لن يصيب قرية بالسوء وأهلها مصلحون ، فاذا دبّر الله لأي قوم سوء ، فانما ذلك بما كسبت أيديهم ، وحين يصب الله السوء على قوم فليس هناك من يحول بينه وبين إرادته.

آيات القدرة والهيمنة في السماء :

[12] (**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً**)

خوفا من الصواعق ، وطمعا لما تنبئ به من المطر. والخيرات.

(**وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ**)

السحاب المثقل بالأمطار.

جاء في حديث طويل في جدال للإمام الصادق مع ملحد في التوحيد يشتهر باسم توحيد الاهليليجية :

«**ثم نظرت العين الى العظيم من الآيات من السحاب المسخر بين السماء والأرض بمنزلة الدخان ، لا جسد له يلمس بشيء من الأرض والجبال ، يتخلل الشجر فلا يحرك منها شيئا ولا يهصر منها غصنا ، ولا يعلق منها بشيء ، يعترض الركبان فيحول بعضهم من بعض من ظلمته وكثافته ، ويحتمل من ثقل الماء وكثرته ما لا يقدر على صفته ، مع ما فيه من الصواعق الصادعة ، والبروق اللامعة ، والرعد والثلج ما لا تبلغ الأوهام صفته ، ولا تهتدي القلوب الى كنه عجائبه ، فيخرج مستقلا في الهواء يجتمع بعد تفرقه ، ويلتحم بعد تزايله ، تفرّقه الرياح من الجهات كلها الى حيث تسوقه بإذن الله ربها ، يسفل مرة ، ويعلو اخرى ، متمسك بما فيه من الماء الكثير الذي إذا أزجاه صارت منه البحور ، يمرّ على الاراضي الكثيرة ، والبلدان المتنائية ، لا تنقص منه نقطة حتى ينتهى الى ما لا يحصى منه الفراسخ فيرسل ما فيه قطرة بعد قطرة ، وسيلا بعد سيل ، متتابع على رسله حتى ينقع البرك ، وتمتلئ الفجاج ، وتمتلئ الاودية بالسيول كأمثال الجبال غاصة بسيولها ، مصمخة الآذان لدويها وهديرها ، فتحيي بها الأرض الميتة فتصبح مخضرة بعد ان كانت مغبرة ، ومعشبة بعد ان كانت مجدبة ، قد كسيت ألوانا من نبات عشب ناضرة**

زاهـرة ، مزيّنة ، معاشا للنـاس والانعـام فـاذا أفـرغ الغمـام مـاءه أقلع وتفـرق وذهب حيث لا يعـاين ولا يدري اين توارى» [1]

[13] (**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**)

التسبيح هو التنزيه ، فهذا الرعد بقوته يخضع الى الله سبحانه ، ومن تخضع له القوة أليس بقوي؟!

(**وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**)

هذه الملائكة هي المهيمنة على الطبيعة ، آية سلطان هيمنة الله علينا تسبح بحمد الله خوفا منه لبعض المعرفة بالله وقد ورد في الـدعاء في الصـحيفة السـجادية عن الامام علي بن الحسين عليهما السلام في دعائه للملائكة والسلام لهم :

«**وعلى الملائكة الـذين من دونهم من سـكان سـماواتك ، وأهل الامانة على رسـالاتك ، والـذين لا تـدخلهم سـأمة من دؤوب ، ولا إعيـاء من لغـوب ولا فتـور ، ولا تشـغلهم عن تسـبيحك الشـهوات ، ويقطعهم عن تعظيمك سـهو الغفلات ، الخشع الأبصـار فلا يرمـون النظر إليك ، النـواكس الأذقـان الذين قد طـالت رغبتهم فيما لـديك ، المسـتهترون بـذكر آلائك ، والمتواضـعون دون عظمتك وجلال كبريائك ، والذين يقولون إذا نظروا الى جهنم تزفر على أهل معصيتك ، سبحانك ما عبـدناك حق عبادتك ، فصل عليهم»** [2]

(**وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ**)

---

(1) بحار الأنوار ـ ج 3 ـ ص 163
(2) الصحيفة السجادية ـ ص 46

الصاعقة آية من آيات القدرة يرسـلها الله على من يشـاء من عبيده العاصين.

(**وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ**)

ابعد هذه القدرة والهيمنة يجـادلون في اللـه؟ بلى ان الله شديد القوّة والمكر ، سيصـيبهم بما كسـبوا قارعة أو يحل قريبا من دارهم البوار.

الايمان بالله ومتاهات الشرك :

[14] (**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ**)

أي اليه ترجع دعـوة الحق ، فالعبـادة الصـحيحة ترفع الى الله سبحانه ويستجيب لها.

(**وَالَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ لا يَسْـتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فـاهُ وَما هُـوَ بِبالِغِهِ**)

هـذا هو حـال من يعبد غـيره ، انه لن يصل الى نتيجة ما ، فهو يعبد غيره لعلّه يصل الى مـراده ، ولكنه لن يصل ، وسيبقى عطشانا أبـدا ، لأنه رام الارتـواء من غـيره وقد جاء في تفسير (علي بن إبراهيم) عن الامام الباقر (ع):

«**فهذا مثل اضربة للذين يعبدون الأصنام والذين يعبـدون آلهة من دون الله ، فلا يسـتجيبون لهم بشـيء ولا ينفعهم الا كباسط كفّيه الى المـاء ليتناوله من بعيد ولا يناله**» [1]

(**وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**).

---

(1) تفسير نور الثقلين ـ ج 3 ـ ص 461

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16)

15 [وظلالهم] الظلال جمع الظل وهو ستر الشخص ما بإزائه ، والظل الظليل هو ستر الشمس اللازم.

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ (17) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18)

---

17 [أودية] الوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر ، ومنه اشتقاق الدّية لأنه جمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتيل.

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ

هدى من الآيات :

في سياق سورة الرعد التي تـدلنا على الله من خلال كائناته ، يذكرنا هذا الدرس بـأن كـلّ شـيء خاضع لله من ملائكته وســـائر خلقه طوعا أو كرها ، وليست الأشـــياء وحدها خاضـعة للـه. بل حـتى ظلالها وانعكاسـها خاضع له سـبحانه ، وإذا تسـاءلت من الـذي يـدبر أمر السـماوات والأرض؟ لجـاءك الجـواب : بأنه الله سـبحانه ، إذا فلما ذا يتّخذ الإنسـان وليا من دونـه؟! وهل هنـاك إله يملك النفع والضر سواه؟ كلا ..

إن الفــرق بين من يــؤمن بالله وبين من لا يــؤمن به كـــالفرق بين البصـــير والأعمى ، والنـــور والظلمـــات ، والمؤمن عند ما يتصل بالله يتحول من لا شيء الى شيء ، ولأن الله مهيمن على كل شـيء وخـالق كـلّ شـيء وبه تقــوم الأشــياء فانه كلما كــان الايمــان أعمق كلما كــان الإنسان أكبر.

إن الله سبحانه رازق كـلّ شـيء فمثل رسـالته كمثل غيث ممطر من السماء على

الأرض فتستقبلها الأودية لـيروي الـزرع والضـرع ، ويجعل الأرض مخضـرّة ، ويزيل شـوائب الحيـاة «الزبـد» ولكن الإنسان بدل أن يهتم بالماء نجده يهتم بهـذا الزبد الطـافح عليه ، ألّا يـدل ذلك على قصر النظـر؟! فليس النفع في الزبد ولكن النفع في المـاء ، والزبد هو الشـيء الظـاهر ، والإنســان لا يبحث غالبا عن الظّــاهر ، وهو عــادة يحبّ المظـاهر ، فالزّبد يمثل متع الحيـاة الـدنيا وليست الحيـاة الدنيا بأفضل من الزبد ، بل هي والزبد سواء.

بينات من الآيات :

الخضوع بين الطوع والإكراه :

[15] (**وَلِلَّهِ يَسْـجُدُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً**)

«من» اسم موصول للعاقل ويبـدو ان المـراد منه هنا مطلق الأشـــياء. وذلك لأنّ ما نسب إليها هو فعل العقلاء فلله يســجد من في الســماوات والأرض من الكائنــات كـالحيوان والإنسـان ، وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله ، انما تسـجد لله خاضـعة له بإرادتها فـان لم تسـجد لله طوعا أسجدها الله له كرها ، والسجود بالنسبة للمكـرهين تعبـير عن الخضوع لأمره ، فهذا الإنسان محكوم بقوانين وضعها الله له في كل جوانب حياته ، وبعد مماته.

(**وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ**)

الغدو صباحا مع شروق الشمس ، والآصال مساء عند غـروب الشـمس ، وهـذا تعبـير عن حركة الأرض حـول الشمس ، والغدو والآصـال هو بداية ونهاية نشـوء الظل ، فالظل يبتـدئ طـويلا فيأخذ بالقصر حـتى منتصف النهـار ، حيث ينعدم ويبدأ في الطول ، حتى ينعدم نـور الشـمس ، فهو يبتـدئ طـويلا ، وينتهي طـويلا ، وينعـدم فيما بينهمـا. وهكذا تخضع الظلال لحركة الشمس المسخرة بدورها لله

سبحانه. أفلا يدلنا ذلك على سجود الطبيعة لله.

[16] (**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ**)

ليس العجب في الظل بل في منشأ الظل ، فكما قلنا : إن منشأ الظلّ هو دوران الأرض حول الشمس ، إذا فالعجب كلّ العجب في هذين الخلقين السماوات والأرض ، من ربهما ومسيرهما؟ بالطبع هو الله وحده.

(**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ**)

إذا كـان الله بهـذه القـوة والهيمنة ، إذا فلما ذا نتخذ غـيره وليّا لا يملك من هـذه القـوة والهيمنة شـيئا ، بل لا يملك قوة ذاته ، ولا هيمنة على قواه.

(**لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا**)

هـــذه الأصـــنام الحجرية أو البشـــرية لا تملك النفع لنفســـها ، ولا دفع الضر عنها ، فهل هي قـــادرة على إعطائك النفع أو دفع الضر عنك؟!

(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ**)

المشـــكلة ليست في الحقـــائق من حولك ، إنما المشـــكلة في أعيننا ، فـــالعين مدخولة ، أما الحقـــائق فموجـــودة ، والعمى والبصر الحقيقيـــان ليسا في العين ، بل في القلب كما قال تعـالى : (**فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**).

(**أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ**)

الظلمـات كما جـاء في الخـبر هي الكفر ، والنـور هو الإيمان.

(**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ**

(**خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**)

لا يستطيع أيّ إنسان مهما كان أن يدّعي أنّ هناك خالقا غير الله لهذا الكون ، فإذا لم يعترف بالله مثلا فلن يقول : إن الكون خلق نفسه ، قال تعالى : (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**) 61 / العنكبوت.

(**وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ**)

قد يكون الواحد قهّارا وقد لا يكون ، ولكن الله واحد وقهار .. واحد تدل على ذلك آياته ، وقهّار غالب على كلّ شيء بقدرته وإرادته ، أما عصيان البشر له فليس انحسارا لقهره ، بل لأنّه يمهل الكافرين ليزدادوا إثما مع إثمهم ، وإنما عجلة الله وانتقامه السريع هو الانحسار الحقيقي لقهر الله فكما ورد في الدعاء : [إنّما يعجل من يخاف الفوت ، وإنما يحتاج الى الظلم الضعيف].

فأما الزبد فيذهب جفاء :

[17] (**أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها**)

أيّ ان الأودية تسيل بقدر قطر المطر ، وهذه الآية تلمح الى أن المطر له مقادير معينة يقدرها الله حسب طاعة أو معصية العباد ، كما في قصة أصحاب الأحقاف (قوم هود) لما كفروا قطع الله عنهم المطر سبع سنوات ، وبعد أن جاءهم أهلكهم ، وقد قال تعالى : (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً**).

(**فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً**)

يقال : حمل للحامل بإرادته أو كان راضيا ، أما احتمل أيّ حمّل قسرا ، كما يقال للضيف الثقيل : احتملت الضيف ، أو كما يقال : احتمل الأذى ، فالسيل

يحتمل الزبد ، وكـأن الزبد غـير مرغـوب فيه ، والزبد هو المخلفات والأوسـاخ يجرفها السـيل معه ، وقـال صـاحب المجمع : الاحتمال رفع الشـيء على الظهر بقـوة الحامل له ، ويقــال : علا صــوته على فلان فاحتمله ولم يغضب ، والزبد وضر الغليان ، وهو خبث الغليـان ، ومنه زبد القـدر وزبد الســيل ، ورابيا : مرتفعا يتزايد باســتمرار تــدفق السيول عليه.

(**وَمِمَّا يُوقِـدُونَ عَلَيْـهِ فِي النَّارِ ابْتِغـاءَ حِلْيَـةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ**)

كما أن ما يجرفه السيل زبد ، فكـذلك المعـادن الـتي تصهر بالنار لتصنع منها الحلي هي زبد أيضا ، وهذه إشارة بـأن صـناعة الحلي تعتمد على الصـهر بـدرجات حرارية كبـيرة ، وسـبب أن متع الحيـاة زبد أنها تشـغل الإنسـان بالظاهر ، وتدعه ينسى هدفية الحيـاة ، ويتصـور أن هدفيّة الحياة هو ما يحصل من هذه المتع.

(**كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ**)

إذا فمتع الحيــاة مثل الزبد ، وهــذا هو الباطل ، أما الحق فعــادة ما يغفل عنه ، ذلك لأنّ الحق ليس الــذي يسـتهويك ، انما الحق هو الـذي يكمن خلف المبـاهج ، فلا تغرنك المباهج بل ابحث خلفها عن الحقيقة الناصعة.

(**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً**)

أيّ ان الزبد يتلاشى ويضـيع هـدرا ، قـال الـراغب في مفرداته : جفـاء : وهو ما يـرمي به الـوادي أو القـدر من الغثـاء الى جوانبه ، يقـال : أجفـأت القـدر زبـدها : ألقته إجفـاء ، وأجفـأت الأرض : صـارت كالجفـاء في ذهـاب خيرها. [1]

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن ـ ص 92.

(**وَأَمَّا ما يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَـذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ**)

إذا زال الزبد بقي الجــوهر ، والباطل لا يســتطيع أن يغطي الحق أبد الآبدين ، فالباطل سريع الزوال ، لأنه ضد الطبيعة ، وان الباطل لا يمتلك مؤهلات الوجود ليستمر.

[18] (**لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً وَمِثْلَـهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِـهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُـوءُ الْحِسـابِ وَمَـأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ**)

هـذه العـبرة من الأمثـال : فالـذين اسـتجابوا لرسـالة ربهم المتمثلة في المطر ، وســـاحت أودية قلـــوبهم ، استجابوا بالإيمان فان لهم الحسنى جنات تجري من تحتها الأنهار ، والذين لم يستجيبوا لرسالة الله لو أن عنـدهم ما في الأرض ومثله معهم من الزبد لما منع عنهم ســـوء الحساب وجهنم. نعوذ بالله منها.

سورة الرعد

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (23) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

المؤمنون .. صفات وتقييم

هدى من الآيات :

ضمن سياق سـورة الرعد الـتي تسـوقنا الى الايمـان بالله من خلال آياته ، يــذكرنا الــرب بصــفات المؤمــنين الســـلوكية ، وصـــفاتهم النفســـية ، ومن أبـــرز صـــفات المؤمنين الملتزمين

الوفاء بعهد الله سـبحانه الـذي عاهد الله به الإنسـان في عـالم الـذر ، والانتمـاء الى جبهة الرسـالة ، ومعـاداة غيرها ، وخشـية الله في كل حـال ، والخـوف من سـوء الحســاب ، والصــبر عند الشــدائد احتســابا لوجه الله ، وإقامة الصـــلاة ، والإنفـــاق في السر والعلن ، والخلق الرفيع ، ومواجهة الانحراف والفساد في المجتمع.

وأخـيرا فمن تجسـدت فيه هـذه الصـفات هل هنـاك جـزاء له أحسن من الجنة الـتي تجـري من تحتها الأنهـار ، والملائكة يدخلون عليه من كل باب يرحبون به.

بينات من الآيات :

(**أُولُوا الْأَلْبابِ**) :

[19] (**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَـقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى**)

هناك موقفان من القران :

الموقف الأول : هو الموقف المعـترف بـالحق الكامل المتجسد في القرآن.

الموقف الآخر : هو المتعـــامي عن القـــرآن الحق ، فـالقرآن حق به يبصر قـوم ويعمى آخـرون ، والقـرآن لا يتأثر بعمى قوم أو إبصار آخرين ، لأن القـرآن حق ثـابت ، ونحن الذين نتطور بالقرآن والسـؤال من الـذي يهديه الله الى القرآن؟ الجواب :

(**إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ**)

لماذا خصّ من يستفيد من القـرآن بأصـحاب العقـول لأنه لا يعــرف القــرآن ولا يســتفيد منه الا من نمّى عقله وأخضع سـلوكه لعقلـه. وتجـاوز هـواه وشـهواته ، وجـدير بالقرآن ان يفهمه مثل هؤلاء الرجال وهم أولوا العقول.

ما هي صفات اولي الألبـاب وأصـحاب العقـول الـذين ضبطوا أنفسهم ضمن أطار العقل.

الصفة الاولى :

[20] (**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ**)

عهد الله على الإنسـان في عـالم الـذر عند ما قـال : (**وَإِذْ أَخَـــذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـــورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ قـالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ**

الْقِيامَــةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هــذا غــافِلِينَ* أَوْ تَقُولُــوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْـدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (172 ـ 173 / الأعراف).

وجــاء في القــرآن قوله : (**أَلَمْ أَعْهَـدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُـدُوا الشَّـيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ**) (60 ـ 61 / يس)

عهد الله هو طاعته وتجنب معصــيته ، فبعد الالــتزام بعهد الله ســـبحانه على الإنســـان بالطاعة ، تــأتي بقية الصفات.

الصفة الثانية :

(**وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ**)

الوثــاق هو الربــاط ، والميثــاق : عقد مؤكد بيمين أو عهد ، وموثق الله هو ما أخـــــــــذه على جميع البشر أن يعبدوه ويوحدّوه ، وقد جاء في الروايات ان موثق الله هو مــوالاة أوليائه ، وقد أخذ الله على كل النــاس موثقا فقد أخذ موثقا عاما كما قـال : (**وَاذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللـهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ**) (7 / المائدة)

وأخذ على بـني إســرائيل موثقا آخر كما قــال : (**وَإِذْ أَخَــذْنا مِيثــاقَ بَنِي إِسْــرائِيلَ لا تَعْبُــدُونَ إِلَّا اللـــهَ وَبِالْوالِــــدَيْنِ إِحْســــاناً وَذِي الْقُــــرْبى وَالْيَتـــــامى وَالْمَسـاكِينِ وَقُولُـوا لِلنَّاسِ حُسْـناً وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ**) (83 / البقرة)

وقد أخذ الله على النبيين ميثاقا أيضا : (**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُـؤْمِنُنَّ بِـهِ وَلَتَنْصُـرُنَّهُ قـالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قـالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**) (81 / آل عمران)

ولموثق الله معنيـان أولا : طاعة الله كما قـال : (**وَإِذْ أَخَـذْنا مِيثـاقَ بَنِي إِسْـرائِيلَ**) كما سـبق ، ثانيا : تجنب معصـية الله والافـتراء عليه : (**أَلَمْ يُؤْخَـذْ عَلَيْهِمْ مِيثـاقُ الْكِتـابِ أَنْ لا يَقُولُـوا عَلَى اللـهِ إِلَّا الْحَـقَ**) (169 / الأعراف).

الصفة الثالثة :

[21] (**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**)

ما أمر الله به أن يوصل هو الـــرحم ، وقد جـــاء في الحديث عن زين العابدين (ع) أنه قال لابنه الباقر (ع):

يا بــني إيّـاك ومصـاحبة القـاطع لرحمه فـاني وجدته ملعونا في كتـــاب الله عـــزّ وجل في ثلاث مواضع قال في البقرة : (**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْـدَ اللـهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللـهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**) [1]

ـ والحديث طويل ـ.

وقد تظـافرت النصـوص بحيث لا تقبل الشك لكثرتها وتواترها : ان ما امر الله به ان يوصل هم أهل الـــبيت ، ولكن لا يعـني ان الآيـات لا تنطبق على كل رحم كما جـاء في الحـــديث عن عمر بن يزيد قـــال : قلت لأبي عبدالله (ع):

(**الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**)

فقال :

«**نزلت في رحم آل محمد صلّى الله عليه وآلـه ، وقد يكون في قرابتك ، ثم قال :**

(1) تفسير نور الثقلين ـ ج 1 ـ ص 45

فلا تكونن ممّن يقول للشيء أنه في شـيء واحد» [1]

الصفة الرابعة :

(**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**)

خشـية الله هي الضـمان الحقيقي من الانحـراف كما قـال : «ولا تخشـوهم واخشـوني» والخشـية من الله هي الخوف من أن يصب علينا عذابه ، ويأخذنا على حين غـرّة ، وقبل أن نبادر بالأعمال.

الصفة الخامسة :

(**وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ**)

يبـدوا أن الفـرق بين الخشـية والخـوف ، ان الخـوف أقل من الخشـــية كما قـــال العلامة الطباطبـــائي [2] في الميزان : والظـاهر ان الفـرق بين الخشـية والخـوف ، ان الخشـــية تـــأثر القلب من إقبـــال الشر أو ما في حكمه ، والخوف هو التأثر عملا بمعنى الاقـدام على تهيئة ما يتّقى به المحذور وان لم يتأثر به القلب ، ولذا قال سـبحانه في أنبيائه : (**وَلا يَخْشَـــوْنَ أَحَـــداً إِلَّا اللـــهَ**) [3] فنفى عنهم الخشـية عن غـيره ، وقد اثبت الخـوف لهم عن غـيره في مواضع من كلامه كقوله : (**فَـأَوْجَسَ فِي نَفْسِـهِ خِيفَـةً مُوسى**) (67 / طه)

وقوله : (**وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِـذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ**) (58 / الأنفال)

وســـوء الحســـاب هو : ان لا تقبل حســـناتهم ، بل يؤخذون بسيئاتهم ، وقد جاء في

(1) تفسير الميزان ـ ج 11 ـ ص 349
(2) تفسير الميزان ـ ج 11 ـ ص 343
(3). (39 / الأحزاب)

معــنى ســوء الحســاب أنه : هو الاستقصــاء والمداقة ، وسمي سوء الحساب لهوله وشدته كما جاء في الحديث :

«**ما من عبد انصبته للحساب الا هلك**»

أن المؤمن يخاف من إحصـاء سـيئاته فلا تغفر ، وتعد حسناته فلا تقبل.

الصفة السادسة :

[22] (**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**)

فـاذا أنت أوكلت أمـرك لله سـبحانه فسـتجد أن الله يعينك على ما صبرت عليه ، وما أجمل الصبر إذا كان الله وراءه ، ولكن لماذا الصبر ابتغاء وجه الله؟

لان الله سبحانه هو الذي يبتلى الإنسـان. اما ليختـبره كما قــال : «**أَمْ حَسِــبْتُمْ أَنْ تَــدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللـــهُ ما فِي قُلُــوبِكُمْ**» أو يبتليهم بما كســبت أيــديهم لينقيهم ويصـفيهم من الـذنوب ، فـاذا صـبرت واحتسـبت فأجرك على الله. فهذا يدل على صدق الايمان كما ، يـدل على رضى الإنسان بقضاء الله وقدره.

الصفة السابعة :

(**وَأَقامُوا الصَّلاةَ**)

القيــام بالصــلاة غــير أداء الصــلاة ، وإقامة الصــلاة مشـروطة بـالعزم والاهتمـام بسـائر شـروط ومواصـفات الصلاة.

الصفة الثامنة :

(**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً**)

الإنفـاق بالسر ضد الريـاء ، والإنفـاق في العلن تحـدّ لمن لا يريد منك الإنفاق ، أو تشجيعا للإنفاق.

الصفة التاسعة :

(**وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**)

معـاملتهم مع النـاس ليس معاملة البغض والعـداوة ، بل معاملة العطاء ، فهم لا يصـعّدون الصـراع مع النـاس ، بل يحاولون احتواء البغضـاء بـالحلول الهادئة ، والـدرء هو التحصـين أي يتحصـنون بالحسـنة من مضـاعفات السـيئة وهـذا معـنى آخر تحمله الآية ، وقد ورد في الحـديث : ان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال لمعـاذ بن جبل :

«إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها»

(**لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**)؟

(**أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**)

ما هي عقبى الدار؟

[23] (**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**)

ايمانهم يتعـدى حـدود إنقـاذهم لأنفسـهم وحـدهم الى الآباء والأزواج والأبناء ، فايمـان المـرء نجـاة لذويه ، وهـذا أفضل جـزاء لهم ، فمع فـرحهم بالجنة تقـرّ أعينهم برؤية ذويهم يلتحقون بهم.

وقد ورد في الأحاديث :

«ان المؤمن يشفّع في مثل ربيعة ومضر»

[24] (**وَالْمَلائِكَـةُ يَـدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُـلِّ بـابٍ* سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**)

هذا من أفضل الجزاء الذي ساقه الله للصابرين على البأســاء والضــراء ، والصــابرين على الطاعة لوجه الله ، والصابرين عن ممارسة الباطل.

سورة الرعد

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ

27 [أناب] الإنابة الرجوع الى الحق بالتوبة ، انتاب فلان القوم أتاهم مرة بعد مرة.

(27) الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُـوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللـهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

---

29 [متاب] المتاب التوبة.

[سيّرت] التسيير تصيير الشيء بحيث يسير.

[قطّعت] التقطيع تكثير القطع ، والقطع تفصيل المتصل.

الكافرون .. صفات وتقييم

هدى من الآيات :

حدّثنا الـدرس السـابق في سـورة الرعد عن صـفات المؤمــنين ، أمّا في هــذا الــدرس فيحــدثنا عن نقيضــهم (الكفار) ، وصفاتهم بعكس صفات المؤمنين.

عند ما يســـود المجتمع .. اي مجتمع ثقة متبادلة بين أبنائه فـان تفاعل هـذا المجتمع مع بعضه يجـري كمجـرى الدم في العروق السـليمة ، وكلما ازداد التفاعل والتكامل بين أعضــاء المجتمع كلما كــان أقــرب الى الحضــارة ، والحضـارة هي : حضـور الإنسـان عند الإنسـان ، وسـيادة العدالة والثّقة المتبادلة ، أما إذا انعـدمت هـذه الشــروط في الحضـارة فانها ستضـمحل ويحل محلها التخلف حـتى وان ظهـــرت على الســـطح صـــور حضـــارية ، فليست الحضارة هي التقدم التكنولوجي ، ولكن الحضارة ما سبق ذكره.

وكلما كانت الصلة بين أبناء المجتمع أمتن. كلّما كانت رحمه الله إليهم أقـرب. وأما إذا قطعـوا الصـلة الـتي أمر الله بهـا. فـان لعنة الله المتمثلة في الحرمـان والعـذاب تنزل بهم. ولهم سوء الدار.

والــرزق من اللــه. كما أن منعه بيد الله ، وأكــبر من رزق الدنيا. هو نعيم الآخـرة بينما الكفـار يفرحـون بما في الدنيا وما في الدنيا غير متاع.

ويطالب الكفار أبدا بآية. وكان النقص في الآيات. كلّا. انما النقص في أنفسـهم إذا الله يضل من يشـاء ، بسـبب سوء إختياره ويهدي اليه من أناب اليه.

ومن هم المــنيبون انهم المؤمنــون حقا وهم الــذين تطمئن قلــوبهم بــذكر اللــه. بلى إن ذكر الله فعلا يعطي سكينة النفس واطمئنان القلب.

إن هـؤلاء الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات لهم حيـاة طيبة في الدنيا. ولهم حسن مآب في الآخرة.

بينات من الآيات :

صفات الكفار :

1 / نقض العهد :

[25] (**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ**)

من ابــرز صـفات الكفـار نقض عهد الله ، ومن ينقض عهد الله فهو لا يحـــترم نفسه ، ومن لا يحـــترم نفسه لا يحترم الآخرين ، وأخـيرا فهو يتحـدى الله ويخـالف أمـره ، وعند ما ينقض الإنســان عهــده فــان ذلك لا يجعل حياته مرسـومة ضـمن خطة بعيـدة المـدى ، بل تكـون أعماله مجرّد ردود أفعال لا أكثر أو بمعنى آخر انعكـاس لظـروف متغــيرة ، والعهد عهــدان : عهد مع الله اخـــذه الله على الإنسان في عالم الذر ، والعهد الثـاني : عهد مع الآخـرين أشــهد الله عليه ، فنقضك عهــدك مع الله كفر ، ونقضك عهدك مع الناس لؤم.

2 / قطع الرحم :

(**وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**)

يقطعون أرحامهم أو رحم أهل بيت الوحي كما سبق ذكره.

3 / الفساد في الأرض :

(**وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**)

بنشر الفساد ، وهناك معنى آخر نستوحيه : انهم يفسدون بيئة الأرض ، وهذه حالة الكفار فهم ينتقمون من الطبيعة ، وما الاسلحة الاستراتيجية والميكروبية الّا دليل على نشر الدمار كما ان تلويث البيئة الطبيعية دليل نشر الفساد.

(**أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**)

اللعنة الطرد والابعاد عن رحمة الله في الدنيا.

(**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**)

بالاضافة الى طردهم من رحمه الله في الدنيا ، إذ يعيشون القلق ، فلهم سوء الدار.

ملاحظتان :

الملاحظة الاولى : ان الصفات الحسنة كما الصفات السيئة أخوات ، فالصفة الحسنة تجر وراءها صفات أخرى حسنة مثلها ، كما ورد في معنى الحديث :

«**إذا رأيت من أخيك اكرومة حسنة فانتظر مثيلاتها**»

وهكذا الصفات السيئة.

اما لماذا ذلك؟ فلان الصفة الحسـنة مصـدرها نفسـية حسنة وهذه النفسية الحسنة تعطي بدورها صفات حسـنة اخرى ، والعكس صحيح ، فلذلك فان الله يسوق الصـفات الحسنة مع بعضها ، والصفات السيئة مع بعضها.

الملاحظة الثانية : ان للإنسان أربع علاقات :

1 ـ علاقته مع ربه.

2 ـ علاقته مع نفسه.

3 ـ علاقته مع الناس.

4 ـ علاقته مع الطبيعة.

وعلاقة الكافر بهذه الأصناف مقطوعة أو هي علاقات سلبية ، فعلاقته مع ربه مقطوعة ، كما قال : (**وَالَّذِينَ ... وَيَقْطَعُـونَ ما أَمَـرَ اللـهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ**). وعلاقته مع نفسه مقطوعة إذ أنه لا يحترمها وعلاقته مع الناس كـذلك كما قال سبحانه : (**وَالَّذِينَ ... وَيَقْطَعُـونَ ما أَمَـرَ اللـهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ**) وعلاقته مع الطبيعة سـلبية كما قـال : (**وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**).

(**وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ**) :

[26] (**اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ**)

ان الله يوسّع الرزق على من يشاء من عباده برحمته ويضيق عمن يشاء بحكمته.

وقد يشاء الإنسان الـدنيا فيبسط الله الـرزق له ، كما قال : (**وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِـرَةِ نُؤْتِـهِ مِنْها وَسَـنَجْزِي الشَّـاكِرِينَ**) (145 / آل عمران)

وقد يبسط الله الــرزق للإنســان بعد ابتلائه ليأخــذه على حين غـرة كما قال : (**وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَـرَّعُونَ* فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُـوا ما ذُكِّرُوا بِــهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْــوابَ كُــلِّ شَــيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَـةً فَـإِذا هُمْ مُبْلِسُـونَ**) (42 ـ 44 / الانعام)

اما نعم الله على الإنســان فبالاضــافة الى ما ســبق ربما تكون عذابا كما جاء في الحديث :

«ان العبد ليحرم الرزق لذنب أذنبه»

وربما يكـون امتحانا وأخـيرا إذا قـتر عليك الـرزق فلا تيـــأس من روح الله ، كما لا تعجب بما أتـــاك الله فقد يسلبه منك.

وانّ من حكمة الله ســـبحانه أيضا انه يهيء الــــدنيا للكافر ليلهو عن الحق ، ويبتعد عن الرسـالة ، فالـدنيا كما جاء سجن المؤمن وجنة الكافر.

(**وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا**)

الفـرح هو حالة الإشـباع النفسي ، مثل الطفل تشـبع نفسه بمجرد حصوله على لعبة يريدها فبعض الناس تكون نفوسهم ضيقة تشـبع بمجـرد ان تواتيها الـدنيا ، فالإنسـان الـذي تشـبع نفسه يغفل عن مسـئوليته ، ولا يجد للالـتزام داعيا.

(**وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ**)

المتاع هي الكماليات مما ليس ضــروريا ، حيث يمكن الاسـتغناء عنها أو الاستعاضة بغيرها إذا اهـترأت .. بلى إن الحياة مزرعة الآخرة ، هنا عمل بلا حساب ،

وهناك حساب بلا عمل.

ان الـــذي يعلم بأنه محتـــاج الى الله يجب عليه أن يرتبط معه.

يحكى ان ملكا كان يخوض حربا ضروسا ، فنذر نذرا : ان هو انتصر ليزيـدن في أجر الجند ، فبعد ان انتصر قـدّر المبلغ فوجده كبيرا ، فأراد أن يخلف نـذره ، فاسـتقرّ رأيه أخـــيرا ان يحتكم لـــدى أول من يـــدخل عليه ، فبينما هو جـالس في مجلسه إذ دخل عليه اعـرابي فـاحتكم اليه ، فقال له الاعـرابي : ان كنت تـرى انك لن تحتـاج الى ربك فلا تف بنـــذرك معه ، وان كنت تـــرى انك ســتحتاج اليه فأوف بنـذرك معه ، فـرأى الملك انه محتـاج الى الله في كل لحظة ، فوفى نذره.

كيف يطمئن القلب :

[27] (**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْـهِ آيَـةٌ مِنْ رَبِّهِ**)

الإنسان الـذي يريد النظر يكفيه البصـيص من النـور ، اما الذي لا يريد ان يبصر فضوء الشمس لا يكفيه.

(**قُـلْ إِنَّ اللـهَ يُضِـلُّ مَنْ يَشـاءُ وَيَهْـدِي إِلَيْـهِ مَنْ أَنابَ**)

يريد الإنسان الهداية فيهديه الله ، ويريد الضلالة فيمد الله له في ضـلالته وهـذا واضح من الاسم الموصـول مّن الذي يطلق للعاقل.

[28] (**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ**)

الاطمئنان : السكون والاستقرار.

والقلب المطمئن هو نفسه النفس المطمئنة كما قال سبحانه في آخر سورة

الفجر : (**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِـيَةً مَرْضِـيَّةً فَـادْخُلِي فِي عِبـادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**)
وذكر الله هو مطلق توجه الإنسان لله.
(**أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**)

في زحمة الحيـــاة ومع تـــراكم الأعمـــال ، ومع جو الارهـــاق والعمل ، وأثنـــاء القلق النفسي الـــذي يعصف بالكثيرين تركن النفس وتطمئن لـذكر الله ، وحـري بنا ان نعالج مشاكلنا النفسية بـذكر الله لأنه أنجح علاج يمكن ان يســـتفيد منه الإنســـان وخاصة في هـــذا الـــزمن ، زمن التيارات والصراعات التي يغذّيها الاستعمار شرقه وغربه.

[29] (**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**)

في الـدرس السـابق بعد ذكر صـفات المؤمـنين ذكر مصيرهم بقوله : (**أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ* جَنَّاتُ عَـدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَـلَحَ مِنْ آبـائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ* سَـلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**).

اما الآن فيذكر مصيرهم بأن لهم طوبى وحسن مآب.
ولعلّ المراد من الطوبى الحياة الأعظم طيبا.

وهـذا يـدلل لنا بـأن للمؤمـنين في الجنة في كل يـوم صـــنف جديد من النعيم ، فلا هم يملـــون ، ولا الله يقـــترّ عليهم.

كَــذلِكَ أَرْسَــلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَــدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُــوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْــكَ وَهُمْ يَكْفُــرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (30) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِـهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِـهِ الْمَـوْتى بَـلْ لِلَّهِ الْأَمْـرُ جَمِيعـاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعـاً وَلاَ يَـزالُ الَّذِينَ كَفَـرُوا تُصِـيبُهُمْ بِما صَـنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْـدُ اللـهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31) وَلَقَدِ اسْـتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَـأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا ثُمَّ أَخَـذْتُهُمْ فَكَيْـفَ كانَ عِقابِ (32)

---

32 [فأمليت] الإملاء التأخير.

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُــرَكاءَ قُــلْ سَــمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَــهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظـاهِرٍ مِنَ الْقَـوْلِ بَـلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْـلِلِ اللـهُ فَما لَـهُ مِنْ هادٍ (33) لَهُمْ عَـذابٌ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَلَعَـذابُ الْآخِـرَةِ أَشَـقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللـهِ مِنْ واقٍ (34) مَثَـلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِـدَ الْمُتَّقُـونَ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْــكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَــوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35)

لله الأمر جميعا

هدى من الآيات :

ضمن آيـات هـذا الـدرس يـذكرنا القـرآن الحكيم بـأن الهدى والضلالة من عنده إذا أرادها الإنســان لنفسه ، وان الرسـالة المحمدية هي امتـداد طـبيعي لرسـالات الأنبيـاء الســابقين ومكمّلة لها ومهيمنة عليها جميعا ، وأن ســنن الله واحــده تطبق على ســائر الأمم في ســائر الأجيـال ، فكما انطبقت على تلك الأمم هـذه السـنن كـذلك تنطبق على هذه الامة.

ويذكرنا السياق بأن أساس كفر الكفّـار ليس برسـالة الرسـول ، بل بـالرحمن ، ثم بما يتفـرع منه من رسـالات الـرحمن ، فعلى الرسـول أن يتوكل على الله لو كـذّبوه ، ولو أن الله اســتجاب لهم بطلبهم المزيد من الآيــات لما زادهم ذلك الّا عنادا واستكبارا ، ثم هل هناك آية أكـبر من هـذا القـرآن الـذي لو كـان من المقـدر ان يسـير الجبـال ويكلم الموتى لكان به وأكبر دليل على ذلك أن كثــيرا من القوارع نزلت على من قبلهم أو قريبا منهم فلم يتّعظـوا ، ولو أنهم يريدون الهداية بالآيات لاهتدوا بتلك القوارع

واتّعظــوا بها ، فهــذه الأمم أعطيت مهلة كما أعطــوا هم مثلها ، فعـــاجلهم الله بالعقـــاب لما اختـــاروا الكفر على الأيمان.

وبعد ذلك يســـأل : هل إن الله هو القــــائم على كل نفس بما كســبت من خــير أو شــرّ أم الشــركاء؟! وهل الشركاء هم الذين ينبئون الله ويوحون اليه؟!

ان مكــرهم الســيئات ، وتــزيين ذلك في نفوســهم ، والصـدّ عن سـبيل الله كـان السـبب الرئيسي في إضـلال الله لهم ، ومن يضلّ الله فلن تجد له هاديا مرشــدا ، وأما نهاية هــؤلاء فاما عــذاب الــدنيا والآخــرة ، أو عــذاب في الآخرة ، وأما نهاية المؤمــنين فأحسن منهم مقاما وأفضل نديّا.

بينات من الآيات :

(**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ**) :

[30] (**كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ**)

ان الله أرسل الرســول الى أمة ســبقتها أمم جــرت عليها السنن الإلهية كما ســتجري على امة الرســول (ص) أيضا ، وهذه الآية توضح الامتداد الطــبيعي للبشــرية ، وأن في البشرية خطّا متكــاملا ، وأن الأمم مهما اختلف زمانها ومكانها عن امة الرسول فهناك جـامع مشـترك بين سـائر الأمم ، وهي كما سبق ذكره محكومة بسنن واحدة تجــري على الكل.

(**لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ**)

الهدف من رسالة الرسول ان يكون معبّرا عن حقيقة الرسالة ، وان الرســول مهما تحمل من الجهد فهو مجــرد تال لما نزل عليه ، اي أن الرســول ليس صــانعا للــوحي ، وانما يؤدي دور المرآة إذ يعكس الرسالة الى أمته.

(**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ**)

جـذر كفـرهم انما هو بـالرحمن وليس بك ، وقد جـاء في الدر المنثور عن ابن جريح في قوله : (**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِـــالرَّحْمنِ**) قـــال : لما كـــاتب رســـول (ص) قريشا في الحديبية كتب بسم الله الـرحمن الـرحيم قـالوا : لا نكتب الـرحمن ، وما نـدري ما الـرحمن؟! وما نكتب الا باسـمك اللهم (!) فانزل الله ، (**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ**).

(**قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

هذا هو الرحمن الذي يكفـرون به ، لا اله غـيره ، رب الأرباب ، لا ندّ له ولا نظير.

(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**)

في دعوتي إليكم مع تكذيبكم بي.

(**وَإِلَيْهِ مَتابِ**)

اليه بخوعي وانابتي.

حقيقة القرآن :

[31] (**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى**)

لما واجههم الرسول بعد طلبهم الآيات بالقرآن ، وأكّد على انه المعجزة الكبرى تعللوا بأن هذا القـرآن المعجـزة لو سيّرت به الجبال من حولنا (حول مكة) حـتى نسـتطيع أن نـزرع ، أو قطعت به الأرض كما كـان سـليمان يرسل الرياح فيقطّع بها

الأرض ، أو كلم به المـــوتى ، كما كـــان موسى وعيسى لكانوا يؤمنـون به ، ولكن لو أنـزل الله مثل هـذه الآيـات ، أكــانوا يؤمنــون بهــا؟! ولكن قصــدهم التعجــيز وتحــدي الرسالة ، فلن يرسل الله مثل هذه الآيات ، وهـذا القـرآن له القــدرة على هــذه الأشــياء لو عــرف الإنســان كيف يستغله ، وقد قال الله سبحانه : (**لَوْ أَنْزَلْنا هـذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**).

(**بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً**)

ان الله يســتطيع ان يــنزل هــذا القــرآن ، وقد أنزله فعلا.

جــواب «لــو» في الآية (**وَلَــوْ أَنَّ قُرْآنــاً سُــيِّرَتْ**) محذوف وتقديره أحد هذين المعنيين :

أولا : لما أفادهم.

ثانيا : لكان هذا القرآن.

وحسب نظـري ان كلا الجـوابين صـحيحان ، فلو كـان القـرآن كـذلك لم ينفعهم كـون القـرآن تسـير به الجبـال وتقطّع به الأرض ويكلّم به المــوتى ، وثانيا : ان القـــرآن كذلك ، وقد اسـتطاع (كما أسـلفنا) المؤمنـون حقا الـذين استوعبوا حقائق القرآن ان يستفيدوا منه هذه الفوائد.

اليأس من الإصلاح :

(**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشـاءُ اللـهُ لَهَـدَى النَّاسَ جَمِيعاً**)

منع الله الآيــات عنهم ليس ســببا لضـلالتهم ، بل لأن الله لم يهدهم ، فان الله لا يهدي الّا من ينيب.

واليأس هنا له معاني ، فمن معانيه العلم ، اي (**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً**) وهي لغة هوازن ، وقال بعضهم : ان اليأس معناه القنوط وشرّب معنى العلم فيكون المعنى : (**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً**) ، وقال بعضهم ان هناك باء محذوفة فيكون تقدير الكلام (**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً**).

وفي الحقيقة فان هناك جامعا مشتركا لهذه الحقائق الثلاث ـ فمن جهة يجب أن ييأسوا من اهتداء هؤلاء ، ويعلموا بأن هؤلاء لن يهتدوا ، وبالتالي يجب أن يعلموا بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا ، فالمعنى واحد.

(**وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ**)

«ولا يزال» تفيد الاستمرارية ، وربما تعبر هذه الكلمة عن تضمين معنى السنّة الدائمة ، وثانيا : ان الإنسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه ، فالعذاب هو نتيجة ما اقترفت اليدان من الذنوب ، والقارعة هي الكارثة.

فهذه الكوارث الالهية تصب ولا تزال تصب على رؤوس الكافرين.

(**أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ**)

فمكة مثلا لم تكن تصاب بالحروب أو بالزلازل ، بل تنزل هذه المصائب فيما حولها ، ولكن لم يتعظ الكافرون.

(**حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ**)

هذه القوارع ما هي الا إرهاصات يصبّها الله عاجلا على الكافرين ، اما القارعة الحقيقية فهي في الآخرة (**الْقارِعَةُ* مَا الْقارِعَةُ* وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ* يَوْمَ يَكُونُ**

النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُـوثِ* وَتَكُـونُ الْجِبـالُ كَـالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (1 ـ 5 / القارعة)

(**إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ**) ان الله لن يخلف موعده مع الكفار بأن يأخذهم في ذلك اليـوم حيث لا يسـتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

(**فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**) :

[32] يسترسل القـرآن في الفكـرة الـتي بـدأها في بداية هذا الدرس بتكذيب الأمم رسـلها ، وان موقف الأمم عبرة لمن ألقى السمع ، وموقف الرسل عبرة للرسـول ، فيقول الله سبحانه :

(**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَـأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**)

كما ان إرسـال الرسل سـنة ، فكـذلك تكـذيب الأمم سنة أيضا ، وليس التكذيب هو الأسـلوب الوحيد للمواجهة ، بل هنـاك أسـلوب آخر يعتمـده الكفـار ضد الرسل وهو أشـدّ أثـرا بنفسـية الرسل الا وهو أسـلوب الاسـتهزاء ، وأسلوب الاستهزاء مجمـوع نـوعين من أسـاليب الكفـار ، فلا يكـون الاسـتهزاء الا بالتكـذيب ، ومن ثم بالسـخرية والاسـتخفاف ، وهنـاك في زماننا الكثـير ممن تركـوا رسالتهم لأن الناس واجهوهم.

والامهـال والاملاء هو من حكمة الله الماضـية على عبيده العاصين جاء في الحديث :

«كم من مسـتدرج بالإحسـان اليه ، ومغـرور بالستر عليه ، ومفتون بحسن القـول فيه وما ابتلى الله أحدا بمثل الاملاء له» [1]

---

(1) بح 73 ص 383 رقم 8

وقد قـــال الله : (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْـــدِي مَتِينٌ) (183 / الأعراف).

(ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ)

اي كيف كان عقابي لهم؟! وهذا تعبير عن الشدة في الأخذ ، وهــــذه النتيجة الســـيئة لمن يكـــذب بالرسل ويستصغر شأنهم.

[33] (أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ)

القائم على كل نفس : الحافظ لها ، وقيل معناه : انه قائم على كل نفس بالرزق ، وربما ما بعدها يحددها.

(بِما كَسَبَتْ)

بما عملت ، فحكم نفسك ليس بيــدك ، ولا تســتطيع نفسك ان تفلت من زمــام التقــدير ، فــان الله لو تركها لحظة لانتهت ، ولما بقي لها من الوجــود شــيء ، والله لا يعصى عن غلبة ، وأنت إن أعطيت التخيـير في الطاعة أو المعصـية ، فـأنت مسـير من قبل الله ، وأكـبر دليل على ذلك روحك وقلبك وسائر أعضـاء جسـمك الـتي تعمل ولو حدها ولا تدخلّ لك في ايقافها أو عملها.

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ)

أبعد ان أراهم الله الآيات في القيمومة على أنفسـهم يشـركون بالله سـبحانه؟! وكيف يشـركون به وقد أراهم من عظيم الخلقة ، ودقيق الصنعة.

(قُلْ سَمُّوهُمْ)

اي اذكــروهم ، ولعــلّ ذكر الاسم هنا ليس ذكر الاسم الذي يتسمون به ، بل

يعني اذكروا صفاتهم ، ومعلوم ان كل شيء يعكس اسـما من أسـماء اللـه. فالسـماء تجل لاسم العلو والعظمة ، والشمس تجـلّ لاسم الحكمة والقـدرة ، فقد يكـون قصد الله : اخبروني عن تجليات اسمائهم في مصنوعاتهم.

(**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ**)

اي بما لا يعلم له من شـركاء ، وعـدم العلم هنا ليس معنـاه ان الله غـير عـالم ، بل عـالم ولكن لا يعلم أن له شريكا ، فليس له شريك أبدا.

(**أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ**)

الشـركاء هي مجـرد ألفـاظ تسـمى من غـير واقع ، فكلمة جلالة الملك ليس معنى ذلك ان الملك صار جليلا ، بل رضاه بهذا الاسم يعكس ذلّته.

تغير المقاييس الفطرية :

(**بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ**)

المكر هنا اقتراف العمل السيء والمكر هو الفسـاد ، قـال تعـالى : (**وَكَـذلِكَ جَعَلْنا فِي كُـلِّ قَرْيَـةٍ أَكـابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها**) (123 / الانعام)

ولكن من الذي زيّن المكر لهم؟

ان الشـيطان هو الـذي يـزيّن لهم مكـرهم كما قـال : (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**) (43 / الانعام)

وفي آية أخـــرى ينسب الله لنفسه الـــتزيين : (**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمـالَهُمْ**) (4 / النمل)

ولا منافـاة فعند ما يغضب الله على إنسـان يكله الى الشيطان أو الى قرناء السوء فيكون تـزيين الله لهم بـأن يجعل لهم مزينين كما قال : (**وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**) (25 / فصلت)

إذا فليحـذر الإنسـان ان يـزيّن له سـوء عمله فـيراه حسـنا ، وعند ما يخضع للمزيـنين كـالطواغيت مثلا فـان مقاييسه الفطرية تتبدل وتصبح مقاييس عكسـية فالسـوء عنده حسن ، والحسن عنده سيء.

(**وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ**)

ليسـوا هم الـذين صـدوا أنفسـهم عن السـبيل ، كما أنهم ليسوا هم الذين زينوا لأنفسهم المكر انما الشيطان.

(**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ**)

ابتلوا هؤلاء بثلاث :

1 ـ زيّن لهم مكرهم.

2 ـ صدّوا عن السبيل.

3 ـ إضلال الله لهم.

نهايتان :

[34] (**لَهُمْ عَـذابٌ فِي الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَلَعَـذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ**)

على الإنسـان ان يسـتدل بعـذاب الـدنيا على عـذاب الآخرة مع ضرب هذا الرقم

بـالملايين ، وان عـذاب الـدنيا يختلف شـكلا عن عـذاب الآخـرة ، فقد يكـون عـذابهم في الـدنيا نفسـيا أو عـذابا جسديا ، وقد يكون كلاهما.

[35] (**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**)

هذه صفتها ..

(**أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها**)

أهل الجنة يأكلون أبدا.

(**تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا**)

هذه نتيجة تقواهم.

(**وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ**)

هـذه معادلة ، فـالكفر والتقـوى يسـاويان تماما النـار والجنة.

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُـدَ اللـهَ وَلا أُشْـرِكَ بِـهِ إِلَيْـهِ أَدْعُـوا وَإِلَيْـهِ مَـآبِ (36) وَكَـذلِكَ أَنْزَلْنـاهُ حُكْمـاً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـواءَهُمْ بَعْـدَ ما جـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَـكَ مِنَ اللـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (37) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَـأْتِيَ بِآيَـةٍ إِلاَّ بِـإِذْنِ اللـهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (38)

حكما عربيا

هدى من الآيات :

مواقف الناس من الكتاب ثلاثـة. فاما مـؤمن به كلّه ، أو مؤمن به في حـدود مصـلحته ، أو كـافر به ، وبمناسـبة الحديث عن أصناف الناس واتجاهاتهم من الكتـاب يحـدثنا الله عن : ان القرآن عربي ، وعروبة القـرآن ليس تعصـبا بربريا للعربية فالقرآن عربي إلّا أنه يخالف كل السخافات العربية ، والقرآن أيضا لا يتنازل عن قيمه مجارات للثقافة العربية الشائعة آنذاك.

بينات من الآيات :

الايمان المصلحي :

سبق الحديث في الـدرس السـابق ، ان سـبب الكفر بالرسـالة هو الكفر بـالرحمن ، فيعـني ذلك أن المؤمـنين الصادقين بالقرآن يؤمنون بالرحمن وبالتالي فهم يطبقونه لأنه يجسد ارادة الله وهداه.

[36] (**وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْـزِلَ إِلَيْكَ**)

تجسد هذه الآية الحالة النفسية التي تعتري المؤمنين من أهل الكتـاب لـدى نـزول القـرآن ، لان نـزول القـرآن انتصار لهم ، وتجسيد لارادتهم ، ويقــول الله عنهم : (**وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ. يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ**) 83 / المائدة.

(**وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ**)

والأحزاب هم اليهـود والمشـركون ممّن تحزبـوا على رسـول الله (ص) وقد قـال الله سـبحانه : (**لَتَجِدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِـدَنَّ أَقْـرَبَهُمْ مَـوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ قـالُوا إِنَّا نَصارى ذلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبانـاً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**) 82 / المائدة.

الأحــزاب هو جمع حــزب ، ولا يســمي الله المؤمــنين مهما كـــانوا أو اختلفـــوا إلا حزبا واحـــدا لأنهم تجمعهم الأهـداف والمنطلقـات فهم متحـدون في كل شـيء ، اما الأحزاب (الجمـع) فتطلق للأحـزاب الـتي تعـادي الرسـالة التي تختلف فيما بينها في كل شيء الا معـاداة الرسـالة ، وعند ما يقــول الله (**إِنَّ حِـزْبَ الشَّـيْطانِ**) فقد ذكر الله الصـفة البـارزة الـتي تجمع أحـزاب الشـيطان بأنها على اختلاف مشـــاربها تتفق على قاسم مشـــترك وهو اتبـــاع الشيطان ، مثل الشرق والغـرب يختلفـون في كل شـيء الا في استغلال العالم ونهب ثرواته.

هـذه الأحـزاب تحـاول احتـواء الرسـالة. تفضل الحل الوسط بعد معرفتها بصـــدق الرســـالة ، وهي تأخذ من القرآن ما يحفظ لها مصالحها ، ويدعم امتيازاتهم.

(**قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ**)

انما يؤمن بالكتاب حقا من يـؤمن بالله ، فهنـاك تلازم بين الايمان بالكتاب والايمان بالتوحيد.

(**إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ**)

اليه دعــوتي ان ضــاقت بي المســالك ، واليه مــآبي ورجوعي في جميع أموري ومعادي.

الحقائق القرآنية في مواجهة الأهواء :

[37] (**وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا**)

الحكم هو القضــاء ، والعــربي : بمعــنى الاعــراب ، والاعـراب هو الإفصـاح ، وليس معـنى قولنا : ان القـرآن عربي انه يوافق العرب في اعتقاداتهم.

(**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**)

اللغة عربية ولكن المحتـــــــوى إلهي ، والعربية لغة وليست مشــرّعة ، أما التشــريع الالهي فهو علم ، والعلم هو معرفة الحقائق وكشفها ، والأهواء شهوة عاجلة.

(**ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ**)

الله ولي الذين آمنوا كما قال وأن الكـافرين لا مـولى لهم ، فلئن اتبع الرســول أهــواء قومه ســيفقد ولاية الله ومن ثم لا ينصره ، وعند ما يتخلى الرسول عن العلم إلى الهـــوى. آنئذ يعذّبه الله ولا يجد له من دونه واقيا ، فـــاذا خالفك الناس سينصرك الله ، وإذا خالفت الله متبعا أهواء الناس سيخذلك الله ولا تجد من دونه نصيرا.

حياة الرسل وقدراتهم :

[38] (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِـكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً**)

ان الأنبيــاء بشر ، تطــرأ عليهم نفس العوامل الــتي تطرأ على البشر ، فهم يتزوّجون وينجبون ، فليس الأنبياء ممن يتعالون على جنسهم.

(**وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

إن الرســول لا يملك بذاته أمر الآيــات ، بل إن الله يظهرها متى شاء على يد نبيّه من دون ان يؤثّر فيها.

(**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ**)

كل شيء محدود بأجل.

يَمْحُـوا اللـهُ ما يَشـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْـدَهُ أُمُّ الْكِتـابِ (39) وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِـــدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَـأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُــها مِنْ أَطْرافِها وَاللـــهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعـاً يَعْلَمُ ما تَكْسِـبُ كُـلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَسْـتَ مُرْسَـلاً قُـلْ كَفى بِاللـهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (43))

---

41 [معقّب] التعقيب رد الشـيء بعد فصـله ، ومنه عقب العقـاب على صيده إذا ردّ الكرور عليه بعد فصله عنه.

الحتم والممكن يمحو الله ما يشاء

هدى من الآيات :

في هــذا الــدرس الأخــير من ســورة الرعد يــذكرنا السـياق القـرآني بـأن الأمـور بيد الله وان إرادته مطلقة تتجاوز التقدير والسنن وانه يمحو ما يشاء ويثبت ، وثانيا : انه ليس على الرسـول الّا البلاغ وان على الله الحسـاب ، فـان شـاء نـزّل العـذاب على أولئك الكـافرين وان شـاء اخّره.

الله مهيمن على الكــون فهو الــذي ينقص الأرض من أطرافها ، وحكمه حكم حتم لا ينقضه أحد ، وهو ســـــريع الحســاب ، وإن الله لم يعص عن غلبه ، والــذين مكــروا السـيئات يمكر الله بهم وهو خـير المـاكرين ، وغـدا حين يحشر الكفـار سـيعلمون لمن عقــبى الــدار ، أما الــذين يقولون بأن الرسول ليس مرسلا فان الله يـرد عليهم عن لسان نبيه (**قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً ... وَمَنْ عِنْـدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ**).

بينات من الآيات :

[39] جـــوهر رســالات الله يتلخص في ربوبية الله ، وهذه السورة تعمق هذه

الفكــرة ، وهــذه الفكــرة تشــكل الفــرق بين رسل الله وفلاسفة البشر ، فرسل الله بشّروا بهذه الفكـرة ، أما ما توصل اليه عقل هـذا الإنسـان العـاجز ، ان لهـذا الكـون خالقا خلقه ثم تركه يســير بالســنن ، كمن يخلق ســاعة الكترونية ويتركها تسير ضمن قـوانين محـددة ، وقد صـاغ أحد فلاسفة البشر الملحدين هذه الفكرة!!

وعموما فان فلاسفة البشر ينبئنا عن إله ميت لا ولاية له ولا دعـوة ، بينما رسـالات الله تنبؤنا عن إله حيّ قـديم لم يزل ولا يزال ، وتوجد هنـاك صـلتان نسـتطيع ان نتصل مع الله بهما.

أولا : الدعاء :

باســـتطاعتك ان تتصل بالله عـــبر الـــدعاء ، وان باستطاعتك ان تغير ما كتب عليك بسـببه ، فبالـدعاء أنت قادر على تغيير الطبيعة ، وتغيير القضاء المحتوم عليك.

ثانيا : صلة العمل الصالح :

فلســفة البشر تقــول ان الله قد كتب على الكــون مقدراته ، وانه لا ينفع شــيء امـام هـذا التقـدير ، وهـذه فلسفة القدرية الذين آمنوا بالحتميات ، فصار عنـدهم كل شـيء محتـوم .. إذا عملك الصـالح لن ينفع أمـام التقـدير المحتّم ، أما نحن فلا نـــؤمن بالحتميـــات (السياســـية والاقتصـــادية والثقافية والتربويـــة) نـــرى ان من الممكن تغيير كل حتمية ، فصحيح أنّ هنـاك قـوانين وسـننا ، ولكن الإنســان يعلو بإيمانه وعمله الصــالح على هــذه الانظمة والسنن ان الله أكبر من القوانين والسـنن انه هو صـاحب المشــيئة المطلقة ، ولا شــيء محتم عليه ، فهو يمحو ما يشــاء ويثبت ، والإنســان الــذي يتصل بالله يتصل بهــذه المشـيئة المطلقة الـتي لا حتمية عنـدها ، أما إذا قلنا بـأن القلم قد جــفّ ، وأن الأجل قد انتهى وأن القــدر قد كتب في الكتــاب إذا فلا معـنى للـدعاء والعمل الصـالح. قــال تعالى :

(**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ**)

إذا كنت في قائمة الأشـقياء فباسـتطاعتك أن تكـون من السعداء إذا اتصل قلبك بالله ذي الطـول ، قـال الله : (**وَإِذا سَـأَلَكَ عِبـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ**) (186 / البقرة)

وقال : (**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**) (60 / غافر)

فهو الذي أمرنا بالدعاء وضمن لنا الاجابة.

(**وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**)

الكتـاب لفظ يـؤدي الى معنـيين : المعـنى الاول : هو اللوح المحفـوظ ، والمعـنى الثـاني : هو أم الكتـاب ، فـأم الكتاب انعكاس لعلم الله بما كان وبما يكون ، فالله عالم محيط علما بكل شـيء ، قبل وبعد أن يكـون ، وعلم الله ليس علم الكشف ، بل انه يتعـــــدى الى المســـــببات والمـؤثرات ، لأنه صـانعها ، فعلم الله بالمسـبب لا ينفي علمه بالسـبب فأنا أعلم ان الصـخرة تسـقط من عـلّ ، فعلمي بالسقوط يسـمى كشـفا ، ولكن لا يعـني ذلك أني أنا المـؤثر في السـقوط ، فـالمؤثر في السـقوط هي الجاذبية.

تكشف هذه الآية فكـرة البـداء ، وتعتـبر هـذه الفكـرة قطب الـرحى في الحكمة الاسـلامية وهي أكـثر الأفكـار تقدمية وحضارية ، وأكثر الأفكار تربية للبشر ، فالذي يعلم ان الأقدار بيد الله يكون أكثر تحركا ، جاء في الأحاديث :

1 ـ عن ابن مردوية وابن عسـاكر ـ من أكـبر علمـاء السـنة ـ عن علي بن أبي طـالب أنه سـأل رسـول الله صلّى الله عليه وآله عن هذه الآية ، فقال :

«**لأقـرّن عينيك ولأقـرّن عين أمـتي بعـدي بتفسيرها : الصدقة على وجهها يحول**

الشقاء الى سعادة ، وبر الوالدين يزيد في العمر ، واصطناع المعروف يقي مصارع السوء»

2 ـ عن أبي عبدالله (ع) قال :

«**يمحو الله ما يشاء ويثبت» وقال : «وهل يمحي الله الا ما كان ثابتا ، وهل يثبت الّا ما لم يكن»**

من هذا الحديث نرى أنه لا حتمية في الحياة ، وأن الحياة في حالة تطور ، وهي ليست حياة استاتيكية قائمة على نظم لا تتغير .. كلا.

3 ـ عن أبي جعفر الباقر عن فضيل بن يسار ، قال : سمعت أبا جعفر (ع) يقول

«**من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة ، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله ، يقدّم فيها ما يشاء ، ويثبت منها ما يشاء ، لم يطلع على ذلك أحدا ــ يعني الموقوفة ــ فأما ما جاءت به الرسل فهي كائنة ، لا يكذب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته»**

4 ـ عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول :

«**لو لا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وبما يكون الى يوم القيامة ، فقلت له : أيّة آية؟ فقال : قال الله** : (**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**).

[40] (**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**)

من العذاب في حياتك أو بعد موتك ، وعلى ذلك فليحذر الكافرون وأعداء الرسالة ان يصيبهم الله بعذاب من عنده ان هم تمادوا في غيّهم ، فاما يدركهم سراعا فينتقم الله لرسوله ، أو يؤخرهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

(**فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ**)

لا يد للرســول على قومه ســوى تبليغ رســالة الله ، وعلى الله الحساب في أن يأخذهم مـتى شـاء ، ولا يعـني ذلك أنه لا يستطيع ان يدعو عليهم بالعـذاب ، أو أن الله لا يستجيب له ، وأن الله إذا أراد أن يصب العذاب على قوم فلن يســتطيع الأنبيـاء ردّه ، كما لم يســتطع نــوح ان يــرد العذاب عن ابنه.

[41] (**أَوَلَمْ يَــرَوْا أَنَّا نَــأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُــها مِنْ أَطْرافِها**)

فقد يكــون نقص الأرض من أطرافها بــاهلاك البشر المكـذبين كما قـال تعـالى : (**بَلْ مَتَّعْنا هـؤُلاءِ وَآبـاءَهُمْ حَتَّى طـالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُـرُ أَفَلا يَـرَوْنَ أَنَّا نَـأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ**) (44 / الأنبياء)

وقد يكون بذهاب العلمـاء فـاذا نقصـوا أو قلّـوا رزأت الرحمة (اي ولّت) عنهم ، فالعلمــــاء هم بمثابة الجبــــال الراسيات في الأرض.

وهنا تفسير كوني يقال : أن الأرض آخذة في التقلص ، وربما هــــذه الآية تـــدل على ان الأرض مفلطحة من القطبين.

(**وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**)

ان الله هو الحاكم الفعلي في الحياة ، وإذا أراد شــيئا لن يتــوانى ذلك الشــيء عن الاســتجابة له ، وإذا حكم بشيء فلن يستطيع أحد ان يغيّر حكمه سبحانه.

(**وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ**)

[42] (**وَقَـدْ مَكَـرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْـرُ جَمِيعاً**)

قد يحسب الإنسان أنه قادر على شـيء ، فيجيبه الله : ان كنت تحـاول المكر فأنا أشـدّ منك مكـرا لأن مكـري الاملاء والامهال.

(**يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ**)

من خير أو شر.

(**وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**)

سيعلمون حين لا ينفع العلم ان المؤمنين هم أصحاب الجنة.

(**كَفى بِاللهِ شَهِيداً**) :

[43] (**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً**)

يلخص الله مواقف الكفار من الرسالة ، وما يجب ان يكون عليه موقف الرسول ، فالكفار يتهمون الرسول بأنه غير مرسل من الله ، فما الرد الأفضل للرسول؟

(**قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**)

ولأن الله هو الحق وقد شـهد على الرسـالة ، فلا يهم بعدها ان شهد الكفار أو لم يشهدوا أليس الله هو الشـاهد الأكبر.

(**وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ**)

لكي يقـرب الله فكـرة صـدق الرسـول للكفـار فانه يعطيهم مقـاييس يؤمنـون بها ، فما دامـوا هم بشر فـإنهم سـوف يؤمنـون بالمقـاييس البشـرية ، فهم ان كـذبوا الرسـالة ، فـان هنـاك آخـرين يحملـون العلم يصـدّقون الرسـول ، ومن ظـاهر هـذه الآية يتضح ان من عنـده علم الكتاب هم اليهود والنصارى.

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث في فضل السورة :

عن الإمام الحسين (ع) قال :

«**من قرأ سورة إبراهيم والحجر في كلّ ركعتين جميعا في كـلّ جمعة لم يصـبه فقر ولا جنـون ولا بلوى**»

مجمع البيان ـ ص 301 ـ ج 6

وعن النبي محمد (ص) قال :

«**من قـرأ سـورة إبـراهيم والحجر أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعـدد من لم يعبدها**»

الإطار العام

سـميت هـذه السـورة باسم إبـراهيم رمز التوحيد ، ومحطم الأصـنام ، لأنها تـدور حـول رسـالة التوحيد الـتي يحملها الأنبياء ويخلصون من أجلها.

وفيما يبـدو من سـياق دروس السـورة أنها تـذكرنا بالجـانب الإلهي من رسـالة الأنبيـاء ، وكيف انهم يـذكّرون بالله ، بل يجسـدون بـدعوتهم أعلى مثل للتوحيد ، إذ لا يخشـون أحـدا الا الله ، وهـدفهم فقط نجـاة البشـرية من ظلمات التقليد والجهل والتبعية الى نور العقل والأيمان.

وقـال العلامة الطباطبـائي «رض» الكلام في هـذه السـورة فيما يقتضـيه الصـفات الثلاث : توحـده تعـالى بالربوبية وعزته ، وكونه حميـدا في أفعاله ، فليخف من عزته المطلقة ، وليشكر ، وليوثق بما وعده ، وليتذكر من آيات ربوبيته.

ويبدو ان سياق السورة يثير فينا الاحسـاس الفطـري بالشـكر للمنعم ، والتـذكرة بـان ابـرز الشـكر هو معرفة المنعم والتسليم له ، والعمل بأهداف النعم النبيلة.

سورة إبراهيم مكية وهي

اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الر كِتــابٌ أَنْزَلْنــاهُ إِلَيْــكَ لِتُخْــرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ بِـإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِـراطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيدِ (1) اللـهِ الَّذِي لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْـلٌ لِلْكـافِرِينَ مِنْ عَـذابٍ شَـدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْـتَحِبُّونَ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا عَلَى الْآخِـرَةِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3)

---

3 [يستحبون] : الاسـتحباب طلب المحبة بـالتعرض لها ، والمحبة ارادة منافع المحبوب ، وقد يستعمل بمعنى ميل الطباع.

وَما أَرْسَـلْنا مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ بِلِسـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشـاءُ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَــدْ أَرْسَــلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْــرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

---

5 [صبّار] : الصبار كثير الصبر.

مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ

هدى من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

باسم الله كـانت دعـوة الأنبيـاء .. بها ابتـدأت وبها صـبغت ، فاسم الله هو صـفاته الحسـنى الـتي تتجلى في الجلال والجمـال ، في القـوة والروعة ، في الرحمة الواسـعة المسـتمرة ، واسم الله الـرحمن الـرحيم ، هو النقطة المركزية للإشعاع في القلب والعقل والسلوك.

[1] والهـدف من الرسـالات ومن كتـاب الله الأخـير «القرآن» إخراج النـاس من الظلمـات الـتي هم فيها الى النور النازل عليهم.

(**الر كِتـابٌ أَنْزَلْنـاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**)

أولا : الكتـاب الـذي يرمز اليه الألف واللام والـراء ، انزل من السماء ، وانتقل الى الرسول دون ان يكون فيه أثر من شخصه.

ثانيا : إنه لجميع الناس ، وهذا دليل انه جـاء من أعلى ، دون ان يخضع لحــدود الزمــان والمكــان ، ومحــددات المادة.

ثالثا : الظلمــات هي الحالة الأولى الــتي كــان البشر فيها على حالة من العجز والنقص ، وغلظة الـــــــروح ، وانغلاق النفس والجهل ، وغلبة الشـهوات ، وبتعبـير آخر : إنها حالة العدمية المحيطة بالخلق من قبل أن يرشّ عليها ربنا من نوره ، خلقا وإنشاء وقوة وعلما.

والــرب الحميد الــذي نفخ في هـذا الإنسـان من نـور الإيجاد ما أخرجه به من ظلمات العدم الى نور الخلق. هو الـذي بعث بنـور الرسـالة ليخرجه به من ظلام الجهل الى نـــــــــور العقل والعلم ، ومن ظلام الجهالة والجاهلية والفوضى الى نور التزكية والتسليم والنظام.

(**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**)

فليس الله بــاعث النــور فقط ، بل هو الــذي يرعــاه أيضا لحظة بلحظة ، وخطوة بخطوة ، فلو لا تأييده لرسله لم يقـدروا على إنقـاذ البشر من الظلام ، واشـاعة النـور في حياتهم.

والنور الإلهي هو الهداية الى السبيل المؤدي الى الله العزيز ، الذي قهر بقوته كل شيء ، والحميد الذي وسعت رحمته كل شــيء ، فلم يأخذ أحــدا بقوته الا بعد ان أتم عليه حجته وأسبغ عليه من نعمه ظاهرة وباطنة.

(**وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ**) :

[2] الســـــماوات والأرض لله ، فمن أعز منه جانبا ، ومن هو أحق بالخوف منه وهو الـذي لا يـرحم الكـافرين ، بل يهددهم بعذاب شديد ، وويل وثبور.

(**اللهِ الَّذِي لَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ**)

هـــذا صـــراط العزيز الــــذي أحـــاط بملكوته ما في السـمـوات والأرض ، وينتقم بشـــدة ممن يكفر به ، أو يتنكب عن صراطه.

[3] لا يجـــوز لنا نحن البشر ان نتكئ على رحمه الله وننسى عقابه ، ونأمن من انتقامه ، لان تجربتنا في الحياة كشفت لنا عن وجـود الآلام والمآسي الى جـانب البركـات والرحمــات ، ولكن بـالرغم من ذلك نجد البعض يغـترون بالجانب المخملي من الـدنيا. لأنهم يفضّـلون العاجلة على الآخرة.

(**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ**)

فهم كالطفل لا ينظر ابعد من واقعه الحاضر ، ولا يؤمنون الا باللحظة التي هم فيها. أما المسـتقبل والعاقبة ، فهم يكفرون بهما ، شأنهم شأن الأنعام.

وهـذه الجاهلية هي الـتي تـدفعهم الى الكفر بما رواء حاضرهم المشهود من غيب معلوم.

وتراهم يصدون الآخـرين عن سـبيل الله ، ولا يـدعون النــاس يؤمنــون بــاليوم الآخر ، ربما من أجل ابــتزازهم واسـتغلالهم ، بل أكـثر من هـذا فهم يحتـالون على فكر النـاس ويضـلونهم بغـير علم ، من أجل تحكيم سـيطرتهم على المستضعفين.

(**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

إن الكافر الـذي حليت الـدنيا في عينه ، لا يردعه عن الشهوات والمصالح دين ، فـاذا علم ان مصـالحه تتعـارض وتعاليم الدين فسوف يعارضها ، وإن وجد مقاومة من

قبل الملـتزمين بالـدين ، فسّـرها حسـبما شـاء كما تفعل الصحف اليوم ، وقديما الأنظمة الفاسدة التي تمنع انتشار الوعي الديني الّا أنها كانت تنشر الضلالة باسم الدين.

(**وَيَبْغُونَها عِوَجاً**)

يريــدون دينا يــدعم مصــالحهم ، ويؤيد اســتغلالهم للناس.

(**أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**)

فهم يحسـبون الـدنيا خالـدة ، ويزعمـون ان اللـذات العاجلة كل شـيء بالنسـبة إليهم! كلا .. أنها سـبيلهم الى عذاب شديد.

إتمام الحجة :

[4] كون ربنا عزيزا فانه حميد أيضا ، لا يعذب النـاس الّا بعد ان يتم حجته عليهم. ولكن كيف؟ قال تعالى :

(**وَما أَرْسَـلْنا مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا بِلِسـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**)

بكل وضوح وبعبارات مفهومة وأمثلة وقصص ، لتـذكر من أراد الآخرة ، وسعى لها سـعيها فـان الله يهديه إليها ، ومن اعرض عنها واستحب الدنيا ، فان الله يضله.

(**فَيُضِـلُّ اللـهُ مَنْ يَشـاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشـاءُ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

فلا يضل أحدا أو يهديه الا بحكمته البالغة.

(5) والتاريخ يشهد على هذه الحقيقة ، فعند ما أرسل ربنا موسى بآياته الـتي تسـتجلي الفطـرة ، وتبهر العقل ، بعصاته ويده البيضاء ، وأمره الله بـان يـذكرهم بأيـام الله حين ينتصر المظلـوم على الظـالم في الـدنيا والآخـرة ، لعله يخرجهم بهذه التذكرة من

ظلمـات الإرهـاب والعـذاب وعبـادة الطـاغوت الى نـور الحرية والرفاه وعبادة الرحمن.

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَـكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ**)

فجاء ذلك اليوم الـذي أغـرق الله فيه فرعـون وقومه سريعا ، وأورث بني إسرائيل أرضـهم وديـارهم ، ولكن لم يتم ذلك ولم يكن ليتم الا بالصــبر والشــكر ، والمزيد من تحمل الصـــعاب ، والمزيد من العمل الـــذي يفتح العقل ويهدي به الله السبيل.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**)

سورة إبراهيم

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ

مُـرِيبٍ (9) قـالَتْ رُسُـلُهُمْ أَفِي اللـهِ شَـكٌّ فـاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَـدْعُوكُمْ لِيَغْفِـرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُـوبِكُمْ وَيُـؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى قـالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كـانَ يَعْبُـدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُـلْطانٍ مُبِينٍ (10) قـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبـادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِـإِذْنِ اللـهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللـهِ وَقَـدْ هَـدانا سُـبُلَنا وَلَنَصْـبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

---

9 [مريب] : الريب أخبث الشك ، والمـريب المتهم وهو الـذي يـأتي بما فيه التهمة ، يقال : أراب يريب إذا أتى بما يوجب الريبة.

طاعة الرسل .. هداية ونجاة

هدى من الآيات :

الصراط الـذي يـدعو اليه الرسل ، هو صـراط العزيز الحميد كما قال موسى لقومه :

بان يحمدوا ربهم بذكر نعمة النجاة من فرعـون الـذي كان يذيقهم سوء العذاب ، فيقتل أبنـاءهم ويبقي نسـاءهم لخدمته ، فكـان ذلك امتحانا عسـيرا من ربهم ، وقد أعلن الله لهم ان لو شـكروا لأكـثر نعمة عليهم ، وهـذا مظهر اسم الحميد لله ، بينما لو كفروا لسـاقهم بعـذاب شـديد ، وهذا مظهر اسم الله «العزيز».

ولان ربنا عزيز ، فلو أن أهل الأرض جميعا كفـــروا به لم ينقصه شيء ، لأنه الغني الحميد.

فكما قــال موسى ، قــال الرسل لاقــوامهم فكفــروا فأخــذهم الله بعزته بعد أن أتم حجته عليهم ، ونبأ ذلك ان الــذين كـانوا من قبل قــوم موسى مثل قــوم نــوح وعــاد وثمـود ، والـذين من بعـدهم أولئك قد نسـيهم التـاريخ فلا يعلم قصصهم الّا الله ، حيث

جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحة فردّوا أيديهم في أفواهم ، وقـــالوا : إنا كفرنا بما أرســـلتم به ، وأنا لفي شك مما تـدعونا اليه مـريب ، فقـالت رسـلهم : فيم تشـكون أفي اللـــه؟! وهو الـــذي لا شك فيه ، وقد فطر الســـماوات والأرض ، يـدعوكم ليغفر لكم بعض ذنـوبكم ، ويمنع عنكم الآثـار السـلبية للـذنوب على حيـاتكم حـتى ينتهي أجلكم الذي حدده الله لكم.

ولكنهم عانـــــدوا ، وقـــــالوا : نعم لا شك في الله ، ولكنكم بشر مثلنا ، ثم أنتم تدعوننا لمخالفة سـيرة آبائنا ، ولا تملكون سلطانا مبينا ، وحجة واضحة بما فيه الكفاية.

قـالت رسـلهم : أجل نحن بشر مثلكم ولكن الله منّ علينا برسـالاته كما يفضّـل بعض النـاس بمنه على بعض ، ولـذلك فنحن لا نملك من دون الله مـيزة عليكم ، وإذا كنا نملك سلطانا فمن الله وباذنه.

وقـــوة الرسل هي بتـــوكلهم على الله ، وبســـلامة ووضوح رؤيتهم ، وان على الله يتوكل المتوكلون.

بينات من الآيات :

(**اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**) :

[6] للعـادة سـلبيات سـلوكية ، والركـون الى النعم عادة سلبية إذ ينسى البشر أسـبابها ، وعلينا مقاومة حالة الاطمئنـان السـاذج بهـذه النعم عن طريق تـذكر الأوضـاع الســابقة ، وتــذكر الـــذي غيّرها بأحسن منها وهو الله ، ونتساءل أبدا كيف كنا ، ولماذا أنجانا الله؟!

وهكـــذا أمر موسى قومه بتــذكر أيــام استضــعاف فرعون لهم ، وكيف أنجاهم الله من عذابه.

(**وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ**)

يسومونكم : أي يذيقونكم.

(**وَيُـذَبِّحُونَ أَبْنـاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسـاءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**)

أي أعظم امتحان لكم ، وأصل البلاء هو إظهار الخفي ، وفي الظـروف الصـعبة يسـتخرج البشر كنـوز طاقاته ، ويفجر مواهبه الفكرية والجسدية.

لئن شكرتم ولئن كفرتم :

[7] وتــذكّر النعمة ومن أنعم بها ، أحد ابــرز أنــواع الشكر ، ومن عرف ان واهب النعمة هو الله ، فسعى في مرضــاته لكي لا يســلبها عنه زاده ، وهكــذا أعلن ربنا ان الشكر يزيد النعمة.

(**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**)

الزمان سيجري لمصلحة الشاكرين ، لأنهم يحتفظـون بالعوامل التي أدت بهم الى النعمة من التوكل على الله ، والسعي السليم والوحدة ، وادخار الثروة ، والاقتصـاد في الاستهلاك ، والعدالة في التوزيع.

وإنّ هذا لهو الشكر العملي الواجب بعد الانتصــار كما جاء في آية كريمة : (**اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ**) وبـالطبع سـيكون تناسي النعمة ، وتـرك الخصائص الفكرية والسلوكية التي رافقتها أو اسـتوهبتها ، هو الكفر بالنعمة الذي يسبب في زوالها.

(**وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ**)

[8] وقد يمن العــاملون على ربهم أنهم يســعون في مرضــاته ، وقد يزعمــون أنهم لو تركــوا ربهم لضــارّوه سبحانه.

(**وَقـالَ مُوسى إِنْ تَكْفُـرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**)

كفــرا نظريا أو عمليا بــترك الشــكر ، أو العــودة الى جاهليتكم السوداء ، فلن تضروا الله شيئا.

(**فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**)

وغــنى ربنا ليس بســرقة ، أو بــابتزاز حق ، أو لأجل الفساد ـ سـبحانه ـ كما هو غـنى بعض الأغنيـاء ، بل غنـاه حميد لأنه منه ومن أجل خـير العـالمين ، وهكـذا ينبغي ان يكون الأغنياء.

وهكـــذا ســـعى موسى من أجل إخـــراج قومه من الظلمات الى النور قبل الانتصار على فرعون وبعـده ، أما قبل فعن طريق قيـادة نضـال قومه ، وأما بعـده فـبرفع معنويـاتهم ، وتزكية نفوسـهم لكي لا يفسـدوا أو يبطـروا بالنصر فيعود إليهم الظلام ، أو يبتلوا بظلام جديد.

(**لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ**) :

[9] وهكذا سعى الأنبياء السابقون على موسى .. كم كان عددهم .. لا يعلمهم الا الله ، ولكن قصصهم واحـدة ، وقد جرت ضمن الفصول التالية :

ألف : جاؤا بالبينات الواضحة.

(**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُـوحٍ وَعـادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللـهُ جـاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ**)

لقد وفر الله للبشر نور العقل وهو يكفيه حجة بـأدنى تذكرة. بيد ان ربنا أتم حجته عليهم بالحجج الواضحة الـتي لا ينكرها الّا المعاندون.

بــاء : أما النــاس فقد ردوا أيــديهم ووضــعوها في أفـواههم اشـارة الى ضـرورة السـكوت ، كما يفعل من لا يريد الكلام فيجعل يــده على فمه ليقــول للآخر : افعل هكـذا واسـكت ، وهـؤلاء لم يكتفـوا بطلب السـكوت من الأنبياء بل أشاروا الى ذلك بأيديهم أيضا توغلا في العنـاد ، وليبقى عملهم شـاهدا على أنهم أساسا لم يسـتمعوا الى القول فكيف بقوله.

(**فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ**)

قال بعضهم : إن الناس ردوا أيـدي الرسل الى أفـواه الرسل لإسـكاتهم أو ردوا أيـديهم هم الى أفـواه الرسل لإسكاتهم.

(**وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ**)

وكفرهم سبق شـكهم. لأنهم قـرّروا الكفر عنـادا ، ثم ارتابوا بعدئذ ، كما جاء في الحديث :

«لا تجعلــوا علمكم جهلا ، ويقينكم شــكا. إذا علمتم فاعملوا ، وإذا أيقنتم فاقدموا»

(**وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**)

[10] جيم : أما الرسل فقد ربطوا بين رسالتهم وبين الذي اوحى بها وهو الله ، وبدأوا من نقطة البداية قائلين : أفي الله شــك؟! فمن إذا خــالق الســماوات والأرض وفاتقهما بعد ان كانتا رتقا؟!

(**قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَـكٌّ فـاطِرِ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**)

وذا أنتفي الشك في الله ، فـــان كل شك وريب آخر في الرسالة سيكون بـاطلا ، لأنه هو الـذي بعث بالرسل ، وأظهر على أيديهم المعاجز.

دال : وبعد ان عـــالجوا المشـــكلة العقلية عنـــدهم بتـذكرتهم بفـاطر السـموات والأرض وبأنه لا شك فيه لأنه وجداني. بعدئذ أخذوا يعـالجون السـبب الحقيقي لكفـرهم وهو مشــكلتهم النفســية ، وأثــاروا فيهم حبهم لأنفســهم فقالوا : ربكم يدعوكم برسالاته لمصلحتكم.

(**يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**)

ولنا ان نتساءل : لماذا لا يغفر ربنا كل الذنوب؟

أولا : ان بعض الـذنوب يـأتي بها العبد تكـبرا وعنـادا ، ففي الحديث :

«**قد يرى الله عبده على ذنب فيقـول له : افعل ما شئت فاني لا أغفر لك أبدا**»

ثانيا : ان بقاء بعض الذنوب سيف مسلط على غــرور البشر ، وأمنه من كيد الله ، وعجبه بذاته لكي يبقيه أبـــدا بين الخوف والرجاء.

(**وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى**)

ذلك لان دعـــوة الأنبيـــاء ليست من أجل إخلاد البشر في نعم الـدنيا الـتي لا تبقى ، وهم لا يبقـون لها ، بل من أجل توفـير الفرصة له ليسـتمر الى آخر اجله المحـدد له سلفا ، والا تنزل عليه الكوارث فتبيده قبل حلول أجله.

(**قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا**)

وكيف نقبل بـــــولايتكم علينا أم كيف يخصـــــكم الله بالرســالة من دوننا ، وكــان من ضــعف ثقتهم بأنفســهم كبشر انهم لم يصدقوا أنفسـهم ان يبعث الله إليهم بشـرا رسولا.

هـاء : ثم قـالوا إنّ تعـاليمكم مخالفة لتقاليـدنا الـتي ورثناها من آبائنا وتعودنا عليها.

(**تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا**)

واو : فطــالبوهم بحجة أقــوى من مجــرد التــذكرة ، بحجة مادية مثل احياء الموتى وتفجير ينـابيع الأرض ذهبا ، والعروج الى السماء ، ليضطروا الى الايمان ، ولم يكتفـوا بهدى عقولهم ، ولم يقاوموا ضغط التقاليد بـإرادة التحـرر منها لذلك قالوا :

(**فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ**)

[11] زاء : واعـترف الرسل بـأنهم بشر ، لا يتمـيزون عن غيرهم سوى الوحي الذي هو مضاف الى شخصـياتهم ، وليس جزء منها.

(**قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**)

وهذا التأكيد القـرآني جـزء من دعـوة الرسل ، ودليل صـــدق على انهم لم يجعلـــوا الافــتراء على الله وســـيلة للمكاسب المادية ، ولا يريــدون ذلك ولا يســمح لهم ربهم بذلك أبدا.

(**وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**)

بالرسالة ، ويقدر ما يمن الله يصبح الرسول عظيما ، لذلك لا يملك الرسول قدرة الإيتاء بالآيات الجديدة حسب رغباته.

(**وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

والأهم من ذلك اننا نعتمد على الله في تبليغ الرسالة وحـــــــــتى دعوتنا لكم ليست بقوانا الذاتية ، ولا بحسب قـــدراتنا الخاصة عند ما نقـــوم على أمر ، بل بقـــوة الله وقدرته المطلقة.

(**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)

[12] التوكل على الله عند الأنبيـــاء والمؤمـــنين بهم أصدق شاهد على انهم من قبل الله لماذا؟ لما يلي :

أولا : حب الــذات والحفــاظ على المصــالح ، فطــرة بشرية راسخة في اعماق ذات كل إنسان ، ولا يمكن لأحد الّا لمجنــون ان يعــرض نفسه للخطر ، لمجموعة أوهــام وخرافـــات لا تـــؤمن بها يمكن ان تكـــذب لتحصل على مصلحة أما ان تكذب لتحصل على صـفعة ، فمسـتحيل الا إذا كنت مجنونا.

ثانيا : يختلف الفرد الـذي يتحـرك في النـاس بقدراته الذاتية عمن هو مــدعوم من قبل قــوة أخــرى. فســلوك الموظف أو الشرطي أو الجاسوس أو المنتمي الى حزب قــوي يختلف كثــيرا عن ســلوك الفــرد العــادي. والرسل عليهم الســلام كــانوا يقــدمون بلا حســاب على المخــاطر وهم واثقون بالنصر. أو ليس هذا دليل على أنهم قد بلغـوا الحقيقــة. ولــذلك ربطــوا بين التوكل الظــاهر في ابعــاد حياتهم ، وبين الهدى الـذي رزقهم الله إيـاه ، فهم عرفـوا الحق ولذلك ضحّوا من أجله.

(**وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا**)

وكانوا يتحملون الصـعاب في طريق رسـالتهم كـدليل على انهم واثقون من طريقهم.

(**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللــهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**)

من شاء ان يعتمد على شيء فليعتمد على الله الـذي لا يخيّب أمل من توكل عليه ، فهو إذا حقيق بـــــان يتوكّل عليه المتوكلون.

سورة إبراهيم

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17)

---

15 [واستفتحوا] : الاستفتاح طلب الفتح بالنصر.

16 [صديد] : الصديد القيح يسيل من الجرح ، وانما سمي صديدا لأنه يصد حتى لا يسيل.

17 [يتجرعه] : التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار.

[يسيغه] : الاساغة اجراء الشراب في الحلق ، يقال ساغ الشيء وأسغته انا.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْـتَدَّتْ بِـهِ الرِّيحُ فِي يَـوْمٍ عاصِـفٍ لا يَقْـدِرُونَ مِمَّا كَسَـبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُـوَ الضَّـلالُ الْبَعِيـدُ (18) أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (20)

---

18 [اشتدت] : الاشتداد الاسراع بالحركة على عظم القوة.
[عاصف] : شديد الريح ، والعصف شدة الريح.

وخاب كل جبّار عنيد

هدى من الآيات :

تطور الصراع ، وتجسد عناد الكفار في إرهاب أهوج ، وهــددوا رســلهم بــالإخراج ، إذا لم يخضــعوا لبــاطلهم ، وأعلمهم ربهم ان الفريق الظـالم هو الهالك ، وان الفريق الآخر ســوف يســكن الأرض موعــدا بنصر الله له بســبب خوفه من الله ومن وعيده.

وكـانت محــاولات الكفـار للفتح تبـوء بالفشل ، لأنهم تجبروا في الأرض ، وعلوا فيها بغـير حق ، كما وقفـوا ضد الحق.

وفي الآخرة ، تنتظرهم جهنم التي تسقي نازلها بمــاء هو القيح ، يشر به جرعة جرعة دون ان يقــــــــدر على اساغته ، وابتلاعه بينما تحيط به أســباب المـوت ، لو كـان في تلك الدار شيء أسمه الموت ، بل يستمر معه عـذاب غليظ متكاثف موجة بعد موجة.

أما أعمالهم فهي كالرماد حين تهب عليها ريح شديدة العصف ، أنهم لا يقـدرون على الحصـول مما كسـبوا على شيء .. أو ليس هذا ضلالا بعيدا؟!

نعم .. لان خلقة الســـــــماوات والأرض قائمة على أسـاس الحق ، والضـلالة باطلة ولـذلك فهي لا مكـان لها في الكون.

ثم أنّ الله هو المهيمن على الســـــماوات والأرض ، فان يشأ يذهب بهم ويأت بخلق جديد. دون ان يكـون ذلك عليه عزيزا. أجل ولذلك لا معنى للتجبر والعناد.

بينات من الآيات :

(**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**) :

[13] تطور الصراع الى التهديد المباشر للرسل.

(**وَقـَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِرُسُـلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا**)

أي في ديننا الذين نميل اليه ، وهكذا أظهروا طبيعتهم الارهابية ، وعبادتهم للقوة مقام الحق.

وحين لا ينفع القـول الحق ويعاند الكـافر ، يسـتخدم أصــحاب الحق القــوة لــردع الباطل ، ولأن الرسل لا يعتمدون على قواهم الذاتية في مواجهة عناد الكفار ، بعد ان صــبروا على أذاهم بل على ربهم. لــذلك لم يــتركهم ربهم طــويلا. بل أوحى إليهم بكل وضــوح أنه ســيهلك بالتأكيد الظالمين.

(**فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**)

وهـذه سـنة الله مع الرسل والرسـاليين جميعا ، أنه يتركهم يواجهون عدوهم بصبرهم وإرادتهم حتى يجـربهم ، ولكن إذا حانت ساعة المواجهة الجدية ، فان نصـره يهبط عليهم بردا وسلاما.

[14] وبشــرهم الله بأنه مع هلاك الظــالمين يــنزل الرفاه والرحمة لهم.

(**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ**)

ولكن ليس جميع الناس يثقون بالكلام الذي فيه إنذار وبشارة ، بل فقط الذين يخشون ربهم ، ويتذكرون مقامه ، ومقامتهم أمامه للشهادة.

ولا يستمر النصر الا باستمرار أسبابه ، وهو الخوف من مقام الله وسمو جلاله ، والخشية من وعيده وإنذاره.

(**ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ**)

[15] وبثمن الخضوع التام لله ، دفع الله إليهم هدية النصر ، كما ان أعداءهم خابت ظنونهم وآمالهم وذهبت جهودهم سدى بسبب عنادهم ، وكلما طلبوا الفتح أملا وعملا.

(**وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**)

التجبر طلب علو المنزلة بما ليس له غاية في الوصف ، وإذا وصف العبد بأنه جبار كان ذما ، لأنه طلب للعلو لا لهدف بل للتعالي ، ولإشباع نهم الاستعلاء بحق أو بغير حق ، وهذا هو معنى العنيد ، وهو الامتناع عن الحق باستمرار.

[16] والله يقابل عناد هؤلاء بجهنم تلهب أكبادهم عطشا ، ولا يسقون الّا بماء كالقيح الذي يصدر من الجروح المتعفنة.

(**مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ**)

وقد يكون هذا القيح هو لعاب ألسنتهم المعاندة ، التي لا تنطق الا بالباطل.

[17] وهم يشربون الجرعة بعد الجرعة دون ان يجري ذلك في مريئهم بسهولة ، ولكنهم يحاولون ذلك بسبب عطشهم الملتهب.

(**يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِـيغُهُ وَيَأْتِيـهِ الْمَـوْتُ مِنْ كُـلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ**)

ذلك أن الموت ينعدم في الدار الآخرة.

(**وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ**)

أي امامه عذاب كثيف.

المنهج الالهي حصن الحضارة :

[18] وأعمـال هـؤلاء تـذهب عبثا ، لأنها لا تجـري مع سـنن الله في الأرض ، كمثل الـذي يحث الخطى بعد أن ضل الطريق وتاه في الصحراء ، فهل يبلغ هدفه؟!

(**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ**)

اي يـوم اشـتدت الريـاح فيه عصـفا ، منذ بدايته الى نهايته ، ان الرماد ينبث في الفضاء بسبب عدم اسـتقراره على أساس ثابت ، وعدم وجوده في حصن مـنيع ، كـذلك العمل الـذي لا ينبعث من أرض الأيمـان الصـادق ، ولا يحصّنه المنهاج السماوي.

(**لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ**)

بالرغم من ان أساس الكـون قـائم على ان للإنسـان ما سعى ، ولكن السعي الذي يتبع الهوى ، ويخضع لضغط الطبيعة ، ولشهوات الناس يكون كالرمـاد الـذي تشـتد به الـريح لتجد كل جـزء منه في اتجـاه بينما السـعي الـذي يستقيم في الخط الصاعد ، يستمر.

(**ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ**)

الذي لا ينفعه الكسب ، وهو أفضل ثمرات العمر.

[19] والسـؤال : لمـاذا لا تقـدّر عدالة الله ، مكاسب هــذا الفريق من البشــر؟ ذلك لأن الله قد بــنى السـماء والأرض على أساس سنن وانظمة ومناهج وسـبل سـماها جميعا بالحق ، فمن عرفها وسخّرها قـدر على ما أكتسب ، ومن تحـداها بهـواه وبضـلالته لم يقـدر على شـيء مما كسب.

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ**)

كل شـيء خاضع لسـنة ونظـام لا يمكن تجـاوزه ولا تسخيره الّا عـبر ذلك النظـام ، ومن الأنظمة ما هو واضح كالجاذبية وقـوانين الفيزيـاء والكيميـاء والاجتمـاع ، ومن الحق ما هو غـامض ويـذكر به الشـرع مثل آثـار الصـلاة والزكاة والإرث وما أشبه.

وأنك لا بد ان تخضع لهذه الانظمة ، وتأتي الحيـاة من بابها لتسـخرها .. أليس كـذلك ، فانك لا تسـخر الحيـاة بـالتجبر والعنـاد ، وباتبـاع اهوائك المتغـيرة ، وبالخضـوع لضغوط الشهوات.

انك محكوم في هذا الكـون ، وليس بحـاكم ولا بد ان تعترف بهذه الحقيقة ، وأبرز شواهد حاكمية الله عليك أنه إذا شـاء أذهبك وجـاء بخلق جديـد. أيّ حـاكم أنت الـذي لا تملك نفسك؟! فلما ذا العناد ، ولماذا التجبر؟!

(**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**)

[20] ويفعل ذلك كله دون ان تقدر على شيء.

(**وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**)

ليس بصعب .. فـأنت لو تجـبرت سـوف تصـبح أهـون هالك لا يســأل عنك أحد ، ولا تتعب من يهلكك بشــيء سبحانه.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21) وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا

---

21 [برزوا] : البروز خروج الشيء عما كان ملتبسا به الى حيث يقع عليه الحس ، يقال برز للقتال إذا ظهر له.

[تبعا] : التبع جمع تابع كالغيب جمع غائب.

[مغنون] : اغنى عنه اي دفع عنه فأغناه ، اي نفي الحاجة عنه بما فيه كفايته.

[اجزعنا] : الجزع انزعاج النفس بورود ما يغم ونقيضه الصبر.

[محيص] : منجى ومهرب.

بِمُصْــــرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْــــرِخِيَّ إِنِّي كَفَــــرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْـلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَـذابٌ أَلِيمٌ (22) وَأُدْخِـلَ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّــالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ خالِــدِينَ فِيها بِــإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (23) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْـلُها ثـابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَـجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَـوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِــالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِـلُّ اللـهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ (27)

---

22 [بمصرخكم] : الاصراخ الاغاثة بإجابة الصـارخ ، ويقـال استصـرخني فلان فاصرخته اي استغاث بي فأغثته.

26 [اجتثّت] : الاجتثــاث اقتلاع الشــيء من أصــله ، يقــال جثه واجتثه والجثة أخذت منه.

فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ

هدى من الآيات :

ذكّرنا الدرس الذي مضى بان أعمـال الكفـار كالرمـاد تبذه الريح العاصفة ، ولا يحصلون مما كسبوا على شيء ، وفي هذا الدرس يذكّرنا سـبب ذلك ، كما يـبين ما يعاكسه من ثبات عمل المؤمنين. ونتساءل كيف ولماذا؟

ان الكفــار يعتمــدون على الطــاغوت والجبت ، وهما غير مهتدين ولا واثقين من أنفسهما ، فالطـاغوت المتمثل في المسـتكبرين يتـبرءون يـوم القيـام عمن اتبعهم ، وإذا سـألوهم أنا كنا تبعا لكم فهل أنتم تحملـون عنا شـيئا من العـذاب؟ أجـابوا : كلا .. لأننا ضـالون مثلكم ، وثانيا .. لأننا بـدورنا لا نـدفع العـذاب عن أنفسـنا ، أما الجبت المتجسد في الشيطان فانه يأتي يـوم القيامة ، ويشـمت بمن أتبعه ويقـول لهم : ان الله وعـدكم حقا ووعـدتكم بـاطلا ، ولم أكن أستطيع اجبـاركم على اتبـاعي أنما أنتم اسـتجبتم لي بحـريتكم ، فـاللوم عليكم وليس عليّ ، ثم يقـول لهم : لا أنتم تنقذوني من العذاب ولا أنا أنقذكم ، وأني الآن أتـبرئ من شرككم ، وأعلن ان الظالمين لهم

عذاب أليم بعكس وعودي السابقة.

هكـذا خـابت ظنـونهم .. أما المؤمنـون فـإنهم أدخلـوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن الله ، وهم يسـلّمون على بعضـهم بعكس ما يجـري في جهنم من صـراع ، فسـبب ثبـات أعمـال المؤمـنين ان الله يثبتها ، ومثلها مثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وأكلها دائم ، بينما الكلمة الخبيثة والعقيدة الفاسـدة مثلها مثل شجرة خبيثة ليس لها أصل ولا قـرار ، وهكـذا يحصن الله أعمـال المؤمـنين بالعقيـدة الصـالحة والثـواب ، بينما يضل الظالمين ، وهو قاهر فوق عباده يفعل ما يشاء دون أن يسأل عما يفعل وهم يسألون.

بينات من الآيات :

حوار الضعفاء مع الذين استكبروا :

[21] حين يتبع الإنسان الحق يكون الله ضـامنا لعمله ، أما حين يتبع إنسـانا مسـتكبرا تجبّر عليه زورا وبهتانا ، فما الـذي يضـمن عمله ، يـوم يـأتي المسـتكبر هو والمستضعف ليقفان أمام الله في صف واحد.

(**وَبَـرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعـاً فَقـالَ الضُّـعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**)

أيّ للأقوياء ممن اسـتكبروا ، واعتـبروا أنفسـهم أكـبر من الناس.

(**إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ**)

فهل هم ضـامنون لعملهم؟ وهنا ليس فقط يعـترف المستكبرون بضـلالتهم ، بل وبـان اسـتكبارهم كـان غلطة العمر بالنسبة إليهم.

(**قالُوا لَوْ هَدانَا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ**

مَحِيصٍ)

فلاً مجال للزحزحة عن عذاب الله.

[22] أما الشـيطان الـذي هو النـداء الـداخلي الـذي يوسوس للقلب ، فيتبعه الإنسان ، وهو الذي دلّى أبانا آدم بغرور فأخرجه من الجنة ، وهو بالتالي إبليس الـذي تمـرد على الله واسـتكبر ، وعــزم على خــداع البشر ، انه هو الآخر اخلف وعده ، وكـان من قبل يـزعم انه قـوي ، وانه سوف يغيث الذين يتبعونه ، فها هو يشمت بمن يتبعه.

(**وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَـدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِ**)

الذي له من العقل والعلم على صدقه شواهد وحجج.

(**وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**)

ووعـود الشـيطان أمـاني وأحلام تتناسب وشـهوات الفـرد ، وهي تشـبه التـبريرات الثقافية الـتي ترتـاح إليها النفوس الكسولة والأمم المتخلفة مثل انتظـار المسـتقبل بلا سعي يصنعه ، وإلقاء المسؤولية على عاتق الزمن ، أو لا أقل على كاهل الآخرين أموات أو أحياء.

(**وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ**)

إن جذر التبريرات الـتي يلقيها الشـيطان الـرجيم في فـؤاد الإنسـان هو اشـعاره بأنه مكـره على أفعاله ، وان قضـاء حتميا يفـرض عليه هـذا العمل أو ذاك وذلك بتهويل الأشياء والأحداث والأشخاص عنده ، وتصغير نفسه أمامها وتحجيم دور الإرادة

عنده ، مثلا يقول له : ان تغير سـيرة الآبـاء مسـتحيل ، أو ان تغيير الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أمر لا نقدر عليه ، أو ان مخالفة هذا الأمير وذلك المستكبر غير ممكنة ، أو يقول له : كيف تقـوم الحطبة وقد عملت فيها السـنون ما عملت ، وكيف تغـير الزمـان وقد أفسـده السـلطان ، وما أنت وماذا عسى أن تفعل.

وفي يوم القيامة يعـترف الشـيطان ، بأنه كـان خادعا في قوله هذا ، وان ارادة الإنسان هي التي تصــنع واقعه ، وانه لا حول ولا قوة له ، فلا يغيث ولا يغاث.

(**ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ**)

فلا أنا أغيثكم ولا أنتم.

(**إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ**)

وحقيقة الإشـراك هو ان تعتقد ان أحـدا أو شـيئا غـير الله إله لا يغلب. كلا .. بل كل شــــيء خاضع لله ، ولمن يتوكل.

(**إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

إذا كان جذر التبريرات سلب ارادة البشر ، وتهويل ما دونه في عينه ، فـان العنـوان الظـاهر لكل التـبريرات هو سـلب مسـئولية الفـرد عن جرائمه ، لـذلك أكد الشـيطان في يــــوم القيامة ان للظـــالمين عــــذابا أليما ، فهم لا يستطيعون ان يهربوا من مسئولياتهم أبدا.

وادخل الذين آمنوا الجنات :

[23] أما المؤمنــون فــان ربهم ضــمن لهم جــزاء أعمـالهم الصـالحة ، وقد صـدقوا وعد بعضـهم ، فـتراهم يحبون بعضهم بسلام بعكس أولئك الذين تنابزوا بالألقـاب وتبرؤوا

من بعضهم.

(**وَأُدْخِـلَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**)

فخلـودهم لا يجعلهم آلهة ، لأنه خلـود قـائم على اذن ربهم ، والله وعد بذلك فلن يخلف الميعاد.

(**تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ**)

كلمة طيبة وكلمة خبيثة :

[24] لماذا تشتد الريح بما كسبه الكافرون؟

لأنه لا يعتمد على أساس راسخ الجذور.

حين تكـون عقيـدة الفـرد قائمة على أسـاس العلم ، وتكـون إرادته ضـمانه لتلك العقيـدة ضد ضـغوط الهـوى والمجتمع ، حينها يكــون قــول الفــتى ثابتا على الحق ، لا يغيره إرهاب أو ترغيب أو عسر أو حرج ، فانه يكــون مثل الشجرة المفيدة التي ضربت بجذورها في تخــوم الأرض ، وانتشرت فروعها في عرض السماء.

(**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ**)

[25] ولأن العقيـدة الثابتة ، قوية الجـذور ، ويتعهـدها الفرد بكل طاقاته ، فهي ستكون كثيرة الثمار من أعمــال صالحة ، وأقوال طيبة ، وسلوك حسن.

(**تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ**)

كلّ وقت.

(**بِإِذْنِ رَبِّها**)

بالتوكل على الله.

(**وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

فعن طريق تشـــبيه الشـــؤون البشـــرية بالطبيعة المخلوقة قد يصل العقل الى كنه الحقائق.

وسواء كانت هـذه الشـجرة نخلة أو شـجرة وهمية أو شـجرة مجهولة أو حـتى كـان المـراد بها الشـجرة الطيبة للنـبي صـلّى الله عليه وآله وسـلم ، وأهل بيته الطـاهرين كما جـاء في روايـات كثـيرة ، فـان الهـدف معرفة الأمر الحاسم لثبـات العقيـدة الصـادقة في طيب عطـاء الفـرد وكثرته.

[26] أما الكلمة الخبيثة التي تعـني تلك النفس الـتي لا تعتمد على أصل العقيـدة الراسـخة ، فـان مثلها كمثل شجرة خبيثة ليس لها قرار في الأرض ، ولا ثمر.

(**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ**)

الكلمة في القرآن تشـير الى محتواها وليس لفظها ، كما ان كلمة الله (كن فيكـون) اشـارة الى إرادته العليا ، وعيسى كـان تجسـيدا لكلمة (كن فيكـون) لـذلك سـمي بكلمة الله.

فالكلمة الخبيثة : هي الفكـرة الخبيثة الباطلة ، الـتي تعبر عنها الكلمة وهي كما يشير اليه السياق القـادم ـ ان يجعل لله أندادا ليضلوا عن سبيل الله ـ.

(**كَشَــجَرَةٍ خَبِيثَــةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَــوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ**)

وتشــبه هــذه الشــجرة التجمعــات القبلية أو الحزبية الضالة ، كبني أمية في التاريخ ومثل حزب البعث اليوم.

القول الثابت :

[27] الكلمة الطيبة : هي كلمة التوحيد الـــــتي يثبّت الله عليها المؤمنين ويجعلهم في حصــنه حـتى لا تزلـزلهم عواطف الشــهوات ، ولا تــزيلهم عواصف الضــغوط ، فلا ترغيب الأغنيـاء المـترفهين ، ولا إرهـاب المسـتكبرة قـادر على ان يزحــزحهم عن مــواقفهم الثابتة في الــدفاع عن حقوقهم وعن كرامتهم.

(**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ**)

ذلك جاء في الحديث :

«**كلمة لا اله الّا الله حصــني ، فمن دخل حصــني أمن من عذابي**»

وجاء في الدعاء :

«**بسم الله كلمة المعتصمين وأمان المتحرزين**»

ان النفس البشرية خلقت من ضعف ، وان الشـيطان ، ودواعي الهـوى ، ومشـاكل الحيـاة قد تـتراكم ضـغوطها عليها ، ولو لا الأيمــان بالله ، وتــذكر انه الــرقيب الشــاهد عليها ، والثقة بوعـــده وبنصـــره ، والتوكل على قوته في مواجهة بطش الطغـــاة ، وكيد المـــاكرين إذا لانهـــارت النفس. لذلك يكرر المؤمنون هـذا الـدعاء : «اللهم أعـني على نفسي بما تعين الصالحين على أنفسهم».

أما الظالم الذي يعتدي على حقـوق الآخـرين ، ويبـني ضـــرورات حياته وعيشه على البغي فــان بقايا النـــور في قلبه تسلب منه وكلما توغل في سبيل السعي كلما كـانت توبته عنه أبعد ، وكانت نفسه أميل الى الفساد.

(**وَيُضِلُّ اللهُ الظّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ**)

سورة إبراهيم

أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ بَـدَّلُوا نِعْمَتَ اللـهِ كُفْـراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (29) وَجَعَلُوا لِلّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (31) اللـهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32)

---

28 [أحلـوا] : الإحلال وضع الشـيء في محل اما بمجـاورة ان كـان من قبيل الأجسام ، أو بمداخلة ان كان من قبيل الاعراض.
[البوار] : الهلاك.
31 [خلال] : الخلال جمع خلة ، وخاللته أي صادقته.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

---

33 [دائبين] : الدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه.
[اجنبني] : ابعدني.

الشكر بين الصلاة والزكاة

هدى من الآيات :

وكما ان ربنا ، يثبّت الذين آمنوا بما آمنوا ، فان ضلالة الظـالمين تبـدو منهم ، الا تـرى كيف أنهم يبـدلون نعمة التوحيد ونعمة الرسـالة وسـائر النعم الإلهية المعنوية والمادية الى نقمة بسـبب كفـرهم بها ، وتـرك شـكرها ، وهم يقـودون قـومهم الى دار الهلاك ، في جهنم حين يحترقون بنارها ، ويستقرون منها مكانا سيئا وهم يبـدلون النعمة كفرا حين يفتشون عن أنداد لهم من سلطات جور وعلمـاء سـوء ، فيضـلون بهم النـاس عن الله ، وان مصيرهم الى النار.

ان شـكر نعمة التوحيد هو الصـلاة لله لتوثيق عـرى الايمـان ، والإنفـاق على المحـرومين في السر والعلانية ، والخوف من الحساب في يـوم القيامة حيث لا بيع فيه ولا خلال.

ولمـاذا لا نشـكر ربنا وهو الـذي خلق السـماوات والأرض ، وانزل من السماء ماء فاخرج به هـذه الثمـرات المتنوعة رزقا مباركا لنا ، كما سـخر الريـاح لتحمل الفلك في

البحر ، وسـخر الأنهـار ، وأكـثر من هـذا سـخر الشـمس والقمر يعملان باسـتمرار ، وسـخر النـور والظلام ، وآلاف بل ملايين النعم الـتي لا نحصـيها لو أنا أردنا تعـدادها ، كل ذلك من أجل رفاهنا وتكاملنا ، وان الإنسان لظلوم يطغى في الأرض ، ويكفر بنعم الله ، ولـذلك يكـون مثله .. مثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، كما جاء في الدرس السابق.

بينات من الآيات :

وأحلوا قومهم دار البوار :

[28] الغاية من نعم الله على البشر أن تنعكس في حياتهم المادية شكرا في صورة الوصول بها الى اهدافها ، وفي حيـاتهم المعنوية تكـاملا وهـدى وخلقا رفيعا ، بينما ترى بعض كبراء الكفر يسعون في الأرض فسـادا ، فبـدل ان يطعموا الطعام يتلفونه ، وبدل ان يطعموا منه البائس والفقير يتخذونه وسيلة لاستعباد النـاس وتـذليلهم ، وبـدل ان تبعث النعمة في أنفسهم الرضا والسكينة يـزدادون بها طغيانا وحرصا وإسـرافا ، وبالتـالي قلقا وتـوترا ، وهكـذا يبدلون نعمة الله الى كفر.

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً**)

أظهر امثلة نعمة الله هي نعمة الرسـالة الـتي كفـروا بها ، ولا يزال الكبراء وأشياعهم من خدمة الكفر يكفـرون بهذه النعمة ولا يشكرون.

ولكن هـذه النعمة ليست الوحيـدة الـتي لا يشـكرونها بل هناك نعم اخـرى كـذلك يتخـذونها وسـيلة للكفر ، مثل نعمة السلطة والرفاه والسلامة والأمن.

وهـؤلاء يجعلـون قـومهم في مـنزل الهلاك بسـبب كفرهم بالنعم ، فيقودون الضعفاء في حـرب ضد أصـحاب الرسالة.

(**وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ**)

ان الهزيمة ستكون من نصيب كبراء الكفـار ، ولكنهم يسـحبون وراءهم جيشا من المستضـعفين ، ويـذيقونهم مرارة الهزيمة.

[29] هـذا في الـدنيا أما في الآخـرة ، فـان مصـيرهم جميعا ..

(**جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ**)

[30] ولكي يدعموا سـلطاتهم الطاغوتية على النـاس ، ولكي يواجهـوا منطق الحق بباطل مزخـرف ، فـإنهم يـدعون النـاس الى الأصـنام الباطلة ، مـرة يرفعـون راية العنصرية والعصبية العشائرية ، ومرة ينعقون باسم آبائهم الأولين ، وقد يهتفون باسم الأرض أو اللغة أو الـوطن ، أو باسم الأمن والرفـاه ، كل ذلك ليصـرفوا النـاس عن التوحيد الذي هو أسمى قيمة معنوية للإنسان.

(**وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**)

وهدفهم من كل ذلك التمتع الساذج بلذائذ هذه الـدنيا الدنيّة ، ولكن الى مـتى تـدوم لهم النعم؟ انها لا تـدوم إلّا الى أجل قريب.

(**قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ**)

الشكر الحقيقي :

[31] أما المؤمنـون بالرسـالة فـإنهم يشـكرون هـذه النعمة.

أولا : بإقامة الصـلاة وتنمية روح الأيمـان بالله ، لكي يزدادوا ثباتا واستقامة.

ثانيا : بالإنفاق الذي هو بدوره يزيد النعم.

(**قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ**)

فانفـاق العلم بتعليمه ، وإنفـاق الجـاه ببذله ، وإنفـاق القـوة بالتعـاون مع البؤسـاء ، كل ذلك يزيد النعم ، وليكن الإنفاق سرا لضمان الإخلاص ، وعلانية لتحدي الكفار.

(**سِرًّا وَعَلانِيَةً**)

وليكن لانفاق بإخلاص تام ، وخشية من النار.

(**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ**)

فلا تسـتطيع ان تبـدل بما عنـدك شـيئا ، كما لا تنفك الشفاعة من قبل الأخلّاء والأصدقاء.

توالي النعم :

[32] لمـــاذا نكفر بـــالنعم؟ ولمـــاذا لا نـــؤمن بالله ، ونشكره؟ وهل كنا في غنى عن رحمته؟!

ان أعظم النعم هي نعمة الخلقة الاولى ، ثم نعمة تسخير السماوات والأرض لنا بحيث نقـدر على الاسـتفادة منها ، ولو كانت ممتنعتان عنا ، أو كنا عاجزين عن الانتفاع منهما بجهل أو بضعف فمن الذي كان يسخرهما لنا؟

(**اللـهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ**)

انظر الى الطبيعة المخلوقة نظـــرا جديـــدا وعبريا ، فهل ترى غير نعم الله تحيط بك ..

لمـاذا لا يهز ضـميرك منظر المطر يهبط لك من السـماء نعمـاء ورحمة ، من الـذي رفع ملايين الأطنـان من ميـاه البحر بعد تصفيتها بـالتبخير ، ومزجها بأكسـجين الفضـاء ، وبنتروجين الرعود ، ونشره في كل جهة ، من الـذي جعل في الأرض الأملاح والخصوبة والبذور لتتحول الأمطار فيها الى ثمرات مختلفة؟!

(**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**)

أو تزعم ان السـفن تبحر في البحـار بـأمرك ، فلو ان الرياح ركدت أو ان الأمواج تصاعدت ، فهل جرت السـفن حيث تشتهي.

(**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ**)

[33] والشـمس الـتي هي أكـبر من أرضـنا بكثـير ، والقمر الـذي هو أصـغر من أرضـنا كل يجـري في فلك ونظام بحيث ينفع الحيـاة فـوق كوكبنا بضـوئها وبجاذبيتهما وطريقة دورانهما ، من الذي سخرهما أفلا نشكره؟!

(**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَـخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**)

فعند ما يعم الظلام الارجـاء تخلد الى النـوم براحة نفسية ، وعند ما ينبعث ضياء النهار ، تنبعث حيوية وهمة.

[34] وبالرغم من ان طموحات البشر لا تتحقق عادة جميعها ، ولكن هنـاك تناسب بين هـذه الطموحـات وبين عطاء الله سبحانه ، فبقـدر أملك في الله ، وسـؤالك منه ينشر عليك نعمه.

(**وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ**)

ففي ضيق الشدائد ، وعند المـدلهمات تجد فـرج الله وروحه «(**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ**

إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)» وعند ما تتعب سـفينة أمالك ترسو على شـاطئ رحمة الله الـذي يقـول لك : «**وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذا دَعـانِ**». وهنـاك تجد تحقيق آمالك وتخـاطب ربك قـائلا : «الهي طموح الآمال قد خابت الّا لديك ومعاكف الهمم قد تعطلت الّا عليك ومذاهب العقول قد سمت الا إليك فأنت الرجاء وإليك الملتجأ» [1]

وأي نعمة تحصيها عددا ، أجل لو كانت الأشجار أقلاما ، والبحر يمـده من بعـده سـبعة أبحر ، لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي.

(**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها**)

ان كل خلية في بلايين الخلايا الـتي تشـكل جسـمي نعمة كـبري يعجز القلم عن الاحاطة بها ، ـ فـأي نعمة تحصـيها ـ وكيف ، ولكن أنت تـرى الإنسـان كيف يظلم نفسه بالكفر بنعم الله.

(**إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**)

فـأكثر النـاس يظلمـون أنفسـهم والآخـرين بـالنعم فيتخذون من نعمة اللسان وسيلة التشهير والبهتان ، ومن نعمة اليد البطش والاعتـداء ، ومن نعمة المـال البخل والـترف والاسـتعلاء ، ومن نعمة القـوة الاسـتكبار والقهر والديكتاتورية ، وهكذا يكفرون بنعم الله ، ولا يحققـون بها اهدافها النبيلة ولو فعلوا لكان ذلك شكرا عمليا منهم.

---

(1) من أدعية ليلة الجمعة مفاتيح الجنان قسم أعمال ليلة الجمعة.

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَـدَ آمِنـاً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْـنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْـلَلْنَ كَثِـيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصـانِي فَإِنَّكَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنا إِنِّي أَسْـكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِـوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَـرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ فَاجْعَـلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْـوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَـــراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْـــكُرُونَ (37) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللـهِ مِنْ شَـيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (38)

---

37 [بـواد] : الـوادي سـفح الجبل العظيم ، ومنها قيل للأنهـار والعظـام أودية لان حافاتها كالجبــال لها ، ومنه الدية لأنه مــال عظيم يحتمل في امر عظيم.

الْحَمْــدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَــرِ إِسْــماعِيلَ وَإِسْـحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَــمِيعُ الــدُّعاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُـومُ الْحِسـابُ (41)

إبراهيم أسوة في الشكر

والدعوة الصالحة

هدى من الآيات :

لقد أعلن ربنا ان من يشـــكره يزيـــده عطـــاء ، ومن يكفر به فان عذابه لشديد ، وفي هذا الدرس يضــرب مثلا للإنســان الشـاكر الـذي لا يشق له غبـار وهو إبـراهيم (ع) بينما الدرس التالي يذكّر بمصير الكافرين.

وقد وعد ربنا ان ينصر رسله بسبب خـوفهم من ربهم ، وهذا إبراهيم يرفع الى الله يد الضراعة ليجعل مكة بلـدا آمنا ، ظـاهرا بحرمته ، وباطنا بنظافته عن الأصـنام الـتي أضــللن كثـيرا من النــاس حــتى فقــدت الكــثرة العددية شرعيتها ، وبقي المقياس هو الحق ، واتباع الرسل ، فمن تبع إبـراهيم فهو من إبـراهيم ، أما من عصـاه فـان رحمة الله فقط وليس انتماؤه النسبي الى إبراهيم سوف ينقذه بإذن الله.

وبعد ان اسـتعرض إبـراهيم طاعته لله ، حين اسـكن بعض ذريته في صــحراء الحجــاز حيث لا زرع ولا ضــرع ، دعا ربه بان يوفقهم لأداء الصلاة على وجهها ، وان

يجعلهم قبلة القلوب ، وان يرزقهم من الثمرات ، كل ذلك بهدف ان يشكروا ربهم ، فيستخدموا النعم لراحة الجسد ، وأمواج الروح ، وأن يجعلوا الله الشاهد عليهم لأنه يعلم ما يخفون وما يظهرون ، ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء.

وقد استجاب له ذلك ، أو ليس هو الذي رزقه على الكبر إسماعيل وإسحاق ، فانه إذا سميع الدعاء ، ولكي يكون شاكرا فعليه ان يقيم الصلاة ، وان يدعو لأولاده بذلك ، وان يستغفر الله لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ، حتى تكون آصرته الإيمانية وليس الأسرية أقوى شيء ، وان يخشى الحساب.

هذا إبراهيم قدوة الشاكرين ، أفلا نكون مثله؟

بينات من الآيات :

الاستقلال الفكري :

[35] طيلة اربع وستين قرنا لا أقل كانت مكة بلدا آمنا بدعاء ذلك الشيخ الذي تجرد عن ذاته ، وعن علاقاته النسبية ، وترك فلذة كبده إسماعيل وأمه في تلك الأرض القاحلة بهدف اقامة بيت لله ، يظلله السلام أمام هجمات الشياطين المادية والثقافية.

(**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ**)

وهل كان ينفع السلام العسكري لو تم غزو أبناء إبراهيم ثقافيا واجتماعيا ، واقتصاديا وسياسيا ، لو كنت تزعم بأنك أقل شأنا من الأوربي وان له حق السيادة عليك ، أو زعمت بان عائلة (آل فلان) هم أصحاب الملك والحكم عليك ، دون ان يكون له حق اختيارهم أو رفضهم ، أو زعمت ان الماركسية وأربابها هي أفضل لك

من عبادة الله ، فهل ينفعك الاستقلال العسكري شيئا.

ان أســـوء أنـــواع العبودية لا ريب هي الســـيطرة العسكرية وهي ما دعا إبراهيم ربه ان يأمن أهل مكة منها ، وقد استجاب له ربه دعـاءه ، وابـرز مظـاهره ذلك هلاك أصحاب الفيل ، حيث حمى ربنا البلد الحــرام من الاحتلال العسكري ، وهو ما يسمّيه بالطاغوت.

ولكن أصـــنام العبودية الثقافية ، أو التبعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية أخفى خطـرا ، ولم يسـتجب فيها ربنا دعاء إبراهيم ، إذ يتنافى وما قدر الله من حرية البشر في الدنيا.

[36] ولأن أقوى اسلحة الجبت ، وعبـادة الأصـنام هو الاحساس القوي عند الفرد بضرورة التوافق الاجتمـاعي ، فـان إبـراهيم (عليه السّـلام) أكد ان الأصـنام قد أضـللن كثـيرا من النـاس ، لكي يعـرف الإنسـان ان اتبـاع النـاس يعني الضلالة في الأغلب فيتحصن ضد غرور الكثرة.

(**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**)

ان الأصـــنام تتجسد في قـــوى اجتماعية ثقافية ، أو اجتماعية وسياســية ، وربما لــذلك نسب الضـلالة إليهن ، وجـــاءت بصـــيغة الجمع فلم يقل أضـــلت بينما كـــان ذلك الأنسب الى غـير ذوي العقـول ، لو كـانت الأصـنام هـذه الأحجار والأخشاب المعبودة.

ومن جهة ثانية : لأن قريشا خـــدعوا ضـــمائرهم حين استسلموا لضـغوط الأصـنام ، وبـرروا مـوقفهم المتخـاذل من التوحيد بـــأنهم أولاد إبـــراهيم فلا ضـــير عليهم ، كما فعلت بنــوا إســرائيل مثل ذلك ، لــذلك أكد إبــراهيم (ع) براءته منهم.

(**فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

ربما لم يقل إبراهيم ومن عصاني فان عـذابك شـديد لكي يتجنب الذاتية في تعبـيره فلا يضـمن تعبـيره انه هو سبب العذاب.

دعوة إبراهيم لأبنائه :

[37] إبـراهيم رجل الرسـالة ، الـذي قضى عمـره يجاهد من أجل التوحيد ، فلم يستجب له الا قليل ، فرزقه الله أولياء يرثـون دعوته ، بعد ان بلغ من الكـبر عتيا ، وها هو يـــؤمر ان يســـكن بعض ذريته في صـــحراء قاحلة فيسـتجيب لربه شـاكرا ، وهدفه من الذرية لم يكن سـوى أن يحملـوا مشـعل التوحيد من بعـده ، ولـذلك يطلب من ربه بالنسبة الى ذريته أمرين :

أولا : ان تهوي إليهم أفئدة من النـاس ، وبسـبب حب الناس لهم يستمعون الى تعاليم ربهم.

ثانيا : ان يكفيهم الله أمـــور الـــدنيا ، فـــيرزقهم من الثمرات حتى لا ينشغلوا بطلب الدنيا عن تبليغ الرسالة.

(**رَبَّنا إِنِّي أَسْـكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِـوادٍ غَيْـرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**)

وتـرك بـأمر الله هـاجر وابنها الرضـيع إسـماعيل في أرض مكة ، وكانت قفرا ذلك اليوم بسبب جذبها.

(**رَبَّنا لِيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ فَاجْعَـلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**)

وهذا يـدل على ان هـدف الحج الى الكعبة ليس فقط الطواف حول الأحجار المرصوصة الى بعضها تخشعا لله ، بل وأيضا التمحور حول أوليائها ، الذين هم ورثة إبراهيم ، وحملة مشعل الرسالة ، وهم أئمة الهدى ، والعلمـاء بالله ، الأمناء على حلاله

وحرامه ، وهم بالتالي القيـادة الرسـالية الـتي هي امتـداد لقيادة الرسل عليهم صلوات الله.

(**وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**)

يشـــكرون حج النـــاس ، ورزق الله بخدمة الحـــاج ، وتوجيههم وعدم التسليم لضغوط الغزاة الثقافيين.

كيف نشكر الله؟

[38] وينبغي ان يكون الشكر مخلصا لله ، فلا تتجــرد خدمة الحجـــاج عن دعـــوتهم لي الله ، ولا يجعل ســـقاية الحــاج وعمــارة المســجد وســيلة المفــاخرة والتعــالي ، وبالتالي لا تصبح طقوس الحج قشـورا فارغة ، بل وسـيلة للزلفى الى الله والانابة اليه سبحانه.

(**رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**)

[39] وعاد إبـراهيم يـذكر نعمة الذرية ، ربما لان أهل مكة في عهد النـبي (ص) كلهم من ذرية إسـماعيل الـذي هو اسـتجابة دعـاء إبـراهيم ، فلما ذا يكفـرون بنعمة الله ولماذا ينسون أصولهم.

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَـرِ إِسْـماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ**)

فلو شـــكرنا ربنا ودعونـــاه لاســـتجاب دعاءنا كما استجاب لأبينا إبراهيم عليه السلام.

[40] وإبراهيم (عليه السّلام) ذاته كان مقيم الصلاة ، ومجـــده كـــان بالصـــلاة فلا نجعل نحن أبنـــاءه انتمائنا اليه نسبيا مجـدا من دون اتبـاع تعـاليم السـماء ، وهو يريد ان نكون مثله.

(**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّـــــــلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ**)

[41] وإبـــراهيم عليه السّــلام كـــان منتميا بذاته الى تجمع ايمـــاني أكـــبر ، ولا بد ان نتخذ ذلك التجمع محـــورا لتحركنا لا الانتماء الى نسبه ، ودعاءه للمؤمنين جميعا.

(**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِـدَيَّ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ يَـوْمَ يَقُـومُ الْحِسابُ**)

وهكـــذا ضـــرب الله لنا مثلا من واقع إبـــراهيم ، كيف شـــكر الله على نعمائه ، ودعائه بتحقيق طلباته ، فشـــكره الله واستجاب له ، وكذلك يستجيب للمؤمنين.

وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46) فَلا تَحْسَبَنَّ

---

43 [وأفئدتهم هواء] : متجوفة لا تعي شيئا للخوف والفزع شبهها بهواء الجو.

44 [ما لكم من زوال] : ليس لكم من انتقال من دار الدنيا الى دار الآخرة.

اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (49) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (52))

---

48 [وبرزوا لله] : البروز الظهور.

49 [مقرّنين] : مجتمعين.

[الأصفاد] : جمع الصفد وهو الغل الذي يقرن به اليد الى العنق.

50 [سرابيلهم] : السربال القميص.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ

هدى من الآيات :

الـذين يشـكرون الله ، فيسـتخدمون نعمه في سـبيل خـيرهم ، يكـون مصـيرهم الفلاح مثل إبـراهيم (ع) بينما الــذين يتخــذون من النعم وســيلة للبطش والظلم فــان الأجل الــذي حــدد لاختبــارهم ســوف ينقضي والله ليس بغافل عنهم ولا عن أعمالهم ، انما يـؤخرهم ليـوم القيامة حيث تشــخص منه الأبصــار ، وتــتركز الى موضع الخطر لشدته ، يسرعون الى الداعي ويرفعون رؤوسهم هلعا ، لا يملكـون التحكم بـأعينهم ، بينما تـذهب قلـوبهم الى حيث شــاءت دون ان يتحكمــوا في افكــارهم ، وســيتمنى الظالمون يـوم العـذاب لو يـؤخرهم ربهم الى أجل قـريب حـتى يسـتجيبوا دعـوة الحق ، ويتبعـوا الرسل ، ويتسـاءل القـــرآن : أو لم تكونـــوا قد حلفتم انه لا زوال لكم ، وقد سكنتم في منازل الهـالكين من اسـلافكم الظـالمين. وقد رأيتم مـاذا فعل الله بهم من عـذاب ، وقد نبهكم الله الى هذا المصير عن طريق بيـان القصص الرشـيدة ، وبـالرغم من ان الظالمين يخططـون لأنفسـهم لكي يحصـنوها ضد الهلاك ، الا ان الله يحيط بمكـــرهم وان كـــانت محكمة بحيث تستطيع إرادته ازالة الجبال.

وكما يهلك الله الظالمين كذلك يورث الرسل أرضهم بوعده ، فلا تظن ان ربك يخلف وعده لأنه عزيز ذو انتقام ، وفي يوم القيامة تتحول الأرض غير الأرض حتى تحسبها غير هذه الأرض ، كما تتغير السماوات ، ووقفوا جميعا امام الله الواحد الذي يقهر عبادة بسلطانه ، وهنالك ترى المجرمين مقرّنين في الأغلال ، يلبسون ثيابا من القطران التي يطلى بها جسم الإبل ، بينما تشوي وجوههم النار ، وهنالك تتجسد المسؤولية حيث تلقي كل نفس جزاء أعمالها التي اكتسبتها والتي ضبطها الله بسرعة في الحساب ، هذا نذير بليغ للناس لكي يعلموا انما الله اله واحد ، ولكي يتذكر أولوا الألباب.

بينات من الآيات :

(**إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ**) :

[42] قد يرقى الى قلب البشر الشك ، في هلاك الظالمين بعد ان يزداد ظلمهم وتعديهم ، فيظن المظلومون ان الله غافل عنهم ، ولا يدري ان بعض الظالمين يؤجل حسابهم الى يوم القيامة ، فلا يظنوا أو لا يظن المظلوم ان التأخير علامة الإهمال.

(**وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ**)

اي يوم القيامة حيث العذاب الشديد.

[43] وترى الظالمين يسرعون للفرار من الخطر وحيث يأمرهم الزاجر ، وهم رافعوا رؤوسهم خوفا وهلعا ، ولا يتحكمون في حركة أعينهم ، كما ان قلوبهم فارغة من التفكير في أي شيء سوى في مصدر الخطر.

[مهطعين]

الإهطاع الإسراع.

(مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ)

الإقناع طأطأة الرأس.

(لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ)

أقسام الظالمين في العذاب :

[44] يبــدو أنه ينقسم الظــالمون الى قســمين : من يؤخذ فقط في الآخـــــرة ، وهم الـــــذين لا يقـــــاومهم المظلومـــون ، ومنهم من يعـــذبهم الله في الـــدنيا وفي الآخرة ، وهم الذين تنذرهم هذه الآية.

(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَـذابُ فَيَقُـولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِـعِ الرُّسُلَ)

ودور الرســول هو قطع هــذه الحجة ، فلا ضــير لو لم ينتفعوا من الإنذار.

(أَوَلَمْ تَكُونُـــوا أَقْسَـــمْتُمْ مِنْ قَبْـــلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ)

[45] ولكن كيف اطمأنت نفوسكم الى الــدنيا ، وأنتم ورثتموها من غيركم ، ولو لا هلاككم لما ملكتم بيوتهم ، أو لا تســألون أنفســكم لمــاذا هلك أولئــك!؟ أو ليس بســبب الظلم الذي اقترفوه؟! فهلّا اعتبرتم.

(وَسَـكَنْتُمْ فِي مَسـاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ)

وهذا المنذر هو من تلك الأمثال.

المكر الخاسر :

[46] قد يظن الظـــالمون أنهم لو كـــانوا أفضل خطة من الســابقين لاســتطاعوا ان يحمــوا أنفســهم من جــزاء ظلمهم ، ولكن هيهــات .. كل الظـــالمين مكــروا مكــرا ، ولكن المكر كـان بالتـالي في حـدود سـلطان الله ، وفي إطـار هيمنته ، فهو الـذي زودهم بعقل وإرادة وقـوة حـتى خططوا لأنفسـهم ، ومـتى ما يشـاء يسـلب منهم وعيهم ، فيتحول مكرهم عليهم.

(**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ**)

أي توسلوا بكل وسيلة ممكنة للحفاظ على أنفسهم.

(**وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ**)

فالأمور بيد الله حقا ، وليس بيد العبد ، اختيار ما يريد ، وربنا لا يعصى عن غلبة ، بل بقوته الـــتي منحها لعبـــاده يعصيه الكفار.

وقد يكـون مكر البشر قـادرا على ازالة الجبـال ولكن الأمر بالتالي بيد الله الذي زود الإنسان العقل والعلم.

(**وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ**)

تـزعم الجاهلية الحديثة الـتي اخـترقت الفضـاء بادئة عصر الملـوك ، وغـارت في أعمـاق المحيطـات ، وفلقت الذرة ، ودكت الجبال تزعم انها تستطيع الفرار من عقوبة ظلمها للمحـرومين والمستضـعفين ــ ولكن هيهـات ــ ان الذي زود البشر اليوم بهذه الطاقات قادر أن يسلبها منهم متى ما يشاء.

إن كل جيل من الظـــالمين كـــان يحسب انه قد بلغ القمة في تسخير الطبيعة ، ولكن

بعد حلـول أجله أحـاط به مكـره ، وهلك في الأكـثر بـذات القــوة الــتي زعم انها تحميه ، فــأغرق الله فرعــون ، وابتلعت الأرض قارون وكنـوزه ، ودكّت حصـون عـاد ذات الصخور التي اعتمدت عليها.

[47] كما انه قد يزعم الظـالمون ان الله يتجـاوز عن ظلمهم ، بسـبب أو بـآخر ـ ولكن هيهـات ـ وقد وعد ربك رسله بان يأخذ أعـداءهم بعزته ، وإذا كـانت صـفة الرحمة والغفران أبرز أسـماء الله ، فـان اسم العزيز المنتقم من أسمائه الحسنى أيضا ، وانه سوف ينفّذ هـذا الاسم عليهم بسـبب وعـده للرسل ، فلا يغرقـوا في الرجـاء السـاذج ، ويتوغلوا في ظلم العباد.

(**فَلا تَحْسَـبَنَّ اللـهَ مُخْلِـفَ وَعْـدِهِ رُسُـلَهُ إِنَّ اللـهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ**)

[48] ويبقى ســؤال : إذا لمــاذا لا ينتقم الــرب من الظـالمين على كـثرة ظلمهم؟ أجل انه أخّر انتقامه ليـوم القيامة.

(**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ**)

فلأن البحــار تتبخر ، ولأن الجبــال تتد كــدك ، ولان الأرض تصبح قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، فان الأرض تبـدو وكأنها غـير تلك الـتي نعرفها ، كما انه يتغـير لون السماوات ، وتجتمع أجرامها الى بعضـها ، حيث تجمع الشمس والقمر ، وتتناثر نجومها ، وتكون السماوات غــير هـذه الـتي نراها ، وهنالك يظهر الظـالمون امـام محكمة الله.

(**وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ**)

هنالك يتجلى اسم العزيز ذو الانتقــــــــام ، فهل من مهرب؟

[49] اما المجرمـون فيـؤتى بهم على رؤس الأشـهاد وقد صــفدّوا بــالأغلال الموضــوعة على أيــديهم ، حيث يسلكون في سلسلة طولها سبعون ذراعا.

(**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ**)

بعضهم ملتصق بالبعض مغلولين ـ والعياذ بالله ـ.

[50] وقد البسوا من مادة القطـران سـرابيل ، حيث تحيط بهم مادة لزجة سوداء نتنة تشـبه القـار ــ يطلى بها الإبل ــ فتصـبح كـالثوب للقسم الأسـفل من أجسـادهم ، بينما القسم الأعلى منها ، يحيط به النار فتصبح كالحجاب.

(**سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ**)

دعنا نتصورهم في مادة سائلة يحترق نصف جسـدهم في المــادة ونصــفه في لهيبها ، أو ليس الله عزيــزا ذا انتقام.

[51] وهكــذا لا يــدع الله أية نفس حــتى يجزيها بما كسـبت وهو سـريع الحسـاب ، حيث يحيط حسـابه بكل صغيرة وكبيرة دون أن يعزب عنه مثقال ذرة.

(**لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللـهَ سَـرِيعُ الْحِسابِ**)

وهكـذا لا ينـام أحد على حرير التـبرير ، ويمـني نفسه بالخلاص من ذنوبه الا بالتوبة والعمل الصالح.

[52] وإذا كان عـذاب الله شـديدا فانه حكيم لم يـدع العبــاد من دون ان ينــذرهم بكلام واضح عميق الأثر بلغ قلـوبهم وهـداهم الى الله الواحد الـذي لا يشـارك ألوهيته شـيء أو شـخص ، فلا أمل في شـفاعة الأصـنام ، ولكي يتــذكر من شــاء النجــاة وهم أصــحاب العقــول الــذين يستفيدون من عقولهم.

(**هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ**)
اللهم فاجعلنا منهم.

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث في فضل السورة :

عن الرسول الأكرم (ص) قال :

«**من قــرأ ســورة إبــراهيم والحجر أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعـدد من لم يعبدها**»

(م البيان ـ ص 301 ـ ج 6 ـ 0 ـ 0)

وعن الامام الحسين (ع) قال :

«**من قـرأ سـورة إبـراهيم والحجر في ركعـتين جميعا في كل جمعة لم يصــبه فقر ولا جنــون ولا بلوى**»

(م البيان ـ ص 301 ـ ج 6 ـ 0)

الإطار العام

قصة الحجر تحـــدثنا عن أرض ثمـــود الـــذين كـــذبوا المرسلين وأعرضوا عن آيات الله ، واعتمدوا على بيوتهم المنحوتة من الصـــخور فلم تغن عنهم شـــيئا ، بل اهلكهم الله وبقيت قصـــتهم عـــبرة لنا الّا نعتمد على الصـــخور والأشياء بل على القيم!

نظرة عامة الى السورة توحي إلينا ، بـان اطـار هـذه السورة ينسف ما يعتمد عليه البشر من أفكار تبريرية هي من وحي الشـيطان الـذي أقسم ان يغـوي بـني آدم بكل وسيلة ممكنة ، كما تنسف السـورة اعتمـاد الإنسـان على الطبيعة ، وتهدينا الى الركن الأشد ، وهو الله الـذي يحفظ القرآن من التزوير ، والتحريف ويحفظ البشر من الأخطار ، ويحفظ السماوات والأرض.

وتؤكد الســـورة على أجل الإنســـان الـــذي لا يمكن اختراقه أو تجــاوزه للدلالة على ان شــؤون البشر ليست بيده.

سورة الحجر مكية

وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8)

الأمل الذي لم يسعده العمل

هدى من الآيات :

هذا الكتـاب الـذي نحن بين يديه يقـرء ويفهم بوضـوح يندرنا عن يوم يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين أما اليوم فـــان الأمل يلهيهم عن الحق ، وعن الخطر المســـتقبلي وسوف يعلمون أن افكارهم لم تكن سوى أماني كاذبة.

والله ســـــبحانه تفضل على البشر حيث أرسل إليهم كتابا يبدد ظلام الأمل ، كما أعطاهم فرصة كافية للهداية ، وجعل لهم أجلا معلوما ، لا يسبقونه ولا يستأخرون عنه.

ولكن ذات الأفكار التبريرية حجبت هـؤلاء عن كتـابهم فقالوا للرسول الذي كـان يهبط عليه ما يـذكرهم بصـورة تدريجية حسب حاجاتهم أنك لمجنون ، وطالبوه بان يــنزل عليهم الملائكـة. أولا يعلمـون ان الله لا يــنزل الملائكة الا بحكمة وعنــدها ينتهي أجلهم حيث لا تزيد مهلتهم ، وها هو التاريخ يشهد على ذلك.

بينات من الآيات :

[1] (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**) ، بعلم الله بقوته ، وبرحمته الواسعة ، أنزل قرأنا ، يشار اليه بألفاظ ولكنها علامات واضحة تهدينا الى الحق.

(**الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ**)

الأمل الوثيري :

[2] الأمل الذي يسوّف به الفـرد عمل الخـير ، وينـام على سـريره الوثـير قد يتحـول الى ندامة ، فمن يعيش على «لـو» يمـوت ب «يا ليت» ، ومن يـركب حصـان الأمنية يقتحم به وادي الحسرة.

(**رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ**)

ويكفي ان نظن ظنا أننا سـنندم يوما على فعلنا ، يكفي ذلك موعظة لنا تهز مشـاعرنا من الأعمـاق لأن الندامة لا تنفع وقد قال شاعرهم :

ليت وهل ينفع شـيئا ليت   ليت شابا بوع [1] فاشتريت

[3] سـوف يعلم الكفـار يـوم يقضي أجلهم ان أملهم يلهيهم ، وان هدفهم كان مجرد التمتع بزينة الحياة الدنيا ، وان الأمل كـان مسـكنا لـوخز ضـمائرهم ، وحجابا لـوهج عقولهم.

(**ذَرْهُمْ يَـأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُـوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَـلُ فَسَـوْفَ يَعْلَمُونَ**)

(1) بوع : اي بيع من باع

سنة العذاب :

[4] ان ساعة الندامة شديدة الوطئ حتى علينا ونحن نتصورها ، كيف هي حالة من يضـيع فرصـته الوحيـدة وقد تثـير في أنفسـنا الشـفقة ، ولكن الله يقـول : لقد وفرنا كافة الوسائل الكفيلة لهدايتهم فعاندوا.

(**وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ**)

[5] ولكن الفرصة ليست أزلية وإذا إنتهت فلن تعاد.

(**ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ**)

ويلاحظ في هذه الامة.

أولا : أن الامة وليس الفرد قد حـدد لها الأجل ، وذلك لأن الإفـراد هم اتبـاع تجمع بر وفـاجر. يتفـاعلون معه في خـيرهم وشـرهم لـذلك فـان أجل كل مجموعة ينتهي في وقت واحد.

ثانيا : ان تقـديم الأجل كما تـأخيره غـير ممكن الا أن يشاء الله ، والسبب أن ربنا لا يأخذ أحـدا قبل ان يكمل له فرصته ويتم الحجة عليه تماما.

التبرير منطق التقهقر :

[6] ويبرر الكافر بكفره عناده بالهجوم ضد من يحمل تلك الفكـرة السـليمة ، وهكـذا الكفـار اتهمـوا الرسـول بالجنون.

(**وَقـالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُـزِّلَ عَلَيْـهِ الـذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**)

أنهم كانوا يتهربون من ذكرهم ، ويخـافون من الهداية على متعتهم الزائلة ،

فبالرغم من اعترافهم بأنه صاحب ذكر يريد بلورة عقولهم وتزكية نفوسـهم اتهمـوه بـالجنون لأنه كـان يضـحي بكل راحته ومتعته من أجل مصلحتهم ، ولا يريد مصلحة لنفسه ، فاي تهمة يمكن الصاقها به غير الجنون ـ طبعا ـ حسب ثقـافتهم المتوغلة في المادية ، وحسب تفسـيرهم للعقل وهو الحصـول على أكـثر ما يمكن من المكاسب ينبغي ان يكـون المضـحي من أجل الهـدف ومن دون اية مصـلحة ذاتية ان يكون مجنونا.

أما الجنـون بمعـنى انعـدام العقل فانه ينعكس على تصرفات الفرد ـ في أكله وشربه ـ في سلمه وحربه ـ في أرادته لأصدقائه ـ ومقاومته لأعدائه ـ وهل كـان الرسـول مجنونا بهـذا المقيـاس ، وهل الرسـاليون السـائرون على نهجه مجـانين بهـذا المقيـاس؟ أم بمقيـاس المـاديين السادرين في متع الدنيا الرخيصة؟!

[7] ولكي يـبرروا كفـرهم طـالبوا الرسـول بـأمر تصوروه محالا وقالوا :

(**لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

وهكذا كل فرد لا يريد ان يؤمن بفكرة أو يقـوم بعمل يتعلل ببعض العلل.

[8] ولكن الا يعلمون ان نزول الملائكة ، يعـني كشف الغيب امام عين البشر ، والله جعل الدنيا دار اختبار لعقل البشر وإرادته ، وهل يختـــار الحق على الشــــهوات ، ويكتشف الحق بين الشبهات أم يخضع لشهواته ويستسلم لها ، وحين يشـــاء بعث الملائكة وكشف الغيب فانه ينهي فترة الاختيار ، وبعدها لا تعطي فرصة أخرى للأمة.

(**ما نُنَــزِّلُ الْمَلائِكَــةَ إِلَّا بِــالْحَقِّ وَما كــانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ**)

فعند هبوط الملائكة لا يهمل الناس ، وكل من يمـوت قد يشاهد الملائكة ويؤمن بها ولكن من دون فائدة.

سورة الحجر

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحـافِظُونَ (9) وَلَقَـدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

---

10 [شيع] : الشيع الفرق وكل فرقة شيعه وأصـله من المشـايعة وهي المتابعة.

12 [نسلكه] : ندخله.

13 [خلت] : مضت 14 [يعرجـون] : العـروج الصـعود 15 [سـكرت أبصارنا] : غشيت ومعنى الكلمة انقطاع الشيء عن سننه الجاري ومنه السـكر في الشـراب انما هو ان ينقع عما هو عليه من المصـافي حـال الصحو.

وَلَقَـدْ جَعَلْنا فِي السَّـماءِ بُرُوجـاً وَزَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُـلِّ شَـيْطانٍ رَجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18)

16] : [بروجـا] : الـبروج أصـله الظهـور ومنه الـبرج من بـروج السـماء وبرج الحصن ويقال تبرجت المرأة إذا ظهرت زينتها.
[استرق السمع] : إذا تسمع مستخفيا ، والسرقة عبارة عن أخذ الشيء خفيه.

هكذا يحفظ الله رسالته

هدى من الآيات :

الفكر لا يسـلم من كيد البشـر. إذ ان الإنسـان الـذي ينحـرف يسـعى لتـبرير انحرافه ، ولكي لا يكتشف الفكر الصـائب انحرافه يحـرّف الكفر ذاته بالتأويل والتفسـير ، والله أرسل القـرآن مقياسا للبشر ، وتعهد من ان يحفظه من كيد التحريف ، وبـــالرغم من ان الله أرسل من قبل الرسول رسلا في مختلف فرق الناس الأولين فإنهم كانوا يستهزؤن بالرسل ، ويحرفـون رسـالاتهم ، وسـوف يحفظ الله القـرآن ويسـلكه في قلـوب المجـرمين ليبقى حجة بالغة عليهم لا يقـدرون على تحريفه وهم لا يؤمنـون به ، وسنة الله جـرت على أمثـالهم ثم أخـذهم بشـدة ، وليس عـدم ايمـانهم بسـبب نقص في الحجة بل في أنفسـهم ، فلو ان ربنا فتح بابا في السماء فأخذوا يصـعدون فيه ، إذا قـالوا لقد سـترت أبصـارنا عن الحقيقة وسـحرنا ، ومن لا يستضيء بالشمس هل تنفعه الشـمعة! ان آيـات الله في الكون أكـبر من الصـعود الى السـماء فها هي السـماوات ذاتها ، وما فيها من بروج. جعلت بحيث تشع جمـالا وبهجة ، كما أنها

متينة تتحـــدى الشـــياطين. الا بعض من حـــاول اســـتراق السمع ، فجاءه شهاب مبين ، فهل نفعتهم الآيات هذه؟!

بينات من الآيات :

كيف حفظ الله كتابه :

[9] كل الرســالات الســماوية تعرضت للتحريف من قبل المبطلين ، والقرآن بدوره سوف يتعـرض لمثل هـذه المحاولات ، التي سوف تتجه في اتجاهين.

ألف : محاولة تغيــير النص القــرآني ، وتبــديل كلمة بأخرى.

بـاء : تغيـير معـاني القـرآن ، وتفسـيرها بما يتناسب ومصـالح المحـرّفين وأهـوائهم ، ولان كل كتـاب ينسـخه كتاب الا القرآن الذي جاء خاتمة للرسـالات ، فـان الله قد وعد ان يحافظ عليه لكي يتهيأ للأجيـــــال القادمة فرصة للهداية يقول ربنا :

(**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**)

وهو القـرآن الـذي يثـير في البشر دفـائن عقله الـتي عفا عليها غبار النسيان.

(**وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**)

أما ألفـــاظ القـــرآن ، فقد حفظها الله بنصر الأمة ، ودخـول النـاس أفواجا في دين الله ، وإقبـال النـاس على كتاب الله ، بحيث لم يبق مجال لتحريف ألفاظه.

وأما معاني القرآن فقد قيّض الله سبحانه لهـذه الأمة أئمة هــدى وعلمــاء ربــانيين حفظــوا معــالم الــدين عن الاندراس ، وأصـبحوا بأفعـالهم وأقـوالهم تفسـيرا صـحيحا لنصـوص القـرآن ، ولا يـزال العلمـاء الربـانيون والشـباب المجاهدون ماضين قدما على

نهج أولئك السـلف الصـالح في نفي شـبهات الضـالين وتحريف المبطلين.

الرسالات ومهمة الوحدة :

[10] ولقد أرسل الله في الأمم السـابقة على اختلاف فـرقهم رسلا فلم تكن بدعة رسـالة محمد صـلّى الله عليه وآله ، كما لم تكن بدعة مخالفة النـاس لها ، واستهزائهم بها ، ولكن الله سيحفظ هذه الرسالة بـالرغم منهم.

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ**)

وقد تكـون الشـيع اشـارة الى الفـرق ، «وهي جمع كلمة شيعة وهم الاتباع» للتـذكير بـان كل رسـالة ، كـانت تهدف فيما تهدف ، توحيد الفرق المختلفة التي انقسـمت على نفسها بعد الرسالة السابقة.

[11] وواجه النـاس رسـلهم بأسـوأ طريقة ، حيث استهزؤا بهم.

(**وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

[12] ولكن مع ذلك فان ربنا يتم حجته على النـاس ، ويدخل الذكر في قلـوب المجـرمين. سـواء آمنـوا به أم لا لكي لا يقولوا كنا ناسين ، أو لم نكن نعرف الحقيقة.

(**كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**)

[13] وهذا لا يدل على إجبار المجـرمين على القبـول به ، بل انهم لا يزالـون على اختيـارهم كبشر ، وعلى عاداتهم الإجرامية.

(**لا يُؤْمِنُونَ بِهِ**)

وهذه سنة الله ان من يرتكب الجريمة لا يوفق عـادة للأيمان.

(**وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**)

دليل الله في السماء :

[14] عـدم ايمـان هـؤلاء لا يـدل أبـدا على نقص في الأدلة ، وبالتالي ينبغي الا نجعل ايمـان المجـرمين مقياسا لقبـول فكـرة الرسـالة ، والـديل انه لو فتح الله عليهم طريقا يصعدون عبره في السـماء لما آمنـوا لأن عقـولهم في أكنّة من الشهوات.

(**وَلَـوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباـً مِنَ السَّـماءِ فَظَلُّوا فِيـهِ يَعْرُجُونَ**)

اي اسـتمروا يصـعدون دون ان يكـون الأمر مجـرد لحظات يشتبهون فيها بأنهم يحلمون مثلا.

[15] (**لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا**)

تتوهم العين برؤية باب السماء والصعود فيه ، بسـبب نشـوة أو حجـاب ، ثم يكتشـفون ان جسـدهم يحس أيضا بوضع الصعود ، هنالك يقولون :

(**بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**)

[16] العروج في السماء ليس أكبر آية لربنا بل أكـبر منه هـذه السـماء الـتي جعل الله فيها منـازل وأجـرام ، وأسبغ عليها من الجلال والجمال ما يبهر العقول والعيون.

(**وَلَقَـدْ جَعَلْنا فِي السَّـماءِ بُرُوجـاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ**)

فخالق السماء هو خالق الأرض والإنسان وما فيه من غرائز ، وهو الـذي خلق الأحسـاس بجمـال النجـوم في السماء.

[17] وبالإضافة الى الجمـال البـاهر في السـماء فقد حفظها الله من كل شيطان رجيم ، فالجن الذين يوهمـون البشر بـــأنهم على علم بما يجـــري في الســـماء ، وأنهم يعلمون الغيب أنهم يكذبون.

(**وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ**)

حيث أنه يرجم باللعنة وبالشهاب المبين.

[18] نعم يغامر بعض الشياطين فيقــتربون من بعض المواقع للحصـول على بعض الأخبـار ، فيـأتيهم الشـهاب المبين ليردعهم ليعودوا خائبين.

(**إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ**)

وهكذا نسف القرآن أساس عبادة الشياطين ، واتبــاع الكهنة والمنجمين الذين يكذبون حتى ولو صـدقوا. كما ان القرآن لم ينف وجود بعض المعلومـات المتنـاثرة ، ولكنها غير موثـوق بهـا. من هنا فوجـود بعض المعلومـات لا يـدل على سـلامة المصـدر ، دائما إذ ان هـدف الشـياطين من إعطاء المعلومات السليمة هو تضـليل البشر في القضـايا العامـــة. تماما مثل وســائل أعلام الطــاغوت الــتي تنقل عشرين خبرا صحيحا لتدس خبرا هاما باطلا.

وَالْأَرْضَ مَــدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِــيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعـايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُـهُ وَما نُنَزِّلُـهُ إِلاَّ بِقَـدَرٍ مَعْلُـومٍ (21) وَأَرْسَـلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مـاءً فَأَسْـقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَــهُ بِخــازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَــــدْ عَلِمْنَا الْمُسْــــتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُــــوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

22 [لواقح] : اللواقح الرياح التي تلقح السحاب حتى يحمل الماء يقـال لقحت الناقة إذا حملت والقحها الفحل ، ومفردها لاقحة.

قدرة الله وحكمته ينبوع العطاء

هدى من الآيات :

كيف امتدت الأرض دون ان تهـتز بفعل حركتها ، ومن جعل فيها الجبال التي رست بسـفينة الأرض ، وكيف أنبت الله فيها من المعــادن والنباتــات ، الموزونة ، وجعل الله للإنســــان في الأرض ما يعيش عليه ، كما جعل لســــائر الأحياء ما يرزقها دون ان يكون للإنسان أثر فعّال فيه.

ولكل نعمة ينبوع تفيض منه ، وينــابيع النعم عند الله ، ولكنه لا يــنزل منها الا بقــدر تقتضــيه حكمته البالغة مثلا ينبوع المطر الذي جـاء من بخـار البحـار وعواصف الريـاح التي تلقحها وتحملها حـتى تسـقي النـاس ، ثم تبقى تحت الأرض في خزائن يملكها الله.

والحياة بيد الله ، وخزائن الحيـاة عنـده ، والمـوت بيد الله وأسباب الموت عنده والوارث بعد الموت هو الله.

والعلم بمفاتيح الغيب ينبوع من خزائن القـدرة ، فربنا الـذي يحيط علمه بالسـلف والخلف ، واليه مصـير النـاس جميعا.

هكذا : تتصل شـؤون البشر بمشـيئة اللـه. ابتـداء من أمه الأرض ـ الى معيشـته فيها ـ الى مـاء السـماء ، واليه المصير. أو ليس الأفضل التسليم له؟

بينات من الآيات :

دليل الله في الأرض :

[19] أحب البشر أرضه ، الـــتي نبت فيها ، وارتضع من خيراتها ، ودب عليها ، ومن أجل الـــدفاع عن بضـــعة أشـبار منها أرخص دمـه. أو لا يعلم ان الأرض هـذه خلقها الله ، ومـدها من تحته من بعد ان كـانت كتلة ملتهبة ، ثم قرّر الجبال فيها ، ووضـعها حيث تحافظ على توازنها على أدق نظام ، وهو الذي أحاط علما بوزن الجبال.

(**وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ**)

الرواسي ، الثـوابت وواحـدها راسـية والمراسي ما يثبت به [1].

(**وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**)

الـوزن أدق من الكيل ، وكل شـيء له وزنه الخـاص ليس فقط كمجمـوع بل كما نعلم ان كل مـادة كيمياوية تتركب من ترتيب نسب معينة من المواد الاخـرى. لا تزيد ولا تنقص بحيث لو زادت أو نقصت لأصبحت مـادة أخـرى تختلف بل تتناقض

(1) مجمع البيان 332 ج 5 ـ 6.

خصائصها وميزاتها مع المادة السابقة.

[20] وجعل الله ، للإنســـــان معايشة في الأرض ، فعلمه كيف يعيش ، وخلق أنواع الصـيد في الـبر والبحر ، وعلمه كيف يصيد ويـزرع ، وأودع في الأرض كنـوز الخـير يســتخرجها البشر بالزراعة ، وعلمه كيف يحــول مــواد الأرض بحيث يســـتفيد منها ، كما أنه وفر لكل حي رزقا يناسـبه هل يـرزق البشر بعض أنـواع الهـوام والحشـرات والدواب والطيور ، والأسماك.

(**وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ**)

معايش جمع معيشة وهي طلب أسـباب الـرزق مـدة الحياة [1].

(**وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ**)

وقد تفسر الآية : بان ربنا قد ضــمن رزق من لا يملك حولا مثل المرضى والمقعدين. و. و.

[21] وبالرغم من ان الإنسان يسعى من أجل رزقه ، فهو مثلا : يحــرث الأرض ويطلب الصــيد ، ولكن هــذا السعي ليس سوى وسيلة لاسـتدرار رحمة اللـه. ذلك لأن خزائن الله مليئة بالرزق ، وتنتظر أوامر الله الـتي لا تـأتي الا بحكمة ، ومتى تقتضي الحكمة؟ عند ما يسعى البشر.

(**وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْـدَنا خَزائِنُـهُ وَما نُنَزِّلُـهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**)

فلو أعطى الله البشر من دون ســعي لشــجعه على الكسل والترف ، وإذا أنزل عليه

---

(1) المصدر

أكثر من حاجته طغى في الأرض.

[22] ومن خزائن رحمة الله بركات السماء ، فالرياح تهب بسـبب حركة الشـمس ، فتلقح السـحب. تجمعها ، وتربط السالب والموجب فيها ، وتجعلها مهيأة للمطر.

(**وَأَرْسَلْنَا الرِّيـاحَ لَـواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ**)

أنما ربنا الـذي يخـزن بقية المِيـاه في خـزائن جـوف الجبال.

قدرة الله وحكمته :

[23] والمـوت والحيـاة بـأمر الله ، ولو لا الحيـاة هل كانت اموال الإنسان تنفعه شيئا؟!

(**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ**)

فالأموال تعود بالتالي الى الله.

[24] وهكـــــــذا ينبغي الّا نعبد الأرض وما فيها ولا معايشـــنا ، بل نعبد الله ربنا لا ســيما وربنا يحيط علما بالبشر الخلف والسلف.

(**وَلَقَـدْ عَلِمْنَا الْمُسْـتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَـدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ**)

[25] وأنه سوف يحاكم الجميع بعد ان يحشـرهم اليه ، وهو حكيم لا يجازيهم الا بما كسبوا ، عليم بما فعلوا.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**)

سورة الحجر

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْــنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نـارِ السَّـمُومِ (27) وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خـالِقٌ بَشَـراً مِنْ صَلْصـالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ سـاجِدِينَ (29) فَسَـجَدَ الْمَلائِكَـةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُــونَ (30) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُــونَ مَــعَ السَّاجِدِينَ (31)

---

26 [صلصال] : الصلصـال الطين اليـابس يسـمع له عند النقر صلصـلة والصلصـلة هي القعقعة ويقـال لصـوت الحديد ولصـوت الرعد صلصـلة وهي صوت شديد متردد في الهواء وصلّ يصل إذا صوت.
[حمأ] : الحمأ جمع حمأة وهو الطين المتغير الى السواد.
[مسنون] : من سننت الماء على وجهه اي جببته وقيل المتغير.
27 [الجان] : مفرد جنان وهو أبو الجن (إبليس).
[السموم] : الريح الحارة أخذ من دخولها بلطفها في مسام البدن.

قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَـكَ أَلاَّ تَكُـونَ مَـعَ السَّـاجِدِينَ (32) قـالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْـجُدَ لِبَشَـرٍ خَلَقْتَـهُ مِنْ صَلْصـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْـنُونٍ (33) قـالَ فَـاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الـدِّينِ (35) قـالَ رَبِّ فَـأَنْظِرْنِي إِلى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ (36) قـالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قـالَ رَبِّ بِما أَغْـوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قـالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْـتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْغـاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْـوابٍ لِكُـلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

---

36 [فانظرني] : أمهلني في الدنيا ولا تمتني.
39 [اغويتني] : الإغواء الدعاء الى الغي والضلال.
[لأزينن] : الـتزيين جعل الشـيء متقبلا في النفس وإغـواء الشـيطان تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه.

كيف

يتحدى المؤمن غواية الشيطان

هدى من الآيات :

الأرض التي تحتضننا خليقة الله ، فما ذا عن الإنســان فوق الأرض ، وما هي قصته التي لا تنتهي؟

لقد كــان ترابا فجعل طينا ، وبقي حــتى تســنّه ، ثم أصــبح صلصــالا كالفخــار يابسا يخلق منه البشر ، وقبلئذ خلق الجان من نار أوجدتها الرياح السامة.

وبـدأت القصة حيث قـال الله للملائكة ــ وكـان بينهم بعض الجــان ـــ وهو إبليس : أني خــالق بشــرا من طين يابس متخذ حمأ مسنون ، وأمرهم بان يسجدوا له متى ما أصبح سـويا متكـاملا ، وعند ما يبعث فيه من الـروح الـتي خلقها ، فاذا بهم يسجدون جميعا ، ويأبى إبليس ، ويســأله الــرب : لمــاذا لم تكن من الســاجدين؟ فيجيب : أو لست قد خلقتــني من نــار ومثلي لا يســجد لبشر مخلــوق من صلصال قد أتخذ من هذا الحمأ المتغـير ، فيخرجه الله من ساحة قربة ويرجمه بلعنته ، ويطرده الى ان

يأتي يوم الدين فيحاسب. بيد انه يطلب الامهـال الى يـوم البعث ، فيعطيه الرب مهلة معيّنة لا يعرف مداها ، ويتوعد بني آدم : بان يزين لهم في الأرض وان يغـيرهم أجمعين ، ولكنه يعـرف ان هنـاك عبـادا لله قد أخصـهم ربهم لنفسه بسـبب عبـادتهم له وتسـليمهم لأوامـره ، ويؤكد ربنا ان هناك صراطا مستقيما يتعهـده الله ويسـير عليه عبـاد الله الـذين لا سـلطان لإبليس عليهم. انما سـلطانه على من يتبعه وهم الغاوون الذين سيكون مصيرهم جهنم الـتي لها سبعة أبواب. كل فريق منهم يدخل من باب بينما المتقون في جنات وعيون يدخلونها وهم سالمون آمنـون. لا يعيش في قلوبهم غل وهم اخوان يجلسون على سرر متقـابلين. لا يعـتريهم تعب لا يخشـون من إخـراج. تلك هي قصة الإنسان فوق الأرض فهل نعرف مغزاها؟

بينات من الآيات :

مراحل الخلق :

المرحلة الاولى :

[26] كيف خلق الله الإنسان الأول؟

ان ربنا أحسن الخـالقين قد يخلق شـيئا بقوله كن فيكـون (**إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ**) وقد يخلقه وفق السـنن والأنظمة ، وقد خلق جسد الإنسـان بهـذه الطريقة حسـبما تشـير اليه تكاملية خلقه وضمير الجمع في «خلقنا» أما روحه فقد نفخها فيه بقدرته المطلقة وبصـورة مباشـرة حسـبما تـوحي اليه اية (**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) وضمير المفرد في قوله هنا : ونفخت فيه من روحي.

وهكـذا تـدرج الإنسـان من تـراب ، ثم الى طين لازب والى حمأ مسنون والى صلصال كالفخار ، والى ان سـواه ربنا إنسانا فنفخ فيه من روحه.

(**وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنْ صَلْصـالٍ مِنْ حَمَـإٍ مَسْنُونٍ**)

الصلصـال : الطين الجـاف ، الحمـاة ، والحمأ : طين أسود منسق ، والمسنون : المتغير.

يبـدو ان ربنا أجـرى على الـتراب مـاء فتفاعل معه فأصبح طينا لازبا ، ثم تفاعل معه فأصبح متعفنا ، ثم نمت الحياة فيه بفعل التفاعل وخلق فيه الحياة فأصبح مسـتويا ، ثم نفخ الله فيه روح العقل والإرادة ، فاسـتحق سـجود الملائكة.

قـال صـاحب مجمع البيـان : وأصل آدم ترابا ، وذلك قوله : «**خَلَقَهُ مِنْ تُـرابٍ**» ثم جعل الـتراب طينا ، وذلك قوله : «**وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ**» ثم تـرك ذلك الطين حـتى تغير واسترخى وذلك قوله : «**مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**» ثم ترك حتى جف وذلك قوله : «**مِنْ صَلْصـالٍ**» فهـذه الأقـوال لا تناقض فيها. إذ هي أخبار عن حالاته المختلفة [1]

الطبائع البشرية :

ويبـــدو ان لكل أصل من أصـــول البشر رواسب في خلقته ، فلأنه من تـراب يحن الى الأرض ، ويحب العمـارة فيها ، وينبغي ان يكون خاضعا لله ، ساجدا عليها ، لا يـرى أحد انه أفضل من غـــــــيره بطبعة لأن طبعهم جميعا هو التراب.

ولأنه من طين لازب فهو ابن الشـــهوات والأهـــواء ، ولكنه يتصلب على شيء بسبب كونه من صلصـال ، وتلك جميعا طبـــائع البشر المادية ، أما الـــروح فلها خصـــائص أخرى.

[27] قبل ان يخلق الله البشر خلق عدوه ـ الجـان ـ الـــذي يقابل الأنس ، ذكر هنا بلفظة جـــان للدلالة على طبيعته كما نقول الإنسان ، ونشير الى طبيعته دون

(1) مجمع البيان ج 5 ـ 6 / الصفحة 335

ملاحظة أفراده.

كيف خلق الجـــان ، يبـــدو ان ريحا تحمل الســـموم بسـبب حرارتها ، وقد عصـفت فاوجـدت نـارا فخلق الله منها الجان.

(**وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ**)

[28] وأما كيف أصـبح الجـان عـدو الإنسـان فلـذلك قصة أخرى بدأت مع اخبار الله ملائكته : انه سـوف يخلق بشرا.

(**وَإِذْ قـالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَـةِ إِنِّي خـالِقٌ بَشَـراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**)

وعرف الملائكة طبيعة هذا الخلق كما جاء في سـورة البقرة. انه ما دام من الطين فلا بد ان يفسد في الأرض.

المرحلة الثانية :

[29] ولكن الله انبـأهم ان له طبيعة اخـرى يسـتحق بها السجود والخضوع تلك هي روحه الإلهية.

(**فَإِذا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ ساجِدِينَ**)

ويبدو ان التسوية هي تكامل جميع الأعضاء ، وتعـادل الغرائز وهذه مرحلة تسبق مرحلة بث الروح.

[30] أما الملائكة الـــتي هي الأرواح المطيعة لربها ، المكلفة بتســـيير الخليقة حســـبما يأمرها جبارها ، فانها سجدت لآدم لمكان الروح التي نفخت فيه من الله.

(**فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**)

وكما استوحينا من آية في سورة البقرة : ان الملائكة ترمز الى قوى الطبيعة الـتي سـخرت للبشر ، بينما بقيت قوة في الطبيعة هذه هي قوة نفسه الموكل بها إبليس.

[31] لـذلك لم ينضم إبليس إلى مجموعة السـاجدين متعمدا وعن سبق إصرار.

(**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**)

[32] لم يرضى الرب بذلك ، بل نهره قائلا :

(**قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**)

فقـوى الشر ليست ضـمن برنـامج السـماء ، ولا هي مقضـية من قبل الـرب على البشر إنما هي شـذوذ عن سـنة الله ، وتمـرد مـؤقت لإرادته ، ولـذلك ينبغي الا يستسلم لها البشر ولا يعترف بشـرعيتها ، ويناضل ضـدها أبدا حتى ينتصر عليها بإذن الله.

[33] وتعليل إبليس كان أسوء من عملـه. إذ زعم انه أفضل من آدم ، وأخطأ مرتين :

مرة حين أعتقد ان ابن النـار أفضل من ابن الـتراب ، واعتقد ان افضـلية المخلـوق هي بأصـله ، لا بعلمه وبفوائده.

والمـرة الثانية ، حين تمـرد على أوامر الله ، اعتمـادا على هذا الزعم ، فحـتى لو كـان أفضل من آدم ـ جـدلا ـ فان سجوده بأمر الله ليس سجودا لآدم ـ في الواقع ـ بل لمن أمره وهو الله. ان طاعتك مثلا للنبي أو الامام ليست طاعة له في الواقع بل لله ، وإن تسـليمك لأوامر قيادتك الإلهية ليس تسليما لبشر ، بل لمن أمرك بذلك.

(**قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَـرٍ خَلَقْتَـهُ مِنْ صَلْصـالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**)

ونسـتوحي من هـذه الآية : ان طينة الإنسـان لم تكن مقدسة تستدعي السجود من

قبل الملائكة بل ان كرامته من الله ، وبقـــــدر طاعته لله لان طينته كـانت من طين يـابس متخذ من طين متعفن ، وقد نفـــرت منه بعض قـــوى الطبيعة لزعمها أنها أفضل منها.

[34] ولأن التمــرد على الله ، ومخالفة الحق شــذوذ في برنامج الحياة وليس جزء مقدرا منه ، أو جانبا مقضـيا ، فقد طرد ربنا إبليس من مقام الارادة والتوجيه ، وأبعـده أيضا عن مقــام الطبيعة المــأمورة ، ورجمه باللعنة فهبط إبليس بذلك ثلاث درجات :

الاولى : حين قال له الله :

(**قالَ فَاخْرُجْ مِنْها**)

أي من مقــام الملائكة حســبما يهـدي اليه الســياق ، وقالوا من الجنة أو من السماء أو من الأرض ، ولان مقام الملائكة هو مقام الأمر حيث أنهم ينفـذون أوامر الله على الطبيعة فهم وسـائط امـره عز وجل فلـذلك كـان إخـراج إبليس من ذلك المقــام الــذي هو الســماء بالنســبة إلينا ، «السماء مصدر الأمر في القرآن» اللعنة الاولى.

الثانية : حيث اسـقطه الـرب عن مقـام سـائر ما في الطبيعة مما استســلمت لأوامر الله طوعا فأصــبح رجيما وقال له الله :

(**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**)

ونستوحي من الآية ـ مرة ثانية ـ ان العصـيان شـذوذ في الطبيعة لا قاعدة.

[35] الثالثة : حين كتب عليه الــرب اللعنة فأصـبحت الطبيعة ضده وقال تعالى.

(**وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ**)

واللعنة هي الأبعـاد من رحمة الله ، ويـوم الـدين هو يوم الجزاء.

المرحلة الأخيرة :

[36] وانتهت المرحلة الثانية من قصة الخليقة ، وبقيت المرحلة الأخـيرة الـتي هي عبرتها ، وما يلتصق بحياتنا أكـثر فـأكثر ، ذلك ان إبليس طلب من الله فرصة الى يـوم البعث ، فأعطـاه الله فرصة معينة الى يـوم معلوم ، قد يكون قبل يوم البعث أو هو يوم البعث ذاته.

(**قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)

وهنا كشف القرآن عن فلسفة المسافة الزمنية الـتي تفصل بين الجزاء وبين العمل في الدنيا.

[37] (**قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**)

والبشر بدوره يعطى مهلة الى أجل محدود.

[38] وينتهي الأجل الى وقت معلـوم عند اللـه. مجهول عند صاحبه.

(**إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**)

قـال البلخي : «فـأبهم ولم يـبين لأن في بيانه إغـراء بالمعصية» [1].

[39] أخذ يهـدد إبليس بـني آدم الـذي كـان سـبب اختباره وبالتالي لعنته.

(**قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي**)

---

(1) المصدر ص 338

لم يضل الله إبليس إلا بعد أن أختـــــار بكامل وعيه وبسـابق قصـده عصـيان أمر الـرب ويكفي في معـنى السبب الـذي توحيه كلمة «بـاء» ، هـذا القـدر من العلاقة وخلاصة معنـاه رب كما انك اختبرتـني ففشـلت ، فـاني سوف أهيئ لهم وسائل الاختبار فيفشـلون ، وهكـذا أنتقم منهم ـ وكان الله يريد ان يختبر عباده ـ وهـذا إبليس رشح نفسه لهـذه المهمة ، كما ان الله يريد ان يعـذب القـوم الظـــالمين فيرشح من هو أظلم منهم نفسه للانتقـــام فيتركه الله ـــ بينه وبينهم – فيصـدق الحـديث القدسي : «الظالم سيفي أنتقم به وأنتقم منه.

» أما كيف وبأية وسـيلة أراد إبليس إغـواء البشـر؟ فلقد كشفها لنا قائلا :

(**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**)

أي سـوف أجعل الأرض جميلة في أفئـدتهم حـتى تستهويهم.

[40] إغواء إبليس كـاغواء الله لإبليس. مجـرد اختبـار وليس إجبـار ، ويشـهد عليه ان عبـاد الله المخلصـين يتمردون عليه.

(**إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**)

[41] وصراط الله مستقيم وهو الى الله ، وعلى الله المحافظة عليه مستقيما ، والّا يـدع التشـويه والانحـراف يصـيبه كما قـال سـبحانه في الآية العاشـرة من هـذه السورة : «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**».

(**قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**)

فمهما كـان لإبليس من قـوة الإغـراء ومن جمـال الـتزيين ، فـان الله لن يـدع له المجـال لتحويل الحق الى الباطل ، وبطمس معالم الدين كليا.

[42] وأنه لن يدعه يجــبر الإنســان على اتباعه ، نعم من تبعه يضله الله ، ولا يعينه على الشيطان الغوي.

(**إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ**)

وهم اختاروا سلطة إبليس اختيـارا ولم يجـبرهم عليها الله ، فحرام تبرير البعض خطأهم وانحرافهم بـأنهم كـانوا مجبورين.

[43] أما الغاوون فان الله أجل عذابهم الجماعي إلى جهنم.

(**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**)

[44] حيث تختلف أبواب الضلالة ولكنها بالتـالي تنهي الى ذات المصير الواحد.

(**لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ**)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَـلامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ إِخْوانـاً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَـبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبـادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَـذابِي هُـوَ الْعَـذابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَـيْفِ إِبْـراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُـوا عَلَيْـهِ فَقـالُوا سَـلاماً قـالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُـونَ (52) قـالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53)

---

47 [غـل] : الغل الحقد الـذي ينغل في القلب ، والغلـول الخيانة الـتي يطوق عارها صاحبها.
[سرر] : السرير المجلس الرفيع موطأ للسرور وجمعه الأسرة.
52 [ووجلون] : خائفون

قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّـرُونَ (54) قالُوا بَشَّرْناكَ بِـالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقـانِطِينَ (55) قـالَ وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَـةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّـالُّونَ (56) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قـالُوا إِنَّا أُرْسِـلْنا إِلى قَـوْمٍ مُجْـرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُـوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَـهُ قَـدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60)

55 [القانطين] الذين يقنطون من رحمة الله والقنوط هو اليأس.

النهاية بين المتقين والمجرمين

هدى من الآيات :

تلك كـانت البداية أما نهاية البشـرية ، فـان من اتقى فان مقامه جنات تظلله وعيون ترويه ، وسلام أبدي ووئام مع اخـوان الصـفا ، وراحة بلا نصب ، واقامة بلا إخـراج ، وغفـران من الله الغفـور الـرحيم. أما من أجـرم فـان له عذابا أليما.

وكمثل على ذلك في الـدنيا ، جـزاء الله لإبـراهيم إذ دخل عليه ضـيوف مكرمـون فسـلّموا عليه ، ولكنه أبـدى خوفه منهم فطمأنوه بألّا يخاف لأنهم جاؤوا يبشرونه بغلام عليم ، فاستغرب فرحا وقـال : كيف وأنا كبـير السن فهل تبشروني بحق؟! قـالوا بلى ولا تكن آيسا من رحمة الله ، فاستدرك إبراهيم قائلا كيف أقنط ولا ييأس من رحمة ربه إلّا الضالون ، وهذا جانب من فضل الله.

ثم سألهم عن وجهة سـيرهم؟ قـالوا : نحن مبعوثـون الى أناس مجرمين ـ هم قوم لوط ـ حيث نهلكهم ، إلّا آل لـوط المؤمـنين الـذين سـوف ننجيهم أجمعين ، باسـتثناء امرأته التي ستكون من الهالكين ، وهذا جانب من عـذاب الله.

بينات من الآيات :

[45] من هم المتقون وما هو جزاءهم؟

المتقــون هم الــذين لا يســتجيبون لإغــواء إبليس ، ويتجنبون مصائده ، ويعرفـون كيف يـزين لهم في الـدنيا ، وجزاءهم كالتالي :

أولا : يأكلون ويشربون بلا تعب.

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**)

[46] ثانيا : يشعرون بسلام أبدي.

(**ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ**)

وكلّ الناس يبحثون عن عاقبة أجسادهم وأعراضـهم ، وعن ضمان مستقبلهم ، ولكن المتقين هم وحدهم الــذين يدركون كلّ ذلك.

[47] ثالثا : بعد أن يشــعر الفــرد باطمئنــان كــاف ، يبحث عن مؤمـــنين يتقاسم معهم النعمـــاء ، فالمؤانسة غـذاء الـروح ، والعطـاء راحة القلب ، ويـوفر الله للمتّقين هذا الطموح ، فينزع كلما في صدورهم من مرض قلبي ــ كالحسد والبخل والطمـع. و. و. ــ حـتى تكـون نفوســهم متلاقية متســامية عن الحجب ، ثم يجلســون على ســرر متقابلين ، وما أحلى مقعدهم (!).

(**وَنَزَعْنا ما فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ إِخْوانـاً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ**)

[48] رابعا : ليســوا بحاجة الى إتعــاب أنفســهم أو الخوف من المستقبل.

(**لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ**)

النصب : التعب ، وربما ارتبط التعب بـــــالخوف من المستقبل في الآية ، بسبب ان أكثر تعب الناس في الدنيا أنما هو للحرص على الدنيا ، والخوف من المستقبل.

[49] كم يبعث السـكينة في النفس البشـرية الـتي تعيش القلق على المستقبل المجهول ، والخوف من آثـار الأخطـاء والـذنوب حين يطمأنه رب العـالمين بأنه هو الغفور الرحيم ، بكلمات ملؤها الحنان فيقول :

(**نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

لقد أعلن الرب رسميا لمن وصـفهم بـأنهم عبـاده قد خلقهم رحمة بهم لأنه هو الغفـور. يمحي آثـار الـذنوب الماضية ، الرحيم يزيد من يتوب من رحمته.

[50] ولكنه في ذات الوقت ينبغي أن يكـون مرهـوب الجانب.

(**وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ**)

ضيف إبراهيم :

[51] وكشاهد على ذلك ، قصة ضيف إبراهيم ، حيث جـاءت الملائكة إبـراهيم بالبشـرى بينما حملت الى قـوم لوط ، العذاب الأليم.

(**وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ**)

[52] (**إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ**)

ربما لأنهم جـاؤوا في وقت غـير مناسب ، أو لأنّهم لم يـأكلوا من طعامه ، وكـانت العـادة تقضي بـان من يأكل طعاما في بيت لا يلحق بأهله أذى احتراما للـزاد والملح ، فاذا لم يأكل يعتقد انه ينوي شرا.

[53] (**قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**)
فلقد جئناك مبشرين لا منــذرين ، ونحن ملائكة ربك ، والملائكة كما نعــرف تتمثل في صــورة بشر ســوي كما تمثل لمريم.
[54] وكان إبراهيم ينتظر بفـارغ الصـبر هـذا الحـدث السعيد ، وقد أشرف على اليأس بسبب طـول الانتظـار ، وها هو الــرب يبشــره ليس بــالغلام فقط وإنما أيضا بأنه صاحب فضل وعلم ، وبالتالي هو الولي الذي ينتظـره منذ وقت ليكــون وارث علمه وهــداه ، ولأن إبــراهيم فــوجئ بالأمر فقد كان رد فعله الأولى التعجب والاستغراب.
(**قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ**)
فانا قد احتـواني عمـري الطويل ، وقد شـارفت على مرحلة الشـيخوخة الـتي لا تقل عن المـرض الـذي يمس صاحبه. فكيف تبشروني؟!
(**فَبِمَ تُبَشِّرُونَ**)
هل هذه مجرد أماني وكلمات ترحاب يتبادلها الناس ، أم وعد مؤكد من الله.
[55] (**قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِ**)
وبـأمر من الله ، وليس مجـرد أمنية حلـوة نتمـنى لك تحقيقها.
(**فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ**)
ذلك ان رحمة الله واسـعة ، وتـنزل على البشر بقـدر أملهم في الله ، وثقتهم فيه ، فلما ذا اليأس.

[56] ونفى إبراهيم أن يكـون تسـاؤله بسـبب قنوطه ويأسه من رحمة الله ، بل ربما كـان بسـبب عـدم معرفة جدية البشـارة ، لـذلك نـراه يؤكد ان الضـالين الـذين لا يعرفـون إحاطة الله بقدرته وعلمه ورحمته على الكـون ، هم وحدهم الـذين يقنطـون ، فما دام ربك واسع الرحمة ، قـريب مجيب الـدعاء ، وقـادر على كـلّ شـيء. فلما ذا القنوط؟!

(**قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**)

[57] ولما اطمـأنت نفس إبـراهيم الى أن ضـيوفه ملائكة الله سألهم عن وجهتهم؟ لمـاذا هبطـوا الى الأرض هل لمجرد بشارته ، أم لأمر جلل.

(**قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**)

الخطب : الأمر العظيم.

[58] (**قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ**)

[59] وعـرف إبـراهيم انهم ملائكة العـذاب مبعوثـون الى قوم لوط وتساءل عن مصير لوط ، فقالوا له :

(**إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ**)

هو ومن آمن معه من أهله وقومه.

[60] وليس النجاة لآل لوط لأنهم ينتسبون اليه ـ لان عـذاب الله أليم ، ولا تحيد عن الظـالمين ـــ لـذلك فـان امرأته جزاءها الله الهلاك.

(**إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ**)

أيّ الهالكين.

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُـوطٍ الْمُرْسَـلُونَ (61) قـالَ إِنَّكُمْ قَـوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنــاكَ بِــالْحَقِّ وَإِنَّا لَصــادِقُونَ (64) فَأَسْــرِ بِأَهْلِـكَ بِقِطْـعٍ مِنَ اللَّيْـلِ وَاتَّبِـعْ أَدْبـارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُـؤْمَرُونَ (65) وَقَضَـيْنا إِلَيْـهِ ذلِـكَ الْأَمْـرَ أَنَّ دابِـرَ هـؤُلاءِ مَقْطُـوعٌ مُصْـبِحِينَ (66) وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِـرُونَ (67) قـالَ إِنَّ هـؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللـهَ وَلا تُخْـزُونِ (69)

---

62 [منكرون] : غير معروفين.
65 [فأسر] : الإسراء سير الليل.

قــالُوا أَوَلَمْ نَنْهَـكَ عَنِ الْعــالَمِينَ (70) قــالَ هــؤُلاءِ بَنــاتِي إِنْ كُنْتُمْ فــاعِلِينَ (71) لَعَمْــرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سـافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجــارَةً مِنْ سِـجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِلْمُتَوَسِّـمِينَ (75) وَإِنَّها لَبِسَــبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذلِــكَ لَآيَــةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِنْ كانَ أَصْـحابُ الْأَيْكَـةِ لَظـالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمـامٍ مُبِينٍ (79) وَلَقَـدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَـلِينَ (80) وَآتَيْنـاهُمْ آياتِنا فَكــانُوا عَنْها مُعْرِضِــينَ (81) وَكــانُوا يَنْحِتُــونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْـبِحِينَ (83) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84)

---

72 [يعمهون] : من العمه وهو أشد العمى.
75 [للمتوسمين] : المتوسم الناظر في السمة الدالة وهي العلامة.
76 [لبسبيل مقيم] : في طريق ثابت.
78 [الأيكة] : الشجر الملتف وجمعها أيك.

العذاب حصاد الظالمين

هدى من الآيات :

وجاء ضيوف إبراهيم الى قـرى لـوط ، فلما شـاهدهم لوط لم يعـرفهم فقـالوا نحن جئنا لتحقيق وعد الله الـذي كـانوا يشـكون فيه ، وهـذا هو الحق ونحن صـادقون فيه ، وأمــروه بــان يخــرج من قريته ليلا هو وأهله وليكن خلف أهله يشــــــــــيعهم ، ولا يلتفت أحد منهم الى ما وراءه ، وليمضــوا الى حيث يــأمرهم الله دون تــردد ، وقد نــزل بقومه قضاء الله الذي قرر أن يهلكهم دون أن يبقى منهم أحد يحفظ ســلالتهم. هــذا من جهة ، ومن جهة ثانية حين اكتشف أهل القرية وجـود الضـيوف ، جـاؤوا يستبشـرون ليفجروا بهم تصدى لهم لوط وقال : بان هؤلاء ضـيفي فلا تفضـحوني في ضـيفي ، واتقــوا عـذاب الله ، ولا تجلبــوا الخــزي عليّ. أمّا هم فقد اســتمروا في غيهم ، وقــالوا : نحن لا نقبل جـوارك لأننا قد نهينـاك سـابقا عن اسـتقبال الضــيوف وإجــارتهم ، فعــرض عليهم النكــاح من بناته والاسـتعفاف بهن عن الفاحشة ، ولكنهم كـانوا لا يزالـون في سكرتهم يعمهون.

وهكـذا أخـذتهم الصـيحة في وقت الشـروق ، وجعل الله عـــالي القرية ســـافلها ، وأمطر عليهم حجـــارة من سـجيل ، وان قصة هـؤلاء عـبرة لمن ينتفع بـالعبر ، وانها لعبرة قائمة ولكن ليس كلّ شخص يستفيد من العــبرة إلّا المؤمنون!.

ومثل لوط قوم شعيب وهم أصـحاب حقـول مزروعة انتقم الله منهم ، وكانت قريتهما في موضع يؤمه الناس.

وأصـحاب الحجر كـذبوا بــدورهم المرســلين ، وكلما أتـاهم الله من آياته أعرضـوا عنها ، وأخــذوا ينحتــون من الجبـال بيوتا آمـنين فيها ، فـنزل عليهم عـذاب الله حيث أخـذتهم الصـيحة في وقت الصــباح ، فهل منعت بيــوتهم عنهم شيئا من العذاب. كلا ..

بينات من الآيات :

وجاء الضيوف :

[61] جـاء ضـيف إبـراهيم الى قـرى لـوط حيث كـان يقطنها مجموعة من المجرمين ، وقطاع الطرق.

(**فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ**)

والتعبـــير بكلمة «آل» يـــدل على أن نظــامهم كـــان عشائريا. شأن سائر القبائل العربية آنئذ.

[62] فلما رآهم وقد جـاؤوا اليه ، بهيئة شـباب عليهم مسحة من الجمال والجلال فسألهم بعد أن استضافهم.

(**قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ**)

فلســـتم من أهل المنطقة ، ولكي لا يمســـهم قومه بسوء لذلك أجارهم على عادة القوانين الشائعة في قومه التي ينبغي أن يأخذ المؤمن الرسالي بأفضلها وأنفعها.

[63] افصـحوا عن أنفسـهم وبينـوا أنهم ملائكة الله ، وقد جاؤوا بالعذاب الذي شكك قومه فيه أنفسـهم طـويلا. فها هو العذاب يأتيهم.

(**قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ**)

[64] وكـانت المفاجـأة ، وارتسـمت على وجه لـوط علائم الاسـتغراب وعـاد الملائكة يؤكـدون على أن ميعـاد العذاب قد حان اليوم بلا شك.

(**وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ**)

[65] ثم أمــروه بالرحيل ، وهجــرة الصــالحين نــذير العذاب على الآخرين وكانت الهجرة ســرية ربما خوفا من منع النــاس لهم ، وكــان المفــروض على لــوط أن يســير خلفهم ويشهد تحركهم لكي لا يبقى أحد منهم.

(**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ**)

يبــدو أن لــوط أثّر فقط في أهله بينما بقي الآخــرون على فسادهم.

(**وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ**)

أي اقتفي أثــرهم ولان الهجــرة كــانت صــعبة لــذلك جاءهم الأمر.

(**وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ**)

أي لا ينظر الى ما وراءه.

(وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

واستمروا من دون تردد أو تراجع ، وهكذا ينبغي ان يهاجر الرسالي قومه بعد يأسه منهم دون شفقة عليهم أو حنان ، أو ميل الى ما يخلفه فيهم من مال أو أقارب.

[66] وقضى الله ، وأخبر لوطا بقضائه بذلك الأمر الخطير ، وهو الحكم بالأعدام الكامل لسلالة تلك العشيرة الفاسدة.

(وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)

فلا أحد يبقى منهم ليستمر نسلهم فيه حتى زوجة لوط التي كانت منهم هلكت معهم حيث حنّت على قومها ، والتفت الى ما ورائها من أهل ومتاع.

وهكذا تجسد الحق في انتقام شديد من قوم فسدوا ولم ينفعهم الإصلاح شيئا.

[67] هذه صورة من المشهد ، أما الصورة الثانية فإنّ أهل المدينة استبشروا بالضيوف ، لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ عليهم ، وكان موقعهم الجغرافي يساعد على هذه الفعلة حيث كانوا على الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بالشام على ما نقل عن قتادة.

(وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

المسؤولية الاجتماعية :

[68] فتلقاهم لوط بالنصيحة ، وأجار الضيوف.

(قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ)

وكان الاعتـداء على الضـيف بمثابة الاعتـداء على من هو في بيته في عرف تلك القبيلة الصحراوية.

[69] ثم نصحهم أكثر فـأكثر ودعـاهم إلى الحـذر من عذاب الله ، وبين أن الاعتـداء على ضـيوفه يلحق الخـزي به ، وهو لذلك يدافع عن شرفه إذا تعرض ضيوفه لأذى.

(**وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ**)

[70] أما هم فقد رفضوا قبول إجارة لوط ، لأنه كـان يفعل ذلك دائما ، فكلما دخل قريته غريب استضافه حـتى لا يصـاب بـأذى من قبل قومه ، وكـانوا قد أكـدوا عليه ألا يقبل بعدئذ أيّ ضيف.

(**قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ**)

ونستوحي من هذه الآية أمرين :

الأول : ان القبيلة العربية فقدت مع الزمن خصائصـها الانسـانية كاجـارة الضـيف ، ولم تبق فيها بقية من قيم يتشبث بها الضعيف والغريب.

الثـاني : ان لوطا عليه السّـلام ضـحى بكـلّ ما يملك من أجل الضـعفاء ، فبـذل شـرفه وكرامته من أجلهم ، وهكـذا ينبغي ألّا يكتفى بـترداد شـعار الـدفاع عن المحرومين ، بل لا بدّ أن يدعم بالعمل الواقعي.

[71] وبلغ الأمر بلـوط أن عـرض على قومه الـتزوج ببناته لكي لا يتعرضوا لضيوفه بأذى.

(**قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ**)

ويبدو أن توجيه لوط الى البنات كان يهدف بالاضافة الى ما قلنا : تذكرة قومه ان السبيل القويم لإفراغ الشهوة الجنسية هو السبيل الفطري الذي يحافظ على النسل ، وليس الشذوذ الجنسي ، ومن هنا يكون حديثه شاملا لبناته من صلبه ، وبنات قومه باعتباره شيخا ، أو قائدا يعتبر كل الفتيات بناته.

[72] ولكنهم كانوا مترفين قد أسرفوا في الشهوات حتى أسكرتهم الغريزة الجنسية فلم يعودوا يفرقون بين الإناث والذكران ، ولا بين الغريب والضيف والمستجار وبين قومهم.

(**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**)

أيّ قسما بحياتك يا رسول الله ، وأنت يا من تتلوا القرآن ان قوم لوط قد فقدوا أبصارهم بسبب سكرة الشهوات ، والعمر ولعمر بمعنى ولكن عند الحلف يستخدم عمر بالفتح.

[73] عند ما لم يبق أمام لوط أيّ حل ، ركن الى الله ذلك الركن الشديد فكشفت الملائكة عن حقيقتهم له ، وطمأنوا لوطا بأنهم لن يصلوا اليه ، وجرى بينهم وبين لوط ، الحوار الذي بيّنه السياق.

(**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**)

عند الصباح ، حين لم يستطيعوا أن يردوا عن أنفسهم البأس.

[74] وقلب الله مدينتهم على رأسهم.

(**فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**)

والسجيل فارسي معرب ، أيّ سنك وكل (حجارة وطين) وقال أبو عبيدة : هو

الحجارة الشديدة [1].

[75] وها هي بلادهم مهدمة ، فمن يعتـــبر منهـــا؟ بالطبع ليس كل الناس بل المتوسـمون منهم فقط الـذين يكتشفون الحقائق من خلال سماتها وعلائمها.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**)

أما الـذين يجمـدون على ظـواهر الأمـور ، وينظـرون الى ركام الصخور دون أن يتفكروا انها كانت في يوم بيوتا معمــورة فما الــذي جعلها هكــذا ، فهم لا يعتــبرون من قصص قوم لوط.

[76] (**وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ**)

قال الطبرسي : معناه ان مدينة لوط بطريق يسلكها الناس في حـوائجهم ، فينظـرون الى آثارها ويعتـبرون بها لان الآثــار الــتي يســتدل بها مقيمة ثابتة بها وهي مدينة سروم. [2]

ويبدو إن ضمير «إنها» يعود الى الآيات ، فمعناها إذا : أن الآيـات قد وضـعت معـالم على طريق ثـابت ، وثبـات الطريق وضـوحها ، ولـذلك جـاء في الحـديث المـأثور عن أهل البيت (ع): «والسبيل فينا مقيم». [3]

[77] ولكن لا يسلك هذا الطريق إلّا المؤمنـون ، وهم في المتوسمين حقا لأن

---

(1) مجمع البيان ـ ج 5 ـ ص 183.
(2) مجمع البيان ـ ج 6 ـ ص 343.
(3) المصدر.

الإيمــان بصــيرة المــرء ، من خلالها ينظر الى الحقــائق الظاهرة فيؤمن بما ورائها من حقائق واقعية.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**)

ومن هنا جـاء في الحـديث : «اتّقـوا فراسة المـؤمن فانّه ينظر بنور الله». [1]

أصحاب الأيكة تحت الغمام :

[78] هنـاك شـاهد تـاريخي آخر نجـده في أصـحاب الأيكة الذين أتاهم الله ، حقولا مزروعة فظلموا أنفسهم.

(**وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ**)

[79] وأصـبح ظلمهم ظلمـات عليهم ، فعـاقبهم الله بالحر سبعة أيام ثم جاءت سحابة اسـتظلوا بها يلتمسـون الــبرد فيها ، فلما تجمعــوا تحتها تحــولت الى صــاعقة أحرقتهم جميعا.

(**فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ**)

وبقيت لنا عـبرتهم ، وعـبرة قـوم لـوط ألّا وهي : ان تـدبير الحيـاة يتم مـرة بالرحمة ومـرة بالانتقـام فلا ينبغي الركـون الى النعمة ، أنما يجب الحـذر باسـتمرار من يـوم الانتقام وها هي قصص قوم لوط وأصـحاب الأيكة ظـاهرة ، وآثارها قائمة في طريق واضح يؤمه الناس.

(**وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ**)

---

(1) بح 17 ص 75 رقم 9

ويبدو أن معنـاه : ان قـوم لـوط وأصـحاب الأيكة كانا مع امام واضح ، من رسول وكتاب ، فلم نعذبهما من دون إنذار مسبق.

أصحاب الحجر : الأمن الحجري :

[80] وشاهد ثالث من واقع أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا أخاهم صالحا وكذبوا من ورائه كلّ الرســالات والرســل. إذ لا ينفع الايمــان برســول مضى والكفر بهــذا الرسول.

(**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ**)

وحجر أسم مدينتهم.

[81] ولقد وفر الله لهم سبل الهداية ولكنهم أعرضوا عنها عمدا.

(**وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ**)

[82] كـلّ ذلك ثقة بحضـارتهم وبالمتعة الـتي شـعروا بها في ظل الــبيوت الصــخرية العالية الــتي نحتوها من الجبال.

(**وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ**)

[83] ولكن الصيحة العالية التي أخـذتهم كشـفت عن مدى خطـأهم ، وان الـبيوت لا تعـوّض عن القيم ، كما ان القوة لا تحمي الشخص عن انتقام الحق.

(**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ**)

[84] (**فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)

فهل اســـــتطاعت مكاســــبهم المادية أن تمنع عنهم العــذاب الــذي لحقهم بســبب كفــرهم بــالحق وبــالقيم الالهية؟!

إذا مقيـــاس الأمن ليس القـــوة بل الحق لأن بنـــاء الســـماوات قــائم على أســاس الحق حســبما يــأتي في الدرس القادم إنشاء الله.

سورة الحجر

وَما خَلَقْنَا السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِـالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْـفَحِ الصَّـفْحَ الْجَمِيـلَ (85) إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَـدْ آتَيْنـاكَ سَـبْعاً مِنَ
الْمَثانِي وَالْقُـرْآنَ الْعَظِيمَ (87) لا تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْـكَ إِلى
ما مَتَّعْنا بِـهِ أَزْواجـاً مِنْهُمْ وَلا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ
جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُـلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (
89) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِـمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُـوا
الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)
عَمَّا كـانُوا يَعْمَلُـونَ (93) فَاصْـدَعْ بِما تُـؤْمَرُ وَأَعْـرِضْ
عَنِ الْمُشْـرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنـاكَ الْمُسْـتَهْزِئِينَ (95)
الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهـاً آخَـرَ فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ (
96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَـدْرُكَ بِما يَقُولُـونَ (97)
فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّـاجِدِينَ (98) وَاعْبُـدْ
رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ

هدى من الآيات :

لأن الحق هو محــور الســماوات والأرض وبه خلقن ، فإن الإنسان لا يبقى بلا جزاء وان لم ير جـزاءه في الـدنيا كقوم لوط وثمود وأصحاب الأيكة ، فانه سيراه في الآخرة الــتي لا ريب من مجيئها ، ولمــاذا الضــجر؟ دع الكفــار يعملــون ما يشـاءون. اسـتقم في طريقك ما دام الله هو الخلاق العليم خلقهم هكذا ليبتليهم ، وأرض يا رسـول الله وأنت يا من تبعته بــالقرآن المتشــابهة آياته ، لا تشــغل نفسك بما يملكــون من نعم متشــابهة ، واتــرك الاهتمــام بالكفــار وركز نظــرك واهتمامك بــالمؤمنين ، ويكفيك بالنسبة الى الكفار أن تنذرهم.

وكما أنــذر الله الــذين اقتســموا القــرآن جــزء جــزء فطبقــوا منه ما وافق أهــواءهم ، وتركــوا البــاقي ، فهل يحســبون انهم يــتركون هكــذا. كلا .. بل ســوف يســألون جميعا عما عملوا ، فــأبلغ رسـالتك حسـبما أمـرت واتـرك المشركين والذين يسـتهزئون منهم. يكفيك ربك شـرهم ، والمشـركون هم الـذين يتخـذون إلها آخر غـير الله ، وفي المستقبل

يجازون بأفعالهم.

ولكي يزيـــدك الله ســـعة في الصـــدر تقابل بها اسـتهزاءهم فسـبح بحمد ربك وأسـجد له ، واسـتقم في العبادة حتى تحصل على أفضل يقين بالعبادة الدائمة حتى الموت.

وهذه خلاصة عـبرة سـورة حجر الـتي ذكـرت بمصـير المســتهزئين في الــدنيا ، واســتقامة الرسل ، وعـــدم تزلــزلهم بــأقوالهم ، وينبغي أن يكــون كــلّ ذلك وســيلة لهداية المؤمنين أيضا.

بينات من الآيات :

[85] تكفينا نظـــــرة عميقة الى الطبيعة من حولنا لنعرف أن كل شيء خلق بحكمة وبهدف ولأجل محــدود ، وهذا يهدينا الى الحكمة من خلق الإنسان.

ونتساءل : إذا كـان خلق البشر أيضا لحكمة وإذا كـان الإنسـان محكوما بسـنة الحق كما الكـون من حوله ، فلما ذا يكتسب بعض النـاس الجـرائم دون أن يعـاقبوا ، ويـأتي الجواب :

لأن الله قد وعد أن يأتي يوم الجزاء بعد يوم الابتلاء ، إذا ينبغي ألّا يضـيق صـدرنا بما يفعله الكفـار ، بل نـتركهم بعد أن ننذرهم وبعد أن نهتم بشؤون المؤمنين من الناس.

(**وَما خَلَقْنَا السَّـــــماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**)

بلى إذا تكتّل المشـــركون وأرادوا منع المؤمـــنين من أداء فرائض دينهم ومنعوا

المستضـعفين من الايمـان ، فـان الله يـأذن للمؤمـنين بالجهاد ، كما قـال تعـالى : (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**).

الصـفح : هو الإعـراض ، والإعـراض الجميل هو الـذي يسبقه الوعظ والإرشاد ، ويلحقه التمني بالهداية.

[86] والله هو الـذي خلق الكـون والإنسـان هكـذا لحكمة ، فلا يجـوز أن أهلك نفسي من أجل النـاس أو جبرهم على الإيمان.

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**)

السبع المثاني :

[87] المشركون يملكـون ألوانا من النعم المادية من الأموال والأولاد والزينة والقـوة ، ونحن بـدورنا نملك ألوانا من النعم المعنوية ، فلا سـبب يـدعونا الى محـاربتهم للحصول على ثرواتهم لأننا أغنياء بثروتنا المعنوية.

(**وَلَقَـدْ آتَيْنـاكَ سَـبْعاً مِنَ الْمَثـانِي وَالْقُـرْآنَ الْعَظِيمَ**)

لقد فسـروا السـبع من المثـاني ـ بأنه سـورة الحمد لأنها تحتـوي على سبع آيـات وذكـرت فيها المترادفـات أو المتقابلات مثل «**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**» أو (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) إذا فهي مثاني ، أيّ محتوى آياتها مثنى مثنى.

ويبدو أن القرآن الحكيم قد نزل على سـبعة أحـرف ، أو بتعبير آخر على سـبعة أبـواب للعلم تتلخص في سـورة الحمد ، التي احتوت على معـاني القـرآن الحكيم بايجـاز ، وتتبين في سائر آيات الذكر بتفصيل.

وإذا كـان نـور القـرآن يشع من مشـكاة واحـدة دون اختلاف أو تناقض ، فإن آياته

متشابهة وهي مثاني ، كما ان نعم الكفار ذات ألوان وهي أزواج. بعضـها يـزين بعضا ، وآيـات القـرآن بعضـها يفسر بعضا.

ويظهر من هـذا البيـان ان القـرآن العظيم هو السـبع المثاني ولا منافاة بين التفسيرين. التفسـير الـذي يقـول : ان معـنى المثـاني هو الحمد ، والتفسـير الـذي يقـول أنه القرآن كله لأن القرآن كله قد أوجز في تلك السورة.

[88] والمؤمن يستغني بما لديه من ينـابيع المعرفة ، عما يملكه الآخرون من متع الحياة الدنيا ، فلا يطيل النظر فيما يملكه أولئك من زهرة الحياة الدنيا.

(**لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ**)

قـال في المـيزان : المـراد بـالأزواج : الأزواج من الرجال والنساء ، أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصـارى والمجـوس والمعـنى لا تتجـاوز عن النظر عما انعمنـاك به من النعم الظـاهرة والباطنة الى ما متعنا به أزواجا قليلة أو أصنافا من الكفار. [1]

(**وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**)

فلا تأبه بكفرهم لان من يبالغ في الاهتمام بالكفـار قد يقع في بعض الأخطاء.

أولا : قد ينشـغل بـذلك عن الاهتمـام الجـدي بالفئة المؤمنة ، والسعي وراء تـربيتهم وتعبئة طاقـاتهم ، كالـذي يؤتيه الله أرضا ، فلا يشـكر الله عليها ، ولا يحرثها بل يفكر أبـدا بتلك الأرض الاخـرى الـتي لم يحصل عليها ، ويحزن عليها.

---

(1) الميزان ـ ج 13 ـ ص 92.

ثانيا : قد يــدعوه ذلك الحــزن الى محاولة إكــراههم على الإيمان بصورة أو بأخرى مما يتنافى وسنة الاختيـار ، وقد يتم ذلك عن طريق التنــازل عن بعض أركــان الــدين كما فعلت الكنيسة في بعض عصــورها فحــرفت تعــاليم الســماء رغبة في توســيع رقعة نفوذها والحصــول على المزيد من الأتباع.

(**وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

اشارة الى الرفق بهم ، والاهتمام بشؤونهم كما يفعل الطــــائر إذا أراد أن يضم اليه أفراخه حين يبسط أجنحته عليها ثم يخفضها لها. [1]

التجزيئيون في الميزان :

[89] وبقدر ما يهتم الرسـول بـالمؤمنين يـذر الكفـار لشؤونهم ، ويكتفي بإنذارهم لأن الإيمان أو الكفر لا بد أن يكونا بحرية الفرد التامة.

(**وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**)

[90] وينـذر الرسـول كـلّ النـاس ، بعـذاب شـديد لو تركوا القرآن أو قسـموه أقسـاما ، فـتركوا جـزء منه ذلك الذي يخالف هواهم.

(**كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ**)

أي أنزل العذاب عليهم.

[91] أما المقتسمون فهم الذين فرقوا دينهم وهم :

---

(1) المصدر.

(**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**)

عضـين جميع عضة ، وأصـلها عضـوة فنقصت الـواو ولـذلك جمعت عضـين ، مـأخوذ من الأعضـاء ، يقـال : عضيت الشيء أيّ فرقتّه وبعّضته.

والسؤال : من هم هؤلاء؟

قـال بعضـهم : انهم اليهـود والنصـارى قبل الإسـلام (**الَّذِينَ فَرَّقُـوا دِينَهُمْ وَكـانُوا شِـيَعاً. كُـلُّ حِـزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**) ، والمراد من القرآن هو كتاب الله.

بينما قـال البعض : ان طائفة من قـريش قسـموا القرآن فقالوا : هذا سحر ـ هذا كذب ـ هذا شـعر ، وكـانوا ينتشـرون في شـعاب مكة يضـلون النـاس عن القـرآن ، فعذبهم الله ، وأهلكهم جميعا.

ويبـدو أن التفسـير الأول : أقـرب بـالرغم من أن القـرآن مثله كمثل الشـمس يجـري في عهد اليهـود والنصـارى ، كما يجـري في عهد المسـلمين الأول في أولئك المسـتهزئين ، وفي عهـدنا يجـري في أولئك الـذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفـرون ببعض بينما القـرآن نـزل (**مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُـودُ الَّذِينَ**) آمنـوا ، وكلّه من عند الله.

[92] ولكن هل يـترك هـؤلاء. أم هل يكتفي ربنا بعذابهم في الدنيا. كلا .. بل ان لهم يوما للحساب طويلا.

(**فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**)

[93] (**عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ**)

[94] أما أنت يا رسـول الله فعليك بالإنـذار بكـلّ وضوح.

(فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ)

ولا تخشــاهم ولا تأبه بهم ولا تحــاول أن تسترضــيهم بإخفاء بعض الكتاب وإظهار بعضه ، ومعـنى الصـدع الجهر بالحق.

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[95] وأكـــثر ما يـــؤلم الداعية ويثـــير أعصـــابه ، ويســتقطب اهتمامه هم المســتهزئون الــذين يســتخفون بالرسالة والله سبحانه وعد أن يكفي رسوله والـدعاة الى الله شر هؤلاء.

(إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

في التفاسير أنهم كانوا في عهد الرســول خمسة نفر من قريش أو ستة فأهلكهم الله عن آخرهم.

[96] وهم في الواقع لا يســـــــــتهزئون بك انما هم مشركون ، وهم أعداء الله.

(الَّذِينَ يَجْعَلُــونَ مَــعَ اللــهِ إِلهــاً آخَــرَ فَسَــوْفَ يَعْلَمُونَ)

فمشــكلتهم ليست معك لــذلك لا يضــيقن صــدرك بأقوالهم.

(يَضِيقُ صَدْرُكَ) :

[97] ولكن الرســـول بشر ، وكـــان عليه الصـــلاة والســلام يحب رســالته ويتفــانى من أجلها ، فلم يكن من السهل عليه أن يسمع استهزاءهم لذلك سلّاه ربه سبحانه قائلا :

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ)

[98] وأمـره بـان يسـبح الله كلما ضـاق صـدره فانه منزه عن أقوالهم.

(**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**)

التســبيح اشــارة الى أســماء الله الجلالية ، والحمد اشـارة الى أسـمائه الكماليـة. على المـؤمن أن يـنزه الله عن الضعف والعجز والموت والغفلة. و. و. كما يذكره بأنه الحي القيوم العليم القدير. و. و.

(**وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**)

لله بالصـلاة ، وكلما سـجد العبد لربه كلما تعـالى عن التأثر بأذى الكفار ، واستهزائهم.

[99] ولكي يحصل الداعية على أعلى مراتب القـرب والزلفى لا بد أن يديم العبادة لله.

(**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**)

فلا أجل للعبادة الا لقـاء الله ، وأفضل تطلع للإنسـان المسلم أن يختم حياته بخير وقد وصّى يعقوب بنيه قائلا : (**وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**) وسمى الموت بـاليقين لأنه يكشف للبشر الحقائق العارية حـتى يحصل منها على يقين كامل ، والخطاب ليس فقط للرسول بل لكلّ قارئ. أو لم يـنزل القـرآن على لغة (إيـاك أعـني واسـمعي يا جارة).

الفهرست

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة ابراهيم

سورة الحجر